احتلال العقل

التطبيع ■ الحصار ■ صراع الغد

محمد الجزائري

احتلال العقل

التطبيع ■ الحصار ■ صراع الغد



إحتلال العقل
محمد الجزائري
الطبعة الأولى 1998

دار الورّاق للنشر - لندن
توزيع دار الكنوز الادبية
بيروت / لبنان ـ ص.ب: 11-7226

First edition in the UK 1998
Published by AL - WARRAK LTD
132 Hammersmith Rd.
London W6 7JP
ISBN: 1 900 700 060

المحتويات

لوحة الغلاف: [حصار] للفنان العراقي: [أردش]

أقـــواس

■ "احتلال العقل أشقّ بمراحل من احتلال الأرض. ! "

(..... ......)

■ "سيكون هناك عبيد دائماً، على الرغم من ان الاسم قد تغير"

(وليم غولدنغ)

■ "بيني وبين نفسي مسافة الأعداء

بيني وبين الحرية، مسافة الصحراء"

(ناديا تويني)

من: راقدة على اغصانكم ...

□ القسم الأول:

■ التطبيع

1- سؤال الحاضر

هل تم تقويض هويتنا الثقافية؟

هل نحن، الآن، بلا هوية؟

هل (العولمة) في السوق، إنتقلت الى "عولمة" في جسم الكتابة وروح الفكر؟

هل تفككت البنى أكثر؟

هل تعيد "الانسانوية" بعض ملامح العروبية، أم تذوبها؟

من اشتغل على مَن؟

وهل مانزال نحتفظ بذاكرة تاريخية؟ لأي مدى، ولأي جيل؟

هذه وغيرها اسئلة عسيرة تبحث عن اجابات لاتقل عسراً، لأنها لن تلد من حقائق بلا ألم، أو من تداخلات بلا تناص، أومثاقفات بلا هدف.

كي نفهم مسارها، ونقف عند مساقها، لابد أن نفهم حالنا، نفهم فسيفساء اختلافاتنا، ووحدة تنوعها في آن، أو الوحدة في تنوعها،.. لكن ان تكون مستقلة. أو هل هي كذلك حقاً؟

ليست هذه أسئلة شك تبحث عن يقين. لكنها أسئلة مرحلة متأزمة تبحث عن إجابة أو إجابات للغد، لأننا هناك من الصعب، عند ئذٍ، ان نسأل: من نحن، من نكون؟

لأننا قد نكون جزءاً ضالاً في القطيع ـ أو شجرة في المشهد ـ أو

ربما لاهذا ولا ذاك!

من نكون، اذاً، في الغد.. ان لم نعرف من نحن في الحاضر:

أمة أم جماعات؟

أنظمة، أم ولايات؟

ماذا يدفعنا الى التفاؤل بغدنا؟

وماذا يدفعنا الى التشاؤم؟

الثروات، التي الى ضياع؟

البشر، الذين الى منفى؟

هل الحنجرة لم تعد تغني: " أمجاد ياعرب.. أمجاد" ؟

والنشيد الأممي هل نسيه الرفاق؟

ولانقدر على استعارة "الآخر"، لاننا، بعدُ، لم نفهم اختلافنا، و لم نحترم اختلافنا.

"ماالعمل؟ "

أنوقظ "ابن زريق البغدادي" من خِدر التاريخ؟

أم نوقظ "ابن خلدون" من غفوة الحضارة؟

لا وقت.

لامتسع..

فالمصالح تركض أسرع من المباديء، لتقطف الثمار.

إنها اسئلة الحيرة، لأننا في مفترقها تماماً، تعصف بنا، بعدُ، "عاصفة" الأوحد المهيمن!

احترم الذين لازالوا يبحثون عن انظمة منطق في "منطق" أنظمة. فالبحث عنوان العقل، والعقل يبني، أو يهدم، حسب المهاد، وحسب المساف الذي فيه يسير، أو ربما.. على حافة الوحي، يمضي.

هل نجدد "النهضة" باكتشاف الذات ونقدها؟

ولم لا نخلق السبل الى نهضة مستقبلية؟

مَن الأهم: الحفر في عقل الماضي وتراثه، أم الحفر في درب القادم الخطير من المتغيرات؟

هل نبحث عن وجود النص، ام نص الوجود؟

ماذا نفعل ازاء المغلق ان كان المفتوح وهماً، أو في احسن الاحوال محض حدوس؟

هل نُبقي المثقف سيد الوضوح، أو من حيث هو واهب آمالٍ، وأمنيات، حسب؟

ماذا تبقى من مسار الطوباوية، هل ظل حقاً ثمة تصور لحالة مثالية للانسانية؟

هل نستعيد طفولة أرض، وبكر اشتراكية؟

كيف نصوغ سبيكة التضارب، التضادات؟

أي مسار يجري في دم القادم من (الكائنات)؟

هل نظل نبحث عن جسر بين (الغفاري) و (الكندي)، بين (الجاحظ) و(المأمون) والإعتزال،.. بين (المعري) وجحيمنا؟ بين المتنبي والجواهري؟

أم نكتفي باعتبار "الانسان المتغرب" نزعة انسانوية. في المطلق؟ في عالم يندر فيه وضوح الخير، والشر "المطلقين"، كما يندر فيه "مطلق" تمييز بين الأفضل والأسوأ.

تاريخ قرننا هذا مخاتل، وسيقذف بعجائب تلك المخاتلة الى القرن القادم، والمثقفون الذين نذروا أنفسهم روحاً وجسداً، فيما مضى، الى حتف أفكارهم ومبادئهم، ذهبوا..

ذهبوا الآن في غيب الأنظمة، أو متاهات العزلة، أو ملاذات الندم، أو محاولة ترميم الذات، والبدء، ثانية، من شيخوخة القلب: علّ وعسى!

ورحل الذين رحلوا مع أحلام الوحدة، على أية ضفة كانوا، لأنهم لم يتشبثوا بجوهرها، طردتهم صعقة العجالة، أو تلك الردة السوداء مع سقوط جدار برلين، فتحاربت القبائل ضد بعضها ثم الافخاذ داخل القبيلة الواحدة، ضد بعضها، ثم الأسر، فالافراد.. وتقسمت المذاهب الى ملل ونحل وشيع وتناحرات، داخل الوحدة الواحدة صارت "وحدات" تتقاطع، تتقاتل، ولا تتفاهم.

سقطت الانظمة والاقنعة معاً..

نحتاج الى زمن نعيد فيه للمتنبي شباب أفكاره الأولى، وللبحتري ألق المعنى، وللعامرية وللعامري عذرية العشق، وللانترنيت ان نكونه في رسالتنا، لا أن يكونه في رسالته لنا..

والأخطر.. اننا نتحدث عن (ديمقراطيات) في غربٍ تبناها منذ قرنين، وداسها في عقر دارها بالعقب الحديدية. منذ قرنين، ولا يزال!

نتحدث عن "اتنيات" في شرق ممزق، يختبيء مرة خلف برق نفسه، ولا يظهر سوى عينين لامعتين!.. أو باحثتين عن لماع روح وجسد!

إذاً..

من هم الذين اختاروا عبودية جديدة، مزيجة باعلانات "البيبسي كولا" من الصين الى الأهوار؟

في أية توتاليتارية ذات أقنعة، وضعنا أنفسنا؟

هل نقبل هذا "الإختيار الارادي" للعبودية؟

لا غرابة..

(إنهم) يريدوننا، أن ننغمر بالصعوبات، لا أن نعالج الصعوبات.

أن ننسى، تواً، الشارع الذي نسير وسط نهره، حتى تدهسنا ماكنة العولمة بأسنانها البراقة!.. ولا حاجة ابداً، لاسنانها الذرية، فلقد تم غزونا، واسلمنا مفاتيح دارنا الكبيرة، بعد أن شبَّ فيها الحريق، وتدلت من نوافذها عناقيد الغضب!

سنعيش، اذاً، حتى غدِ موتنا.. ونعلق على هوائيات بيوتنا راية داكنة، كانت بيضاء من غير سوء!

لأننا، لأننا تماماً، أضعنا جنة عدن ألف ليلة وليلة، ولم نعوِّل على غائب سيقلب الاشياء، بل على حاضر انقلب على نفسه.. فهل يصلح العطار ما أفسد التانغو الامريكي الأخير؟!

ألم يبق سوى العسس؟

ذلك محال..

لأن عين الذاكرة الحية لاتزال يقظة ومركبة، مهما بدت رمداء!

اذ لا يمكن أن نزيد السواد بقعاً سوداً.. لاجدوى.

صحيح ان السفالة تستأنس بالسفالة!..
وان الشر يركن الى الشر..
والمطر، قد لا يمحو الذاكرة، ولكنه يغسل الأرض، ويخفف من رمدها، ورمادها البارد، وملحها الذي قَرّح العيون والمدامع..
ولأن عين الحقيقة يفترض ألاّ تنام،..
ولكن.. ماهي (الحقيقة)؟..
وأين (الحقيقة)؟
ومن يعرف (الحقيقة)؟
من يمسك بعنانها، كيف توظف، لخدمة من..وضد من؟؟؟
مرات، ومرات: "الحقيقة"، توظف ضد الحقيقة. تقاتلها، تقتتل ضدها.
ومرات، تخجل من عذريتها فتغطي جسدها بكف مرتجفة، ومع ذلك تنسى عورتها ناصعة تحت الشمس، مثل فاكهة ناضجة، شهية، ومباحة!
إنه خراب العقول، والعيون، والانوار معاً..
نعيد السؤال: هل يصلح العطار ماأفسده التانغو الأمريكي الأخير؟؟
هذا هو لغز الأسئلة...انها تتوالى، تتكاثر، حتى تفجر العالم.
الاكثر تنوراً الآن، هوالاكثر امتحاناً..نزعته في نزاعة، وتميزه في وهج تفاؤل يعاند، ربما هو القلب، يتجوهر في كنزه، تربيةً أولى كانت صلدة، وظلت بقايا صلادتها تقاوم التفتيت، ولكن الى أي مدى؟حتى شيخوخة القلب، أم حتى شيخوخة السياسة؟!
هنا، نحن لانصوغ تلميحات عن عصرنا.. أقل من سقف تناقضاته، تقف قامتنا المتواضعة، وتحت هول صراعاته، تنظر مقلتنا بفزع، ولكن بثقة.
نعرف، بقدر، إن (معرفة) الواقع، تحتاج إلى مخيلة فوق فنطازية.. فان لا معقوله أكبر من ان تلمه أي من الواقعيات الراحلة، أو التي نامت على حافة الخمسينات تحت شمس كانت عظيمة الوهج وانطفأت.
هذا الواقع، هل يحتاج الى الشرطي اكثر من حاجته الى المثقف، الى الصيرفي اكثر من الشاعر، الى المليشياتي اكثر من العاشق؟؟

اذاً، كان (أورويل) عكس تياره، يعيش الى الآن، كذلك مات أبوذر الغفاري الآن فقط! والآن فقط، حين انتشرت وشاية الإبنة على أبيها، الشاعر لقي حتفه... والزوج على زوجها التاجر، مغامرة في غنيمة أو غيرة من غريمة .... ماتت الأسرة!

وبموتها مات التكوين الأول، الوحدة الأولى، ثم يموت، من بعد، شيئاً شيئاً، ذلك الكيان الذي كان اسمه ضاري: المجتمع، الوطن، والتاريخ أيضاً!

ان النهايات تصنع نفسها منذ البدايات: آدم وحواء اللذان نزلا متأخرين في الاسطورة، خرجا متأخرين عن...، ورحلا متأخرين عن.. جنتهما الموعودة.

كذلك نحن بشر هذه الأمة دائماً نجيء متأخرين ونرحل بعد أوان رحيلنا..

وبلا أدنى حياة، نحن أيضاً، نمهد الطريق دائماً الى الاستبداد، العنف، الفاشية، لأننا لانعيش وعي المخاطر، مع اننا نعيش وسط المخاطر وهكذا نمضي في " التساؤات" ولا ندرك حتى سقوطنا خارج السطر، ان الخط المستقيم أنبل المسافات.

ودائماً نقول: ياللفكاهة، أو يا للأسف: كنت أعرف ذلك، ولا نقول: كنت أُدرك ذلك، ماذا فعلنا؟

لاشيء، بالقياس الى قطرة دم واحدة، برعمت في الارض شقائق جهاد، نزفها جسد شهيد عرف دربه، وليس ذلك الجسم الذي سقط سهواً أو مات مصادفة.

عدا اولئك الذين انتسبوا الى الحرب محترفين، أو انتسبوا الى أفكار الموت، كل حرب هي دمار. ولم تستشر الضحية، ولا التضحية!

كنا على خطأ نسير حين مجدنا الكوارث. ربما بعاطفة اخلاص الى تربة، هي الأخرى كانت تشعر بالبرد لأنها عارية مثلنا.

والآن.

لاجدوى من وقفة مسرحية، ممسرحة، على اشلاء جبل "ابو غنيم" كي نحتج شفاهاً.. إننا بذلك لا نحرج أحداً، لأن ذلك الأحد لا يخجل من فعلته الأشنع.

ولاحاجة الى اقتراع!

فتلك العبودية هي برلمان الأمة، هي عنوانها العريض في صحيفة جبينها الندي!

نلاحظ، ونهمل!

ونحتاج الى: نلاحظ ونعمل!

بعد ظهر غد الهزائم، لاتغفِر أخطاءَنا بحيرةٌ من دموع، وسماوات من تشرد، لاننا وحدنا لانقدِّر قيمة الدمعة الاّ اذا سقطت من قلب مفجوع.

وإذاً . . الاتجاهات مختلفة.،

لابأس..كذلك الرياح.

ولكن دائماً ثمة سفين وأشرعة وصواري، وبالاساس لابد من ربان مُعلّم.

لا مَعْلَم ربان، أو أثره!

يمكننا الانتظار. نتناسخ في أجيالنا القادمة، الـ (هي) وحدها، ستدرك معنى الظلمة وتميز البصيص من بعيد.

"من حيث المبدأ" مختلفون!

لقد طوينا: "موافقون" في الذاكرة المنسية، وإن كانت لازالت تحت "الطية" ليست بعيدة عن أنامل أفكارنا.

وهذا الأخير قام بعد موتنا: إننا نحسه، نحس به، منذ الآن. (هو) سيكون ملزماً بإنتاج مدنيته، ولكن على وفق هندسة آلامنا عبر قرون، كي تكون بيضاء، حوراً، من الضروري أيضاً وأولاً، أن يعيد إنتاج حلمه، حلمنا..

للعبودية مسارها، ومسراها..ولحياة المثقفين، بعد موتهم، مساحة للتأبين.

نحن إن لم نغرس أرواحنا في اللجة، لامعنى، إذاً، للآخر البعيد الذي سيجيء حتماً.

ولأننا، بعد، لم نكتشف انفسنا، لم نكتشف الامكنة بالتتابع، لأننا لم نسع الى "تثبيت المخيلة"!

دائماً تفِر تلك الطيور الجميلة من فضاءات رغباتنا، الى فضاءات الموت، يفترض أن نطلقها كي تقترف التحليق عنوة، مثل نوارس البصرة.. الى فضاءات النور تذهب، وهكذا تموت "شعرية" تودروف تزفتان، البلغاري المتغرب، فقط لأنه لم يدرك تماماً، ماهو عقائدي في نصوص ماركس، وماهو سوسيولوجي وتاريخي؟!

أبداً، انه يدرك ذلك ويميزه، لكنه لايقوله!، بعد (15) سنة من الرحيل، لذلك صفق له الغرب طويلاً،..وحين عاد الى بلاده "سائحاً" قال له صحبه: انك لم تتغير!

وتلك فاجعته: انه لم يتغير!!

لكنه لم يدرك بصيرة صحبه، انهم أثنوا عليه، لكنه لم يدرك ذلك النقد الجميل، فعاد للغياب في "الشعرية" ثم في "الانسانوية"!

إذاً..هل نتغرب في (التطبيع)، أم نتجوهر في الغربة؟

الآن..حيث تصب كل الانهار في بحيرة طبرية، من المحيط الى الخليج.

طغيان (المصلحة) لا يُصبح عاهة!

هل ينتصر الفردي (المصلحوي)على الجمعي التضحوي؟

ثقيلة هي الكلمات: مصلحوي، تضحوي،..مهما كانت، فالواقع أثقل.

والتطبيع ليس غيمة عابرة، ولاجثة ننظر إليها عن كثب، أو نلقيها في البئر لتسميم المياه..،

انه (نشيد انشاد) الحاضر،..والجوقة شبه جماعية، يشارك فيها حتى الصامت ولكن بحنجرة ضميره ونبض قلبه!

الرافضون ذلك، متهمون بطفولة يسارية، ومزايدات: صوتهم أعلى من أفعالهم، والضجيج وحده لايصنع الخبز!..

التطبيع واقع، من داخل عقل الفلسطيني في "سلطة الحكم الذاتي" الى ارستقراطية النضال،

والذين يميزون جيداً العملة الآثارية عن "القرش" الأحمر، انهم في المسار، بقدر إنشاد "افعال القتل الضرورية" (كما كان يفعل الشاعر أودن في الثلاثينات):

هل نستفتي؟!

هل يحاصرنا الإقتراع؟!

ونحن لم نتعلم فك حرف الديمقراطية، لا في عوائلنا ولا في أحزابنا، ولا في مذاهبنا.

المثقفون بخاصة، يعيشون وحدهم أوهام المثقفين وضلالاتهم!

لذلك سأطرح أمثلة، في هذا الكتاب، تسير بالوقائع الى المثال، وتثير السؤال:

هل أُحتِل عقلنا؟

التطبيع حاضر "كيان" تغلغل في كياناتنا منذ اكثر من نصف قرن.

هل نحتاج الى غربال كي (نرى) الى قرص الشمس؟!

أم نعيد تعريف "غرامشي" للمثقف، كي نداري إحباطه أو نسايره في صوته الضاج مع أو ضد..؟

"كل الناس مثقفون" يقول غرامشي (وإن اختلفوا في الوظيفة التي يؤدون)، وبالتتابع: "كل الناس سياسيون "، وأيضاً، يختلفون في الأدوار.

هل هناك، حقاً: "سياسي عام" و"سياسي محترف"، "مثقف عام" و"مثقف محترف"؟

"سلطوي" و "معارض للسلطة"؟!

أية سلطة؟

أية سياسة؟

أي مثقف؟

التطبيع طال الجميع، لأنه شاغل عام، "حقيقة" عامة!

ولأن (التطبيع الثقافي) ثوب السياسة، يرتدي الجميع ذلك، وإن بَدَوا عراةً.!

ربما ينشغل المثقف بانتاج الروحي والمعرفي من الخيرات..، لكنه أبداً ليس خارج الملعب، وان تظاهر باستقلالية سياسية!

والتطبيع بالمقابل، ليس خارج الملعب وليس خارج الكتابة، أو خارج الكلام. انه ناطق جهير بالافعال، مثابر، يغطي أرض الواقع، يتنفس برئات عربية وأعجمية، لكنه يتصرف على وفق انتهاكات مدروسة لجدار رفضه، حتى لو كان في حوادث إنتحارية، فدائية داخل اسواق القدس.

وهكذا..

يتشابك الثقافي بالسياسي بالفدائي..

لابد..

وإن بدا (الثقافي) جهيراً كخطاب، و(السياسي) فاعلاً كمسار.. والفدائي مربكاً لأجندة التسويات أومايسمى بـ "عملية السلام".

لم أقدم سؤال الحاضر: هل التطبيع يصنعنا؟

لكني قدمت بيان الاسئلة..معترفاً بأنني لااعرف كل شيء، ولكن ما أعرفه، أعرفه جيداً..

لذا، للحظة واحدة، اشعر كأننا ضعنا في مكان عذب..،

وفي السياسة، كأننا نعيش على صفحات الجرائد..نريد تغيير العالم، ولا نغير عالمنا!

ربما ننكب على تاريخ الأسى، ولانجد شيئاً آخر، كذلك نفعل مع قرننا الذي يأفل، أو نكون معجبين بالتفاؤل، فاكهة العزاء، لكننا ندرك ان عصرنا الأنترنيتي، لايقدم المن والسلوى للمغفلين، ولاحتى للاذكياء، مجاناً!

ان السباق الآن هوعلى أولوية انتزاع الفرصة، على الاقتدار.. ولا أحد يفكر بالاساليب، بماهية الاساليب، لأنها وسيلة..فالكل يحفظ ميكافيللي.والكل (أمير)!..لكن حينما يحل السكون تكون انت جزءاً من العالم... والعالم كأغنية يغنيها الجميع معاً.

قوة المال

قوة القوة

انهما (الكف) التي تأخذ، والكف التي تضرب.. تُعلي أو تدفع الى العالم السفلي، عالم اللاعودة والغياب.

ماذا تجدي، من ثم، الاسطورة حين تتخلق من الموت أو في الموت!؟

اننا نبحث عن حياة، لا لنمجدها فقط، ولكن لنقبل وجنتيها، إذ منذ أزل لم نذق طعم تلك القبلة، لذلك قدموا لنا (التطبيع) فاكهة جبرية..وإن كانت مسمومة!

لابد أن يأكل منها الجميع، حتى يجتازوا بوابة الفقر، الى عالم (وهم) السعادة!

لابد أن تأكل كي تخرج من معتقلات الخوف..

هكذا يصورون الأمر..

وهكذا سقط افلاطون في سم سقراط، دون ان يرثي احدهما الآخر!

ودفن (غاليلو) في قبر (الحلاج)..والمسيح في النجف، جوار علي..
وابو ذر الغفاري في القدس..معفراً بدم يوحنا المعمدان..
القاتل واحد..
لكننا (نبكي) عليه!..
وننسى القتيل المقتول..
بل اننا نطمئن القاتل، ونعزيه بأفعالنا الراكضة نحو وهمه!
كأنه "الضحية"..ونحن "القتلة"!
ياللمفارقة!
ونذهب معاً، لتناول العشاء الأخير في البوادي..
لم يدعونا حتى لنسجل ملاحظة،
أو أن ندين الحماقة!
أو أن نتوقع شيئاً!

أما هم،.. فقد دأبوا على تنفيذ التفاصيل، أدق التفاصيل. وتركوا على قارعة الطريق حرية ندب الوعظ الأخلاقي والسذاجة!

شعور من يريد غرس الايمان في قلب فارغ!..
فهل نفتح دفاتر جديدة على الأمل؟
هذا هو دورنا، دور ضميرنا..، وإن مزقوا عصب العين والقلب والمهجة..
لقد حصل الإنزلاق..
ذلك واقع،

وكي لانسقط الى وفي عالم اللاعودة، لابد أن نتشبث حتى ولو بجذرٍ عتيق، أو بذرة طيف..

لايعني ذلك إننا نقدم "خدعة" تفاؤل، كمن يقدم (جرعة) كيماوية لمريض أكلهِ (السرطان) حتى تفتتت عظامه!

إذ لا أمل في (شفاء) موتانا..ذلك حقيق.

ولكن ثمة أمل لكلكامش كي يعيد صنع اسطورة الخلود، فقط حين يتآخى مع أنكيدو ثانية، ويحاربا معاً، كتفاً الى كتف، ذلك "الثور" الاسطوري القادم من عَـلٍ أو "خمبابا" القادم من غابة الغدر والظلام.

والاّ يقول كلكامش، ثانية، لأنكيدو:

تعال.. نأكل الخبز

بل ليقول، بلا تردد، تعال..لنقتسم المصير!.....

لم تزل النفوس تتعرى فوق الأرصفة وفي الممرات..

والحقائب الدبلوماسية تتدثر بالاسرار، وبالأفكار..

فالسحب خريفية دائماً في العقول.

ولا رذاذ أبداً..

ندرك، إذاً.. انه يتوجب علينا المضي قدماً نحو أفقنا،

حتى لو لم تعد الخطى تتمتع بساعة الافول والقنوط والغروب...

2 ـ ذاكرة تاريخية

■ **احتلال العقل أشق بمراحل من احتلال الأرض!**

هل تصح هذه المقولة على واقعنا العربي، أم تعلق على مشجب الذاكرة التاريخية مثل قميص الفتنة؟.

اظن انهم اشتغلوا سنوات ويشتغلون لهذا الاحتلال الأشق كي يتحقق.

لكن، في الآن نفسه (يمكن لقاطعي الحجارة الذين يقاتلون الزمن، ان يتبينوا صبح الكلمات.

اولئك المهزومون سلفاً في تصديهم للنسيان، أو المنتصرون سلفاً في تصديهم للسخرية.

عارفين ـ يقول روبنسون جيفرز ـ انهم يأكلون قوتهم الساخر، وبأن الصخر ينغلق، والسجلات تنهار..) ذلك ان حجارة اطفال فلسطين تتجه نحو جسم المسمى المعلوم: الوطن،..على شكل احتجاج ومقاومة، قبل ان تتجه نحو أجسامهم.

لأنهم يدركون مبكراً، ان الصراع (العربي ـ الاسرائيلي) انتقل طيلة نصف قرن من مرحلة الى اخرى،..ودائماً، دائماً تماماً، ثمة نقطة فاصلة هي: الحرب وعلى خط موازٍ لتلك الحروب، سارت محاولات احتلال العقل في دروب المحنة، ودروب الوضوح معاً.. فالشمس الشجاعة تكاد تحتضر، لو لم يكن أطفال الحجارة في وهج أشعتها!..

■ بعد اعلان قيام (اسرائيل) في 15- آيار مايو 1948، غب انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، تمكنت العصابات الصهيونية من ترسيخ أقدام وجودها

بقوة السلاح، وباقتراض الارض، ربما(ايضاً) (بشراء) الأرض من مالكيها العرب، ولكن كيف؟..بالبلدوزرات المدججة بالسلاح!

الحرب (الرسمية) الأولى، المسماة (الحرب العربية ـ الاسرائيلية) لم تستمر اكثر من أربعة أسابيع، وقعت خلالها (19) معركة وعملية حربية.

وتماماً..بعد ذلك، تدخل (مجلس الأمن) لفرض (الهدنة الأولى) التي استمرت (ايضاً) أربعة اسابيع!

في هذه (الفسحة) الزمنية حققـُت (اسرائيل) مكاسب كبيرة على مسرح العمليات:

إذ تدفقت عليها منذ منتصف حزيران ـ يونيو 1948 أدوات الحرب، مع ثمانية آلاف مجند، عدا الطائرات، والقطع البحرية، كي (تعدِّل) وضعها العسكري، بما يكفل تفوقها (المحسوب)على الجيوش العربية مجتمعة ومنذ الجولة الأولى لاستئناف القتال في 8 تموز يوليو 1948، إذ إرتفع آنذاك عدد القوات المسلحة (الاسرائيلية) الى (106) آلاف مجند مقابل (3) آلاف مقاتل عربي..

وكانت اتفاقية رودس في 24شباط ـ فبراير 1949تكريساً صريحاً لنتائج حرب 1948، وبخاصة في "احتلال الأرض"، وهو الهدف الأول في اولويات الصهيونية: "الوطن الموعود" أو "أرض الميعاد" كما يكرسون لها، في التوراة وفي السياسة، وفي الحرب، أيضاً.

ومعروف ان تلك (الاتفاقية) تمت بالتفاوض غير المباشر عن طريق طرف ثالث، هو وسيط الامم المتحدة الأشهر: (الكونت برنادوت)، وعقب مصرعه الدرامي خلفه: (رالف باتش).

اعقب اتفاقية (الهدنة الأولى) هذه بين (اسرائيل) و (مصر) اتفاقيات مماثلة مع (لبنان) و (سوريا)، كذلك وقعت (الاردن) اتفاقاً مماثلاً في (رودس)!

هكذا تقشرت الحروف لتبني نصب التطبيع منذ ذلك الحين، بين أنظمة (الطوق) والكيان (المطوِّق) بكسر الواو للمفارقة الضدية!

في مايس ـ مايو 1949أصبح ذلك الكيان "دولة" قبلت في الأمم المتحدة دون تحفظ!

و لم تبلي الثلوج عند ذوبانها آثار الانسان،...حتى لو غمرها المطر، لكنها ملأت الأرض بالمخيمات وباللاجئين! (الى أين يلجأون؟)

كادت آثار الانسان تمحى، والأرض الوديعة تموت،..

وظل البرتقال حزيناً!..

و...

كرت المسبحة:

من 48 (النكبة)

الى 56 (العدوان)

الى 67 (النكسة)

الى 73 (العبور).. ودفرسوار الثغرة التي أوصلت السادات الى تل أبيب، قبل أن يصل، والى (كامب ديفيد) المعنى والمجاز قبل (مخيم داود) المكان والواقع.

وهكذا..

هكذا تماماً..

وجدت الكلمات المُعذَبة (عسل السلام) في القرارات!

والأشهر هو القرار: (242)

وقرار بمجلس الأمن هذا اتخذ في 22 تشرين الثاني - نوفمبر عام 67

فماذا كرس الكلام في (عسل السلام)؟

كرس، وظل يكرس:

"احترام السيادة والتسليم بها"

"حق كل دولة في الحياة بسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها"

"ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية"

وفي صلبها وعلى الهامش عملياً:- "ضمان.. تحقيق حل عادل لمشكلة اللاجئين.."!!

....

■ (دولتان) اذاً..و (نظامان).. وتسمية (شعبية): (التقسيم)!، أيدها، أول من أيدها من الفعاليات السياسية في الوطن العربي: الملك عبد اللّٰه، والحبيب بورقيبة، و الحزب الشيوعي العراقي، والحزب الشيوعي الاردني ـ الفلسطيني.

هل كان هؤلاء..هم الاكثر جرأة في الإفصاح؟

الاكثر صراحة؟

الاكثرَ انسجاماً مع الذات؟

الأكبر نبوءة.بما سيقبلِ به الفلسطينيون على مائدة المفاوضات، والانظمة من ثم.. بعد نصف قرن تقريباً؟!

....

"الشمس الشجاعة، تحتضر

حتى يسوَّد قلبها،

وتعمى.."

فالأمر كله انتهى لصالح "اسرائيل":

"السيادة.."

"الحياة بسلام.."

" الحدود الآمنة المعترف بها.."

"حرية الملاحة.."

وأيضاً، هناك بند غير معلن: "حرية العدوان والتوسع"!

ومع ذلك..

مع ذلك تماماً..

ظلت ((الحجارة)) واقفة كآلاف السنين..ثم، تحركت!

لكن ((الأفكار المعذَبة،

وجدت عسل السلام،

في القصائد القديمة!))

....

■ منذ "رودس" (1948)، إذاً..كأنَ اتفاقية "مخيم داود ـ كـامب ديفيـد" قـد وُقِّعَت بالفعل! ولم يبق على (اسرائيل) الاّ أن تستمر!

تستمر تماماً في ((قشط الأرض)) وتسويتها!

ولم ينفذ القرار (242) من قبل (اسرائيل)، على الأقل فيما يتعلـق بانسـحاب (قواتها) من الأراضي التي احتلتها، لافي العام 48 ولافي العام 73.. الاّ نادراً!

ولم تجد الدول الاربع الكبرى في 69 - 1971: (الولايات المتحدة الامريكيـة، الاتحاد السوفيتي، فرنسا، بريطانيـا..) ولاسـواها، حتـى بعـد دخـول الصـين نـادي (الخمسة الكبار) وسيلة لتنفيذ ذلك القرار، حتى مؤتمـر (مخيـم داود 5 ــ 17 ايلـول سبتمبر 1978) بين السـادات وبيغـن وكـارتر ولا يـوم الاثنـين (26 مـارس 1979) حين وقع انور السادات رئيس جمهورية مصر العربيـة ومنـاحيم بيغـن رئيـس وزراء (اسرائيل): (اتفاقية السلام) بين مصر واسرائيل[1]، بل حتى توقيع اتفاقيـة (أوسـلو) ثم (وادي عربة)

كأنهم يعيدون اعتراف (رودس)..ولكن في نهاية القرن العشرين.

---

[1] انظر تفصيلاً: (المسيرة الطويلة ـ وثائق السلام ـ الصراع العربي ــ الاسـرائيلي مـن مـايو 1948 الى مارس 1979) جريدة الاهرام، القاهرة، ملحق خاص بنصوص المعاهدة: 27 مارس 1979 ص 2.

3 ـ التطويق

■ "هل حدث أن طلع ((أبو الهول)) ذات مرة، سليماً من يد النحات"؟!

"حتى أول الغزاة؟" يتساءل: و. هـ. أودن

"نفغر أفواهنا، ثم نمضي لحالنا مضطرين"

"لقد آلمه الزمان كأنه كائن...."

....

(قطعة أرض تمتلكها المخابرات الحربية الاسرائيلية. وعدة أكشاك مكيفة الهواء، صفوف ـ فصول ـ مزودة بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا..)

هذا هو معهد ((أونيل دانجمان)).

يستقبل (300) ثلاثمائة دارس من (اسرائيل) و (امريكا) وأخيراً، من: مصر!

هذا (المعهد) تابع للمخابرات الاسرائيلية!

أرضه ثكنة حربية مخصصة للتدريبات العسكرية.

وأقرب مكان له مهبط طائرات مطار (هرتس ليا) الحربي!

هذا الغموض الذي يكتنفه يزداد اشتعالاً حين نعرف انه مكان، كان مخصصاً لكي يدرس به ((مقاتلو وحدة ماتكال الخاصة)) التابعة للجيش الاسرائيلي، مع بعض ((مقاتلي وحدة السلام الجوي الخاص))

أيضاً..

هذا ((المعهد!)) يسمح ((لكل العاملين بالموساد والمخابرات الحربية الذين يحملون بطاقة هوية العمل بالمخابرات، للالتحاق به بدون أوراق خاصة، اللهم الاّ لمجرد تزكيتهم من رؤسائهم!))

هذا " المعهد " يُدرِّس:

- برنامج القانون الدولي لأوروبا
- والقانون العربي لكل الدول العربية
- بالإضافة الى: برنامج في أجهزة الإيصال والكومبيوتر الاداري.
- والمدة: ثلاث سنوات ونصف
- والدراسة: مسائية!

((وهو يستقطب كفاءات ذهبت بمحض إرادتها من القاهرة الى تل أبيب!))

- في هذا المعهد:السفر مجاني، والدراسة كذلك، وعن طريق "المركز الاكاديمي الاسرائيلي" في القاهرة، الذي قام بتسفير المصريين الى هناك للدراسة.

- "والمركز الاكاديمي الاسرائيلي" يستعين بالطاقم القانوني الذي يعمل في مقر سفارة اسرائيل بالجيزة تحت خبرة د. باهي الابراشي - الذي تولى من قبل مهمة الدفاع عن الجاسوسين المصريين اللذين عملا لحساب المخابرات الامريكية وهما: سامي يوسف وسمير يوسف، وضابط المخابرات الامريكية الهارب نيكولاس إدوارد، في القضية رقم 75 لسنة 1989 /أمن الدولة / ومعه كذلك محامية المركز وفاء رشدي وبعض المحامين الشباب الذين يعملون على ضبط الثغرات القانونية والأمنية التي أدت الى نزيف المعلومات والادارة الرسمية التي خرجت أو تسربت من المركز الاكاديمي منذ فترة واثبتت تجنيد المركز للطلبة والباحثين واساتذة الجامعات المصرية. وذلك للسفر الى اسرائيل للانضمام الى بعض المعاهد الوهمية لخدمة اهداف علنية وغير علنية.

وقد نجح المركز، على سبيل المثال، في تجنيد د. كمال أسعد سوريان (المولود في شبين الكوم 24- 6- 1949) وهو باحث بقسم الانتاج الحيواني (ألبان) بمعهد بحوث الصحراء بالمطرية.

وقد سعى المركز إليه كونه (خبيرة هامة) في مجال محطات بحوث الارض القاحلة في صحراء مصر وشبه جزيرة سيناء والساحل الشمالي والغربي بالذات.

وذهب الطبيب صلاح الدين ابراهيم أحمد عواد لاسرائيل للدراسة في مستشفى "حداسا" مع العمل بها في منطقة "عين كيرم" بموجب خطابين كتبهما بمحض إرادته في 18 مايو 1987 و 14 أبريل 1987.

وقد نجح المركز في شهر يونيو 1987 بتجنيد العديد من الطلبة المصريين، وذلك طبقاً للموجود في خطاب موجه من معهد (أولبات عقيبا) في بلدة (نتانيا) وهو معهد أنشأته المخابرات الاسرائيلية مع قيام (الدولة العبرية) لكي يتم فيه تهويد المهاجرين الجدد لاسرائيل.

والأمر يتعدى الطلبة الى الإختصاصيين والخبراء، فبدعوة من المركز سافر د. ابراهيم محمد ابراهيم والدكتورة زينب حمدي (الأول: استاذ الزراعة الأول حاصل على درجة الدكتوراة من جامعة بومباي بالهند، والثانية: تعمل بمركز مرموق في مصر..)، ذهبا في رحلة خاصة نظمها المركز لهما، وكانا من المقربين جداً من ضابط المخابرات الاسرائيلية السابق ومدير المركز الاكاديمي الثاني بالقاهرة (غابي واربورج) من اكتوبر 1984 الى ابريل 1987..

وقصة إرسالهما موجودة في خطاب صادر عن الجامعة العبرية بالقدس، وموجه الى مدير المركز الاكاديمي بالقاهرة، واما مرسل الخطاب فهو (اللواء شموئيل جزيت) رئيس المخابرات الحربية الاسرائيلية السابق (للفترة 1974- 1987)[2]

....

ترى: (هل لا زال "ابو الهول" جاثماً
يدير مؤخرة عريضة نحو امريكا الزاعقة!
ويشهد،
ان وجهه الضخم المتأذي، يتهم،

---

[2] انظر: مجدي، توحيد: التقرير الذي نشر بعنوان مثير: "عن طريق المركز الاكاديمي الاسرائيلي: تصدير باحثين مصريين الى اسرائيل". مجلة روز اليوسف القاهرة 27/6/ 1994ـ العدد 3446 ص: 22- 25.

ولايغفر لشيء!؟)

....

"ماقد يسعفنا به من "نصائح"

يأبى أن يهبها..

لأن أولئك الذين يواجهون "علته"

لا زالوا: مكتوفي الأيدي.."!

■ "العلاقات الإيحائية" ذلك ماتشتغل عليه (وكالة المخابرات المركزية الامريكية) و(الموساد)، لأنهما معاً (أدوات) القشط والتنظيف لصالح الكيان الصهيوني.

ولكن: هل يكتفون، ياترى، بتلك " العلاقات الإيحائية" لحرف العقل العربي عن تاريخيته وتوجهه ثم احتلاله؟..

الجواب: كلا.. بالطبع!

لأن الدوائر الامبريالية الصهيونية تستثمر أولاً: (العوز الاقتصادي) ثم (حالات الاحباط)، و (غياب الديمقراطية) و(خنق حرية التعبير والتفكير والاطلاع والتنقل..) وعديد المشاكل المركبة التي تواجه ـ بخاصة ـ (المواطن المتعلم)، وتحديداً: ذوي المهارات والاختصاصات العالية، الذين لايجدون مساحة عمل، أو تحرك، لاستثمار إمكاناتهم وقدراتهم، فتنفذ من خلالهم الى معرفة أوسع وأعمق لمفاصل البنى الإجتماعية والاقتصادية والسياسية، ونسيج ألعلاقات والتقاليد، والدين والثقافة والادب والفنون أيضاً، وبالتالي ترسم الخطط لتفتيت ذلك كله، مما يسهل:

"إحتلال العقل" وزج "البدائل" بالوسائل التقنية الإتصالية عالية الجودة والتأثير، أو مباشرة.

....

استناداً الى معلومات (المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر) تشير الدراسة التي كتبها د. رفعت سيد أحمد، الى أن "احتلال العقل" يأتي من حيث إهتمام الستراتيجيين الغربيين مباشرة كامتداد لما يسمى "وظيفة العلم

والعلماء" وإعداداً لمرحلة مابعد الحرب العالمية الثانية حين أصبح العلم داخل بنية الدولة وخارجها "أداة للاستثمار والاشباع" تماماً كالسلعة!

ويقرر (فريتز مشلوب) ان أنشطة (المعلومات والمعرفة) اسهمت في العام 1958 بما يعادل 29٪ من معدل الإنتاج القومي لتلك السنة.

ويرى ان نسبة الزيادة المتصاعدة لمعدل اسهام هذه الانشطة تعادل مرتين ونصف المرة معدل نمو مكونات الانتاج القومي الاخرى، إذ ان ما أنفقته وزارة الدفاع الأمريكية على (البحوث العلمية) المختلفة في عام 1981- كسنة قياس — قد بلغ (17) بليون دولار، أي حوالي 10٪ من ميزانية الدفاع الكلية، التي بلغت آنذاك (160) بليون دولار.

بل ان مخصصات (البحث العلمي) للبنتاغون إرتفعت بمقدار 2٪ خلال 80 — 1981 أما في العام 1987فقد وصلت الى حوالي 30٪.[3]

ولذلك كانت (المخابرات الامريكية) خلف انشاء العديد من الجامعات في دول العالم الثالث واستمرارها مثل كلية (مكومبي) الدولية في زامبيا، وبعض جامعات الاكوادور والأورغواي والمكسيك، والجامعة الامريكية في انقره، ونظيرتيها في بيروت والقاهرة.

يعمل بوكالة المخابرات المركزية حتى العام 80 — 1981، كسنة قياس (16500) موظف، وان حجم ميزانيتها بلغ (750) مليون دولار ظاهرياً عدا المعونات التي تتلقاها من الشركات الاحتكارية مثل: فورد، جنرال موتورز، روكفلر..،

هذا الملاك يخصص للبحوث السيكولوجية والسيكوبيولوجية والسوسيولوجية في أرجاء العالم وبخاصة في الوطن العربي من خلال تمويل (منظمات) و (جمعيات) عالمية: كالجمعية النفسية الأمريكية، وجمعية علوم بيئة الانسان، وشخصيات علمية بارزة، إذ يذكر (ب.ف.سيكفر) إنه قد تم تمويل كتابه (الحرية والشرف) بخمسة ملايين دولار!

---

[3] أنظر: دراستنا: الفكر الامبريالي محاولة احتلال العقل العربي. جريدة الثورة، بغداد، العدد 7478 / الجمعة: 7- 12- 1990.

ان تمويل المخابرات المركزية الأمريكية للدراسات والبحوث العلمية يبغي أساساً تطوير تكتيكاتها المختلفة التي تمكنها من الاضطلاع بدورها كأداة لتحقيق التوسع والهيمنة الامريكيتين لصالح الصهيونية وكيانها (اسرائيل) (في غياب السياسات القومية الواعية تجاه موجات الغزو الثقافي وأدواتها الكثيرة مما يسهل ـ دون شك ـ وقوع الاحتلال العقلي) ـ كما يؤكد د.رفعت سيد أحمد ـ .

ففي بلد المواجهة الأول:مصر، وخلال عامي 86 ـ 1987، كان هناك (40) ألف باحث من الحاصلين على درجة الماجستير والدكتوراه في التخصصات والفروع العلمية المختلفة، لايجدون فرصة عمل!

وهكذا.. من المتوقع جداً، ان يذهب هذا (الجيش) العظيم من الباحثين، أو على الأقل نسبة منه، الى تلك الجهات التي تستطيع توظيفه واستثماره، والتي تقدم له الدعم المالي، وهي (جهات) تخدم عن وعي وتصميم، وعلى وفق استراتيجية بعيدة المدى، خطط محاولات احتلال العقل العربي.

وفي سبيل السيطرة على (العقل العربي) بخاصة، وعقل (العالم الثالث) عامةً، استخدمت الستراتيجية الغربية ـ الصهيونية، ركائز مهمة للانطلاق خلال العقود الثلاثة الماضية للتغلغل النشيط في نسيج مجتمعنا.

ويمكن حصر أهمها على الوجه التالي:

ـ مؤسسة روكفلر: وهي تعمل منذ الحرب العالمية الثانية

ـ مؤسسة فورد فوند يشن: وهي تعمل في المنطقة منذ العام 1952

ـ مؤسسة راند: وهي قديمة نسبياً، الاّ ان نشاطها بارز في السبعينات من هذا القرن في مجال الدراسات الاسلامية والفلسطينية، وتوجهت في التسعينات الى دراسة حالة العراق، وقدمت تقريرها الواسع والخطير عن عراق عام 2002 بقلم غراهام.أي. فولكر، بعنوان: (العراق في العقد المقبل: هل سيبقى موحداً حتى العام 2002؟) نشرته جريدة (القبس) الكويتية على حلقات اعتباراً من: 1993/5/25.

ـ مجلس ابحاث العلوم الاجتماعية: (لجنة الشرق الادنى والاوسط) المنبثقة عن هذا المجلس.

- جماعة أبحاث الشرق الاوسط: وهي تقوم منذ العام 1966 بالتخطيط والتنسيق بين وحدات شبكة الابحاث الامريكية.

- جامعة جورج تاون: التي قامت فقط في تشرين الثاني 1985 - كنموذج لنشاطها - بعمل مسح شامل في (12) قرية مصرية، بالاشتراك مع (كلية الآداب) بجامعة الزقازيق كغطاء لها.

- وكالة التنمية الامريكية: ويذكر أنها رصدت خلال عامي 80 و1981 للبحوث المشتركة بين مصر و(اسرائيل) في مجال البحوث الزراعية مبلغ (15) مليون دولار ومولت (مشروع ترابط الجامعات المصرية) خلال عامي 84 و1985 بمبلغ (28) مليون دولار لغرض تمويل البحوث الاجتماعية والسياسية.

- مركز هارفارد للشؤون الدولية
- مركز برنستون للدراسات الدولية
- مركز شيكاغو لدراسة السياسة الخارجية والعسكرية
- معهد بيركلي للدراسات الدولية

وهذه المراكز الأربعة جميعها ترتبط عملياً بوكالة المخابرات المركزية الامريكية.

- مؤسستا: فردريش إيبرت وفردريش نومن الألمانيتان اللتان تربطهما وشائج ببعض مراكز البحوث في مصر ودول الشرق العربي وبخاصة الاردن ولبنان..

- المركز الاكاديمي الاسرائيلي في القاهرة: الذي أنشأته (اسرائيل) عام 1982 بالقاهرة، ويُعد من أهم المؤسسات واخطرها في الوطن العربي، ويقوم بدور خطير في مجال اختراق العقل العربي، وبخاصة على الساحة المصرية، كما اسلفنا. فقد أُنشيء هذا المركز عقب اتفاقية (كامب ديفيد) وتولى رئاسته (شيمون شامير) ثم (واربورج) وهما من (الباحثين) الصهاينة المعروفين، الذين تلقوا تدريباً خاصاً على أيدي (الموساد)..

ومن البحوث التي تم انجازها - بالفعل - من قبل هذا المركز:

- الأصول العرقية للمجتمع المصري
- كيفية تفتيت مصر طائفياً

- الوحدة الثقافية والعقائدية بين اليهودية والإسلام.
- الشعر العربي الحديث.
- قضايا التعليم والزراعة والمكننة الزراعية واستصلاح الاراضي
- توزيع الدخل.
- حياة البدو والبربر وكيفية السيطرة عليهم
- تأثير الاسلام على العقل العربي[4]

ولقد قامت (اسرائيل) ببعض البحوث المهمة في مصر أيضاً من خلال (المركز الثقافي الامريكي) وبواسطة اليهودي الصهيوني الامريكي الشهير (ليونارد بايندر)، وهي ابحاث تختص بـ /أو تدور حول /

- رؤى الصراع العربي - الصهيوني.
- الجماعات الاسلامية في مصر.
- بدو مرسى مطروح.

....

وتختزن الذاكرة الوطنية والشعبية أيضاً برنامج (النقطة الرابعة) الامريكية، ودوره في التأثير على المواطنين، وبالذات الفقراء والمسحوقين، قبل المثقفين..

كما لاتنسى تلك الذاكرة قصة (السراويل) الداخلية المصنوعة من قماش أكياس الطحين الذي يقدم كمساعدات! وعليها علامة تلك المساعدات: (كفان متصافحان)، فعلامة (النقطة الرابعة) هذه لايمكن محوها بسهولة من ذاكرة الاجيال السابقة.

كما تختزن الذاكرة الوطنية مافعلته (فرق السلام الأمريكية) التي اشتغلت مع (الوجوه) الجديدة للماسونية من نوادي (الروتاري) و (الليبوتز)، الى الجماعات ((التبشيرية)) و ((المدارس الدينية)) وجعلها بؤراً للتجسس، ومحاولاتها الدائبة لاحتلال العقل وبخاصة لدى الشبيبة والطلبة.

---

[4] انظر:الجزائري، محمد:حرب البحوث والراكبون ثقافة الخداع / جريدة الثورة، بغداد، العدد 7564 في السبت 1991/3/9.

كذلك وعلى المستوى الآخر تختزن الذاكرة الوطنية ما قامت به (الاستخبارات البريطانية) منذ وقت مبكر ـ بخاصة في العراق ـ من توسيع (نشراتها) وعرض (افلامها) الوثائقية بما كانت تفعله فرقها المتجولة التي تحمل "شاشة عرض سينمائية" تنصبها في الساحات العامة للاحياء الشعبية، وتقدم من خلالها ما تريد توصيله من أفكار وسموم،.. وكنا ندعو تلك "السينمات" الجوالة بـ "الدعاية "!..وهي كذلك بالفعل، ولكن لصالح الغرب الامبريالي والصهيونية، تعززها "المراكز الثقافية البريطانية" المنتشرة في المنطقة!

ان الولايات المتحدة الامريكية اعطت أهمية استثنائية لدراسة (الآخر) العربي، تحديداً، موضوع بحوث مؤسساتها المخابراتية والبحثية والجامعية، نذكر منها البحوث التي قام بها (البروفيسور ناداف سفرات) وهو يهودي الديانة من أصل مصري امريكي الجنسية، والمسؤول عن مركز الشرق الأوسط بجامعة هارفارد، حيث انصبت حول:

- السعودية كمجتمع متفجر
- و..السلام والسياسة في العالم المعاصر..

وقد حصل هذا (البروفيسور) على (145) ألف دولار مقابل الندوة البحثية عن موضوع (الاسلام والسياسة) تسلمها نقداً وعداً من وكالة المخابرات المركزية الامريكية. وتسببت ضجة مدوية في الأوساط العلمية والأكاديمية الغربية، وإن كانت تلك الاوساط لاتقل فضائحية عنه!

ومن البحوث التي قامت بها المؤسسات الامريكية في الوطن العربي ندرك حجم وعمق الاشتغال على العقل العربي، الانسان العربي، والمجتمع عامة لتفتيته تالياً، كما حدث بالفعل.

ومن عناوينها ندرك الخطورة التي تكمن وراء انجاز تلك البحوث والمخططات المستقبلية المضادة:

- الصراع بين التيارات العلمانية والتيارات الفلسفية
- التغيير الاجتماعي في بلدان الشرق الأوسط
- النظرية السياسية الاسلامية.

- العلاقات المدنية ـ العسكرية في الوطن العربي
- القومية والقضية الفلسطينية
- التنبوء في الاقليات بالوطن العربي
- المهام السياسية للصفوة العسكرية العربية
- مسار المنطقة العربية وتأثيرها بالتغيرات
- المثقفون والوطن العربي الحديث
- موقف المثقفين العرب ومدى الصراع مع اسرائيل
- المجتمع والبناء السياسي في الوطن العربي
- آفاق العلاقات بين مصر واسرائيل والاقليات العربية الاخرى
- الفكر السياسي للعمال في مصر
- دراسة عرقية لبدو النوبة في مصر
- الحشود العسكرية المصرية على الحدود الليبية

كما قامت هذه (الدوائر) البحثية باستطلاع رأي الطلبة بالجامعة الامريكية بالقاهرة وبدراسات وبحوث اخرى مثل:

- ظهور الاسلام كعنصر من عناصر الصراع العربي ـ الاسرائيلي
- تطور النظام التعليمي في مصر
- تطور الناصرية
- النساء في المجتمعات الاسلامية.

ومما نلاحظ، لمجرد استقراء الواقع العربي واحداثه ووقائعه اليومية، ان تلك البحوث تحولت الى خطط مضادة لبنية المجتمع العربي وهيكلياته وفعالياته، بما يخدم الهدف الصهيوني الاساس:

اضعاف الأمة ومواردها البشرية والمادية وشل طاقاتها وتفتيت قواها وتجميد مشروعها النهضوي بتفعيل الصراعات الحادة والدموية بينها، كي تبقى ضعيفة، وبالتالي لاتتمكن من مواجهة "اسرائيل" التي تتقوى يوماً بعد يوم على حساب ضعف العرب وتراجعهم.

لقد تفجرت المشاكل بين العلمانيين واساتذة الجامعات من جهة والاسلاميين الاصوليين بخاصة لدرجة التصفيات الجسدية أو التفريق بين الزوج وزوجته، وان ما جرى ويجري في الجزائر ومصر وبلدان اخرى، لم يكن عفوياً، وليس من العسر بحيث لايمكن معالجة هذا النزيف الدموي،.. لقد عطلوا لغة التسامح الديني والحوار، وأحلوا مكانها العنف والدم والتفجيرات والقتل الجماعي أو المواجهات بين مجندين، هم أصلاً من ابناء الفلاحين والريف، واخوتهم، إن في صعيد مصر أو في سواها..

واوصلوا المفهوم القومي/ او الأمنية القومية (الوحدة) الى قناعة باللاجدوى، او الاستحالة.

كأن الوحدة هي المستحيل الواقعي الذي لايكون..وباتت ((القضية الفلسطينية)) من قضية مركزية للنضال العربي، الى لغم دائم يوضع بين الرجلين. في أي مسار عربي، بل تحولت (مسارات التسوية) عن مركزية النضال، الى لهاث وراء عدو متعصب صهيوني، لايتوانى عن التصريح كل لحظة بما يستفز المشاعر القومية ويزيد من اذلال العرب واهانتهم ومن اشعارهم بأقصى حالات ضعفهم واحباطهم، حد أن وصل بالليكودي الصهيوني بنيامين نتينياهو، وهو رئيس وزراء الكيان الصهيوني، الى انكاره لكل الاتفاقيات السابقة. وجعله يعيد العجلة الى ماقبل اوسلو ومدريد، من اجل مزيد من (الضمانات) لأمنه وأمن كيانه، فالسلام مقابل السلام، لا اكثر، دون ان يعطي "للآخر" العربي، شبراً واحداً، ولا "تنازلاً" واحداً، ولاحقوق!

وهكذا عطل المسارات السورية اللبنانية، (الجولان، الجنوب) والفلسطينية ايضاً (القدس والمستوطنات وسواها)، بل تحالفت (اسرائيل) مع تركيا، ليس فقط لتهدد أية تحالفات عربية ـ اقليمية قادمة، (سوريا ـ العراق ـ ايران) حسب، بل لتضعف دور ((الاقليات)) القومية الاخرى في المنطقة، كالاكراد وتخترقهم، بل تتخذهم ورقة لاضعاف المركز، أو لاضعاف الجوار، أو لديمومة القتال بين (الاخوة ـ الاعداء)، والتهديد بالانفصال والتقسيم..الخ.

واشتغلت على موقف المثقفين العرب. وأوصلت هذا المسار الى اعلان كوبنهاغن كما سنرى لاحقاً بحيث تحولت العديد من الشخصيات القيادية الثقافية المصرية من موقع المعارضة للتطبيع، الى دعاة نشيطين للحوار و"السلام"، وضيفتهم في "اسرائيل" تحت أية ذريعة حلوا، وجعلتهم يوقعون البيانات، ويتخذون المواقف المناقضة تماماً لمسارهم السابق!

واثارت " الأتنيات " وشتت قوى الجيش المصري وتركيزه، في صراعات (أو تحشيدات) حدودية، وفجرت مناطق اضطرابات لاحصر لها في الجوار الافريقي، من ليبيا الى السودان.. الخ وبدلاً من ان يتحول "الاسلام" الى عنصر من عناصر المواجهة الحازمة ضد الصهيونية والامبريالية، اشتغلت تلك الجهات التي هي وراء مراكز البحوث والابحاث، الى تسييس الدين ورجالاته، فغذت "تنظيمات" عدة بروح الحقد والكراهية لابناء جلدتهم، ومثال المجازر في الجزائر ومصر اكبر من ان تخفى أو تبرر.

وجعلت من "المرأة " موضوعاً مهماً للتفتيت، فدعمت تأسيس "مراكز" دراسات المرأة، أو وظفت مراكز دراسات اخرى لإقامة مؤتمرات وورش عمل حول هذه "المادة" الجديدة القديمة، واطلقت المصطلحات حول "النسوية" و"الذكورية" و"اللغة الغائبة" وسلطة الذكور بحيث حولت العديد من الدراسات والبحوث الى بيانات مضادة للرجل و"سلطته"، وكأن "الذكورية" هي السلطة القمعية التاريخية التي "يجب" على المرأة ان تناضل ضدها، وان تجعلها تسوغ لنفسها (كل) التصرفات، كي "تثبت" نديتها للرجل. وان لها "سلطتها" حتى لو كانت على حساب انوثتها واسرتها واستقرارها العائلي والحياتي والاجتماعي، وبدلاً من "المساواة" اصبحت "الندية" و"النسوية" سلطة مضادة وتخريبية، فكراً وممارسات، وعاملاً مساعداً لتفتيت المجتمع واضعافه، حين – أولاً – يتم اضعاف الاسرة وتفكيكها، ووقف تطور المجتمع بسوية خلاقة بين الرجل والمرأة.

وكانت مراكز البحوث تلك، والصهيونية، تحديداً، قد اشتغلت مبكراً على قصص الف ليلة وليلة، ودعت لتحويل العديد منها الى مطبوعات بالملايين توجه للاطفال العرب كي ترسخ في عقولهم اليافعة ذلك الشك في شرف النساء، أمهات

وأخوات، كون القصص في الليالي تشيع الخيانة، كأن نساء الليالي جميعاً خائنات لازواجهن متآمرات عليهم، لصالح تعدد عشاق، وبالتالي فهن لايتوانين عن فعل اباحي أو اجرامي إشباعاً لرغباتهن وانسياقاً وراء غرائزهن. وهن اذاً غير جديرات بالثقة والأمان،..

الى جانب تأكيدهم على مافي هذه القصص من خرافات وجن، ولصوص كعلي بابا و الاربعين حرامي، والسحر والشعوذة وهكذا يزرعون روح التفكك والتفتيت والشك والخرافة، في عقل الطفل، حول النساء كجزء من الشك بالاسرة، ثم بالمجتمع فالأمة..

وسنرى الى هذا الموضوع يستحوذ في التسعينات على اهتمام مراكز البحوث كأنه الموضوع الاول في الحياة. مع المجاورات الاخرى التي يتمذجها عالم الغرب الراسمالي مما يقدم من "نساء" مصنوعات كنجوم، ويجعل حالتهن ومظهرهن، وجاذبيتهن، ظاهرة نموذجية يغزو بها البيوت عبر شبكات وسائل الاتصال والاعلام، من المحطات التلفازية الفضائية الى الانترنيت، بحيث لم يعد صعباً "مضاجعة" فتاة تتعرى امام ناظريك وهي على بعد آلاف الأميال عنك، من خلال شاشة الكومبيوتر، مادمت "دخلت" على منظومتها أو "دخلت" عليك!

■ ولأن "المعلومة" تنهض، هي الاخرى، مادة للصراع، أو التخريب في حال الحرب او احتلال الأرض، وتمهد لها لذا يُجند الآلاف من العملاء والخبراء على الارض المعلومات وتحليلها لأغراض استراتيجية وتكتيكية.

وسط حشد من أساتذة الجامعة الامريكية في القاهرة، كان وليم كايسي المدير الأسبق لوكالة المخابرات الامريكية (C.I.A.) يتحدث عن النشاط الامريكي في الشرق الاوسط، فاستوقفه أحد الاساتذة متسائلاً:

ـ لماذا تحتفظون باكثر من خمسة الآف (خبير وعميل) في مصر؟

إنزعج (كايسي) من السؤال المفاجيء لكنه تمالك نفسه وقال بثقة:

ـ لاننا نهتم اكثر واكثر بالمناطق المضطربة في العالم، وضمن هذه المناطق ان لم يكن على قمتها تأتي مصر.

لقد صور تقرير عن السفارة الامريكية بالقاهرة بأن اجمالي المبالغ التي انفقتها الادارة الامريكية خلال الفترة من 1975 الى 1985 على بند واحد هو بند (البحوث) بلغت: (291) مليوناً و(275) ألفاً و(285) دولاراً، وذلك لتمويل (647) بحثاً مشتركاً بين (عشر) هيئات بحثية امريكية وعدد من الباحثين المصريين من اساتذة الجامعات، اعتماداً على اساسيات فهم المجتمع ونسيجه كي تسهل عملية اختراقه وضربه تحت الحزام.

ولقد وصل الصهاينة ـ مثلاً ـ قبل حرب حزيران 1967 الى حساب عدد (علب السردين) التي تصل الى الجنود المصريين لمعرفة "عدد القوات المصرية المسلحة" في تلك المنطقة.

وتالياً ... باتت السفارة الامريكية في القاهرة مركز اشتغال دائب لمعرفة كل شيء.

ومعروف ان السفارة الامريكية في مصر تقع على النيل، وملاكها اربعمائة وعشرة عناصر بين دبلوماسيين وخبراء وعلماء وعملاء وجنود أمن ومظليين، وسفيرهم "فرانك ويزنر" حامل غل القتل والدم ايام كان في فيتنام في الستينات، ووالده مجرم متمرس ايضاً، لأنه هو الذي خطط ونفذ عملية اغتيال المناضل الافريقي باتريس لوممبا هذه السفارة تدير عمل (5) آلاف خبير وباحث و(15) مؤسسة علمية متخصصة بالابحاث الميدانية!

....

■ (ماينر كوبلاند) هو من اشهر رجالات المخابرات الامريكية، إن لم يكن الاشهر، الذين عملوا في الشرق الاوسط فترة الخمسينات، سجل مذكراته في كتابه الشهير (لعبة الأمم) الذي عد أشهر الكتب في كشف النشاط الامريكي في العالم الثالث قال بالحرف الواحد:

"ان مدرسة امريكية واحدة، أو جامعة، تستطيع ان تؤدي بنجاح الخدمات التي يمكن ان يؤديها لواء امريكي محمول جواً، لكن من دون رصاص أو إصابات.."

وكان (معهد الكويت للابحاث والدراسات) غطاءً لواحد من اكبر الأوكار الامريكية خارج حدود الولايات المتحدة. وكان ـ في الظاهر ـ معهداً لاجراء البحوث الزراعية ومشكلة الغبار (المسمى بـ الطوز)، وقد زودت المخابرات الامريكية هذا المعهد بأحدث وأرقى كومبيوتر تنتجه شركة (آي.بي.أم) المسمى (سوبر كومبيوتر) يدار من قبل خبراء امريكان تختارهم وتوجههم المخابرات الامريكية ليقوموا بأعمال ودراسات وتجارب واتصالات خاصة بالولايات المتحدة وأمن إسرائيل، لايعلم عنها أو تتدخل فيها رموز السلطة في الكويت على كافة المستويات، بل عليهم فقط أن يدفعوا رواتب الخبراء!

هذا الجهاز يضم برامج لتقديم المعلومات عن المنطقة، أما الرادارات المتقدمة التي دفع ثمنها الكويت ايضاً، فقد كانت "مركزاً" لاجراء تجارب على طائرة الشبح ومعرفة مدى مقاومتها للرادارات المختلفة الموجودة في بلدان المنطقة بما فيها "الاتحاد السوفيتي" (سابقاً)

■ وقالت مجلة ((الاسبوع العربي)) في عددها الصادر بـ 1990/2/8، ان الرئيس المصري حسني مبارك طلب من مدير مكتبه للمعلومات (مصطفى الفقي) تقريراً عن نشاط الجهات (الاكاديمية) الاجنبية (الامريكية ــ الاسرائيلية بخاصة)، وكان (حريص أمني) قد وضع تقريراً دفع به الى الرئيس المصري يقول فيه ان جهات امريكية ـ صهيونية نشطت في اعداد بحوث ميدانية وصلت حد التجوال في قرى بصعيد مصر على بعد 600كم من القاهرة.

وبدعوى (الاطلاع) على (تنفيذ) الخطط والمشاريع التي تدخل في حيِّز تمويلها بعض المساعدات الامريكية، تدفع قيادات الهياكل التنظيمية بمؤسسات الدولة بمصر نسخاً إضافية من تقاريرها لتسلم الى السفارة الامريكية مباشرة.

وهكذا يقبع "مركز بحوث التنمية والتخطيط التكنولوجي بجامعة القاهرة" الذي أنشيء عام 1976بالاشتراك مع معهد ماساشوستس الامريكي للتكنولوجيا وبدعم منه، ليقوم باعداد البحوث (لكافة) الوزارات والجهات الرسمية في مصر وفي كافة المجالات، حيث يتم تمويل هذه البحوث عن طريق (هيئة المعونة الامريكية) و (هيئة الوكالة الدولية للتنمية AID)، وقد تم بالفعل انجاز (29) بحثاً من خطة تشتمل

على (49) بحثاً حتى العام 1992 شملت مواضيع متباينة، لكنها على قدر كبير من الأهمية، منها:

- احتياجات مصر من الطاقة النووية
- قدرة بحيرة ناصر على تأمين المياه لمصر
- شبكة الكهرباء المصرية
- ربط مصر بافريقيا عبر شبكة مواصلات
- القوى البحرية المصرية في أعالي البحار
- دراسة عن المياه الجوفية/ واخرى عن: استصلاح الاراضي في سيناء/ وثالثة عن: صناعة السيارات والمركبات في مصر.. الخ.. الخ.

وكما أشرنا، فان السلطات المصرية تتسلم صورة من نتائج هذه البحوث، وتتلقى السفارة الامريكية في ذات اللحظة صورة اخرى، في حين تتلقف تلك التقارير والبحوث السفارة الاسرائيلية، وكل صورة تعرف طريقها جيداً اليها..، واحياناً تصلها قبل ان تصل "البيت الابيض" أو "البنتاغون" أو "وكالة المخابرات المركزية الامريكية.."

باتجاه مرافق تتعاون مراكز بحوث عدة في الوطن العربي، وبخاصة لبنان، الاردن، والمغرب.. مع مراكز البحوث الامريكية والالمانية الغربية على شكل ورش عمل بحثية ممولة، أو على شكل ندوات أو مؤتمرات حول موضوعات حساسة كموضوعات:

- المرأة الاردنية والعمل السياسي/نتائج الانتخابات الاردنية/ الحضارة والثقافة الاسلامية.. والأخير تم على شكل برنامج زيارة (لأكاديميين) من الجامعات الامريكية بالتعاون مع معهد التطوير التربوي الامريكي (1994).
- مؤتمر المسار الديمقراطي الاردني بالتعاون مع مؤسسة فردريش إيبرت
- ورشة عمل حول موضوع (الحزب السياسي) بالتعاون مع مؤسسة كونراد آديناور (حزيران 1994)
- مؤتمر الاتجاهات المعاصرة في الانظمة الانتخابية بالتعاون مع المعهد الديمقراطي الامريكي NDI (ايلول 1994)

- كندا والشرق الاوسط نحو بناء علاقة شراكة متساندة (ندوة بالتعاون مع مركز الدراسات الانمائية العربية EAD)
- تبادل خبرات برلمانية أوربية - أردنية (برنامج زيارة: بون، بروكسل، ستراسبورغ، بالتعاون مع مؤسسة كونراد آديناور - حزيران 1995)
- عمان الواقع والطموح: قضايا الثقافة والبيئة والعمران (مؤتمر: بالتعاون مع امانة عمان الكبرى - 1995)
- العمل البرلماني: واقع وتطلعات (ندوة: بالتعاون مع مؤسسة كونراد آديناور - تشرين الثاني - 1995)
- الديمقراطية وسيادة القانون (ندوة: بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان - شباط - 1996)
- الاقتصاد الاردني في اطاره الاقليمي: نظرة مستقبلية (مؤتمر: بالتعاون مع مؤسسة فردريش ايبرت وجامعة فيلادلفيا)
- الميثاق الوطني وقضايا التحول الديمقراطي في الاردن (ندوة: بالتعاون مع مؤسسة كونراد آديناور والجمعية الوطنية للحرية والنهج الديمقراطي حزيران - 1996)
- قمة مراقبي الانتخابات في البلدان العربية (ورشة عمل) بالتعاون مع المعهد الديمقراطي الوطني NDI - حزيران - 1996)
- نحو قانون انتخابي ملائم (ندوة) بالتعاون مع مركز الدراسات الاردنية - جامعة اليرموك - تشرين الثاني - 1996)
- الاحزاب السياسية الأردنية (ورشة عمل) بالتعاون مع مؤسسة كونراد آديناور - كانون الاول - 1996)
- المرأة والانتخابات النيابية (ورشة تدريب) بالتعاون مع الاتحاد النسائي الاردني العام فرع الزرقاء والبرنامج الكندي للتنمية 28- 29 آيار1997)
- اربعون عاماً على حكومة سليمان النابلسي (ندوة آب 1997)
- السلط: واقع وطموح (ندوة بالتعاون مع بلدية السلط - مؤسسة اعمار السلط - حزيران - 1997)

ـ المرأة والانتخابات النيابية (ورشة تدريب) بالتعاون مع مركز الدراسات الاردنية ـ جامعة اليرموك 1997)

ـ المشاركة السياسية للمرأة في العالم العربي (مؤتمر) بالتعاون مع مؤسسة فورد فونديشن 7 ـ 10تموز1997[5] و(مركز الاردن الجديد للدراسات) كما تعرفه ورقة نشاطه (يضم باحثين متفرغين وآخرين متعاقدين ويشرف على إدارته مجلس تنفيذي مساند، ومجلس أمناء يضم فعاليات علمية وأكاديمية واجتماعية وينظم المركز نشاطاته منذ تأسس ضمن سبعة برامج اساس هي:

1ـ برنامج دراسات المرأة

2ـ المجتمع الاردني والحياة السياسية الاردنية

3ـ الحركة الاسلامية في الاردن

4ـ الاقتصاد الاردني في اطاره الاقليمي والدولي

5ـ التربيةالمدنية وحقوق الانسان

6ـ التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي للاردن

7ـ قاعدة للمعلومات عن: الحركات السياسية والأنظمة الانتخابية في الشرق الاوسط وحوض المتوسط.

وأصدر المركز حتى نهاية كانون الاول 1996ـ (46)كتاباً نشرت ضمن سلاسل بحثية هي:

سلسلة المجتمع المدني والحياة السياسية الاردنية، وسلسلة اقتصاديات الاردن والشرق الاوسط، وسلسلة ((دراسات خاصة))، أو ضمن برنامج مستقل للكتب..

وتتبع لهذا المركز / دار السندباد للنشر، التي أصدرت كتباً أدبية وسياسية..

ومن أهم الاصدارات باللغتين العربية والانكليزية التي انجزها المركز:

* حزب جبهة العمل الاسلامي
* دليل الاحزاب السياسية الاردنية

---

[5] موجز نشاطات مركز الاردن الجديد للدراسات 1993ـ1997 و ((مطبوعات مركز الاردن الجديد للدراسات 1993/1997ـ من اصدارات المركز ومطبعته الخاصة/وزعا في مؤتمر المشاركة السياسية للمرأة قاعة فندق فورتي جراند 7تموز 1997 عمان.

* بواكير محاولة التنظيم العمالي في شرق الاردن (1926 - 1948)
* المرأة الأردنية والعمل السياسي
* انتخابات عام 1989: حقائق وأرقام
* انتخابات عام 1992: دراسة تحليلية رقمية
* الانتخابات النيابية العامة في الاردن (8تشرين الثاني 1993): المقدمات والنتائج والآفاق.
* موجز تاريخ الحياة الحزبية في الاردن
* الصحافة والديمقراطية في الأردن
* الحركات الاسلامية في الأردن
* الوضع البيئي ومنظمات البيئة في الأردن
* دليل المؤسسات الثقافية في الأردن
* دليل النقابات المهنية في الأردن
* واقع المنظمات النسائية في الأردن
* الاتحاد العام لنقابات العمال
* الحركة الاسلامية والديمقراطية
* الثابت والمتغير في مشكلات الاردن الاقتصادية: نظرة نحو المستقبل
* العلاقات الاقتصادية الاردنية الأوربية: الواقع والآفاق
* سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي: تجربة الأردن
* الاقتصاديات العربية في مرحلة السلام: نحو تكتل اقتصادي منفتح
* هل حقاً إنتهى دور النفط سياسياً واقتصادياً؟
* التكامل التجاري والمالي الشرق أوسطي: دروس مستقاة من تجربة الاتحاد الأوربي.
* البديل للأزمة في العالم العربي: (مائدة مستديرة)
* الثقافة والحضارة الاسلامية المعاصرة: (ندوة)

كما تحولت بعض أوراق الندوات والمؤتمرات التي نظمها المركز الى كتب أيضاً. وقد بلغ عدد المؤتمرات والندوات وورش العمل التي نظمها المركز خلال الاربع سنوات

من 1992الى 1996ـ (23) نشاطاً تدخل نتائجها وحصائلها في ميدان (المعلوماتية) كتوجه واستثمار وتبادل خبرات، وبالتالي فإن ظاهرة التعاون بين مراكز الدراسات ومؤسسات غير حكومية عربياً ودولياً أصبحت ظاهرة (طبيعية) مألوفة ومنتشرة، كمركز الدراسات الاردنية، ومركز دراسات المرأة، الذي نال دعماً من المجلس الثقافي البريطاني في عمان لطبع كتاب "اللغة الغائبة: نحو لغة غير جنسوية" تأليف: زليخة أبو ريشة (ط1996/1) كما جاءت هذه الاشارة في غلاف الكتاب، اذ لايشعر مسؤولو هذه المراكز بالحرج من اعلان جهة التعاون أو الدعم أو التمويل، كمراكز بحوث الجامعات، والمراكز البحثية، والمؤسسات الاخرى..

....

■ "... عندما أصدر "النظام" أوامره بأن تحرق الكتب علناً..
تلك التي تحتوي على تعاليم خطيرة
وشدوا الثيران في كل مكان الى عربات مثقلة بالكتب
في طريقها الى المحرقة،
إكتشف شاعر في المنفى، واحد من أفضلهم، غاضباً
عندما درس لائحة الكتب المحكومة بالحرق
ان كتبه لم تدرج فيها..
اندفع نحو طاولة مكتبه على الفور
على أجنحة من الغضب،
وسطر رسالة الى اولئك الذين في السلطة:
إحرقوني
كتب بقلم مستعجل:إحرقوني!
لا تعاملوني بهذا الشكل، لاتغفلوني
ألم أنطق بالحقيقة دائماً في كتبي؟
والآن، هاأنتم تعاملوني كأنني كذاب!
إنني آمركم:إحرقوني!............."

(برتولد بريخت: حرق الكتب)

4 - الإعلام المهيمن

■ ....

(هل يحبني البشر؟

تساءل (أبو الهول)، وأجاب:لا)

....

(ويأخذ العبد

بتسلية الأسد!

هل كتب عليَّ أن أتألم دائماً؟

تساءل (ابو الهول) ثانية، واجاب:بلى)[6]

....

■ من يحب "اليانكي"؟

لااستفتاء يدقق في هذه الحالة، من (فيتنام) الى (عاصفة الصحراء).

لكن "الإعلام" اشتغل على "تجميل" الوجوه. وباتت ((امريكا)) عبر الاعلانات المصنعة باقتدار فني (واحة الحرية، وفردوس حقوق الانسان)!!

وبات (النموذج السياحي) الأمريكي هو " الأجمل"، تماماً مثل نجوم هوليود في عز شبابهم وشبابهن!

---

[6] انظر:(القصيدة في العالم، العالم في قصيدة) مختارات من ترجمة سركون بولص: نص "ابو الهول " لأودن، وقبله:حرق الكتب لبرتولد بريخت، جريدة الحياة، لندن، العدد 12345ـ الاحد 22كانون الاول ـ سبتمبر 1996 الموافق 12 شعبان 1417هـ ، ص:19.

لكن من يعرف (الوجه الآخر) من المظهـر يرى تماماً حجـم القسـوة والقبـح والإذلال:

هكذا "تنتحر" مارلين مونرو، أو "تقتل".

والذين يدعون الى ((فعل)) كتابة يعادل ((فعل)) هدم، لأن ((الكتابة)) تتعالى عن كل الاسئلة والتحديات، ثم ((تتعالى)) عن ((المساءلة)) و((التحديات)) تماماً، كمن يعابث (الأسد) الجائع!

هؤلاء يعتقدون ان للكاتب (حقاً غامضاً) لانقاش فيه ولاجدال، فينسـون إنـه نتاج حاضره، وهو مسيس، بالرغم من (استقلاله) التام، ظاهريـاً، ذلـك ان الكتابـة لاتنأى عن الحياة.

والاعلام كتابة سمعِبصرية فذة. وقاتلة في آن!

ثمة نظرية تقول: (ان حماية حرية الصحافة تتحقق بالتقليل من عددها!)

بمعنى ان البقاء فقط هو للصحافة القادرة المقتدرة (مالياً) على مقاومة الضغوط والاغراءات!

ولكن: الى أي مدى؟!

ان الجدل الذي ساد أوربـا حـول هـذا الموضـوع بقـوة، إنـدحـر امـام النظريـة الامريكية التي تقول: (الصحافة للكسب!): (الصحافة والثقافـة مؤسسـات تجاريـة) تعتمد ان قانون (العرض والطلب)

فكم أفسد المال من ذمم!

وفي مجتمع يركض وراء رغيـف الخبز ويستعصي عليـه الدرهـم وتغيـب فيـه (الحرية) و (الديمقراطية)، ويُلقى بالحناجر والاقلام خلف الشمس! كل مـاتبقى مـن أحلام المحاربين: قبضة قش!

....

((في انكلترا، عشية الحرب العالميـة الثانيـة، كـان النـاس البسـطاء هـم الذيـن يتمسكون بحريتهم، ويؤمنون بالخير والشر، ويحترمون العقـل، أمـا (جـل) المثقفـين فانهم سرعان ما بادروا الى نزع أقنعة ((الخيالات الميتافيزيقية))!

والنتيجة ـ حسب تودوروف ـ هي ان هؤلاء الأخيرين مارسوا المحاباة حيال الفاشية، لابل حيال الستالينية.. بينما يعرف الناس العاديون بأنه ينبغي محاربة هتلر..))

....

■ (يقترح أورويل ان نبحث عن العلة في واقعة هؤلاء ((المثقفين))، هم كائنات اكثر موهبة على المستوى الروحي، من متوسط الناس، يحاولون الوصول الى السلطة بواسطة قوة قدراتهم الذهنية لا غير، والحال..، ان الديمقراطية أقل استعداداً لتقبل هذه الغاية من نظام الطغيان الذي يوفر الإمكانية لكي يصبح المرء (المثقف) مستشاراً للسيد!!)

....

■ (ان تجربة افلاطون المأسوف عليها مع طاغية سيراكوز، كما تجارب فلاسفة آخرين بذلوا جهدهم من بعد، للعب هذا الدور، لايبدو انها بددت الحماسة، حماسة أحد..)

.....

■ (" تعاطفات " المثقف التلقائية تذهب نحو ((النظام الارستقراطي)) لا نحو "الديمقراطية"..)[7]

ومع ذلك..

حين غضب (السيد) على فيلسوفه، نتيجة وشاية الحساد، ألهب ظهره خمسين جلدة، وصادر كتبه كلها!

حدث ذلك للفيلسوف الكندى، وهو رئيس دار الحكمة في عهد الخليفة العباسي الرابع بعد المأمون!

أربعة خلفاء، وهو في مكانه سيد دار الحكمة،... ثم يجلد!

يجلد، وهو في الستين من عمره.. فتهتز قطرات الأسى على لحيته البيضاء ويبكي قلبه!

---

[7] انظر:تودوروف، تزفتان:" الانسان المتغرب " /مقطع من كتاب ترجمة:حسن الشامي، جريدة الحياة، لندن، العدد 12345، ص:19.

حين اعادوا له ((اعتباره)) أعادوا له كتبه، ولكن لا أحد استطاع ان يمحو آثار تلك السياط من نفسه، وقلبه، وعقله!

....

يعرف الغرب، إذاً، نقطة جذب المثقف، ومن السهل على ماكنة الغرب الاعلامية ان تحرف اتجاهات الرأي.. لكنها تحتاج الى جهد جهيد كي تحتل عقله تماماً!

وفي وطننا العربي، من المحيط الى الخليج، أيضاً..تعلم ((السادة)) كيف يروضون النّمرة!

....

■ في وثائق (المعهد القومي للصحفيين العرب) معطيات تشير إلى:

ان سكان الولايات المتحدة الامريكية لايشكلون سوى نسبة 5٪ من مجموع سكان العالم، الاّ انهم يملكون 50٪ من الصحف اليومية في كل أرجاء العالم، و45٪من اجهزة المذياع و26٪من اجهزة التلفاز.(حتى اواسط السبعينات)

تصاعدت هذه النسب، بطبيعة الحال، في نهايات القرن العشرين، مع التقدم الصارخ لمنظومة الأقمار الصناعية والمحطات التلفازية الفضائية وشبكة الانترنيت.

بالمقابل.. فالدول النامية التي تستقبل سلباً سيل المعلومات من الغرب التكنولوجي، والتي تمثل ثلاثة أرباع سكان العالم، لاتمتلك سوى 5٪من اجهزة الارسال التلفازي و27٪من اجهزة الارسال الاذاعي (: المحطات).

بالرغم من ان تدفق السلع الثقافية وصل الى الريف والبادية.

هناك مشهد مفارقة هو في صميم المضحك المبكي:

إذ يشاهد (غجر) جنوب العراق والبادية يتنقلون بسيارات (البيكاب) ومعهم اجهزة الاستقبال المرئية (التلفاز) يشتغل على البطارية!

واليوم، يلاحظ أي زائر للريف الأردني والمخيمات: أقراص استلام البث من الأقمار الصناعية، تعلو الكثير من سطوح الدور والأبنية!

وكان العامل المصري الوافد الى ريف العراق أو المدينة كشغيل خدمات أو كمزارع في تلك المزارع الجماعية ـ التعاونية ـ التجريبية، أيامئذٍ في أواخر الستينات

مطلع السبعينات على وجه التحديد..وتالياً: يجمع نقود كدحه اليومي ليشتري بها ((تلفزيون ملون)) و ((فيديو)). وحين يعود الى مسقط رأسه في ((ريف مصر)) ينشغل بالمشاهدة ويهمل عمله الزراعي أو حرفته، وحين تنفد مدخراته يعود ليبيع ((الفيديو)) و ((التلفاز))، ثم يطوي الرحال ثانية في أرض ا لله البعيدة، ليكدح ثانية..وهكذا..

في حين تتمتع وسائل الاعلام الامريكية، بخاصة، والغربية عامةً، بانتشار واسع في بلدانها، إذ يمتلك 98٪من السكان في امريكا جهاز التلفاز، وتوزع الصحف بشكل عريض لارتفاع نسبة التعليم وانعدام الأمية! وهكذا أيضاً تصل الاذاعة الى كل بيت، بل وكل مكان في العالم، بحكم كثافة حزمة الطيف وسعتها وقوة البث الاذاعي والتقوية.

ولأن الدول الصناعية الكبرى مهيمنة على تسويق وسائل نقل المعلومات المتمثلة بالسلع الثقافية والاعلامية، لأنها صانعتها أصلاً بنسب عالية، فهي تصدرها بذات النسب العالية:

94٪من اجهزة التلفاز

78٪من اجهزة الراديو

93٪من التسجيلات الصوتية

79٪من الافلام السينمائية

وان معظم هذه السلع تذهب الى الدول النامية، أي الى ثلاثة أرباع سكان الكرة الارضية. لقد بلغ الناتج القومي للدول الصناعية الكبرى 78،5٪ يقابلها 2،5٪ في الدول النامية. وهناك: (61640) محطة بث اذاعي، تقابلها في الدول النامية: (7370) محطة فقط. وهناك: (41800) محطة بث تلفازي في الدول المتقدمة تقابلها: (3071) محطة في الدول النامية[8]

وتكمن الخطورة في استخدام هذه الامكانيات ضد شعوبنا، ومنها بالطبع شعبنا العربي.

---

[8] انظر: قنديلجي، د.عامر ابراهيم:تكنولوجيا الاعلام والمعلومات واحتكار القوى الكبرى لها، مجلة آفاق عربية، بغداد، تشرين الثاني ـ كانون الاول 1994، ص:21.

لقد طبقت خطة التوجيه بهذه الامكانات بالفعل، ففي امريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا اطلقت الولايات المتحدة الامريكية بين الاعوام 1967 و1972، وباشراف مباشر من وزارة دفاعها (البنتاغون): (17) قمراً صناعياً (خاصاً) للنقل الاذاعي والتلفازي وأقامت (2500) محطة ربط من جزر الهاواي الى الفلبين الى اكيناوا الى اثيوبيا الى المانيا، حيث يدخل ضمن هذه البنية والانشطة مايسمى بمؤسسات وشركات (العلاقات العامة!). ولايخفى دورها المخابراتي التخريبي.

وقد خصصت الشركات الكبرى عام 1971 ـ مثلاً ـ مئات ملايين الدولارات لهذا الغرض، واطلقت (5) أقمار صناعية عملت على نقل آلاف الصور والاحداث، وكشفت بواطن الأرض وخيراتها، إبان (حرب الخليج الثانية 1990ـ 1991) مما جعل البنتاغون في (ضياع) نسبي بسبب كثرة ماورد من تلك والتقارير المتضاربة!

ولأهمية الدور الذي لعبته وسائل الاعلام الامريكية ـ الصهيونية، مثلاً، فقد كرست لما يسمى (بأزمة الخليج)، بعد اتفاق بين البنتاغون والسعودية، صحفيين على ظهر البواخر العسكرية لتغطية "الحشد العسكري الامريكي" ضد العراق، ضمت مجموعة الصحفيين من المنطقة، وصحفيين ومصورين من: رويتر، ووكالة الاسوشيتد برس، واليونايتدبرس. والانترناشيونال، ومحطة تلفزيون كيبل نيوز، ومجلة التايمز، وصحيفة التايمز ميرور، وصحيفتي كريس وهوارد، وصحيفة مليو وكي.

بالاضافة الى ذلك زارت مجموعة الصحفيين من المنطقة حاملة الطائرات (الأندبندنس) في خليج عُمان، وغيرها من الاساطيل في الخليج.

كما أرسلت وسائل الاعلام الامريكية (أخباراً) و(صوراً) و(تقارير ((مصنعة)) مسبقاً داخل ستوديو، عن ذلك الحشد الامريكي لإظهار قوة الهيمنة الامريكية المركزية على الأراضي العربية[9]

....

---

[9] انظر: سميسم، د. حميدة: التضليل الاعلامي في (العدوان الثلاثيني) على العراق، مجلة آفاق عربية، بغداد، 1ـ 2 كانون الثاني ـ شباط 1995، السنة العشرون، ص: 4 8.

ان احتلال الارض، هنا، يعقد مسيرة احتلال العقل، بخاصة حين يكون الشعب العربي على سوية في الحماسة والتحصن والتحدي.

لكن في حالة خلق الاحباط واليأس والشعور بالعجز، ينفذ الاعلام الامبريالي الصهيوني خططه دون صعوبة، مما يخلق مخاطر جدية منها: الشعور بالاستلاب الثقافي، وانهيار الحصانة الذاتية الثقافية، مما يسهل محو الذاكرة التاريخية.

وقد انتبهت الى ذلك وثائق مؤتمر السياسات الثقافية العالمي الثاني الذي انعقد في المكسيك عام 1982، ونبهت الى مخاطر آلية وسائل الاتصال الغربية وبالذات الأمريكية.

ومع تأكيدها على "حرية الاتصال" و"حق الاتصال" شرطاً لازدهار الثقافة والمبادرات الثقافية، الا انها اعربت في الوقت نفسه عن "قلقها البالغ" ازاء التطور المتسارع لتقنيات الإتصال الحديثة وهيمنتها، بسبب مجموع الاختلالات في التوازن في المجتمع الدولي، كالاختلاف الكلي الصارخ بين (الشمال) و(الجنوب) الناشيء من حجم الأنباء والمعلومات المتدفقة رأسياً من العالم المتقدم صناعياً والموجهة الى العالم الثالث، وحجم التدفق أيضاً في الاتجاه المعاكس.

وكمثال فإن 80 ـ90٪ من هذا التدفق الأنبائي والمعلوماتي يأتي عن طريق وكالات الأنباء الخمس الكبرى وهي: الاسوشيتد برس الأمريكية / واليونايتد برس انترناشيونال الامريكية أيضاً /ورويتر البريطانية / ووكالة الصحافة الفرنسية / ووكالة الأنباء الالمانية، بعد أن كانت (نوفوستي) و(تاس) السوفيتيتان تحظيان بالمرتبة الخامسة.

ان هذه الوكالات لاتكرس لأنباء البلدان النامية الا نسبة تتراوح مابين 20ـ 30٪ فقط من تغطياتها على الرغم من أن هذه البلدان تشكل ثلاثة أرباع سكان العالم، كما اشرنا.. اذ توزع هذه الوكالات يومياً (32) مليون كلمة على الوجه التالي:

- الاسوشيتدبرس = 17 مليون كلمة يومياً
- اليونايتد برس = 14 مليون كلمة يومياً
- رويتر = 1.5 مليون كلمة يومياً

- الفرنسية =1 مليون كلمة يومياً

- تاس = 400 ألف كلمة يومياً

مقابل ماتبثه وكالات الأنباء في الدول النامية = (312) ألف كلمة يومياً ؛ بضمنها الـ(18) وكالة أنباء عربية، (14) منها فقط نشاطات خارجية تعمل في (130) بلداً لكنها لاتصدر اكثر من (200) ألف كلمة يومياً لاتجد القنوات المفتوحة لاستقبالها ونشرها في العالم العربي، بله العالم الغربي، الا بحدود ضيقة في وسائل الاعلام المحلية، وهي عادة اخبار مسؤولي بلدانها .

ان هذه الوكالات الخمس تحتكر أفضل الموارد والطاقات البشرية، في حين ان ثلث البلدان النامية تقريباً ليس لديها، حتى الآن، وكالة وطنية واحدة للأنباء!

ولاتمتلك 45٪ من هذه البلدان تلفازاً خاصاً.

وهناك ايضاً الاختلاف المعروف في توزيع طيف الذبذبات الاذاعية، إذ تهيمن البلدان المتقدمة على 90٪ من أصل الطيف بحيث تفيض في دولة صغيرة المساحة كلوكسمبرغ على جانبيها، أي خارج حدودها!

ان هذه الوكالات تمتلك اكثر من(500) مكتب وتوظف اكثر من (4500) مراسل مساند في (116) بلداً..

واذا أردنا استكمال هذا المشهد الحزين فاننا سنرى الى حجم الصحف اليومية والمحطات التي تمتلكها، فهي امبراطوريات تمد تأثيرها الخطير على العالم كله..

اذ تمتلك وكالة الاسوشيتد برس الامريكية وحدها حتى مطلع الثمانينات مايزيد على (5720) صحيفة ومحطة اذاعية وتلفزة ومشتركاً خاصاً بها، وتعمل في (108) بلدان، ولها (559) مراسلاً عالمياً و(62) مكتباً و(2000) مراسل محلي، تتوجه لما يزيد عن مليار ونصف المليار نسمة بالأنباء والصور والاشرطة والمعلومات.

أما اليونايتد برس ناشيونال ـ الامريكية أيضاً ـ فتعمل في (92) بلـداً، وطاقتهـا الإعلامية تزود (7079) مؤسسة بالمعلومات، وتتصل بـ (2246) عميلاً في الخـارج، و(36) وكالة وطنية للأنباء، ولها (81) مكتباً[10]

وفي احصائية نشرت في الثمانينات من قرننا العشرين هنـالك (7680) جريـدة يومية تصدر في العالم منها (1772) جريدة تصـدر في الولايـات المتحـدة الامريكيـة وحدها تبلغ (62) مليون نسخة.

وفي احصائيـة جـرت في التسعينات تبـين ان (100) صحيفـة مـن الصحـف اليومية الأكثر انتشاراً في الولايات المتحدة تطبع اكثر من (30) مليون نسخة يومياً، وان هناك (10109) مجلة تطبع (80) مليون نسـخة، أي بمعـدل (410) نسـخ لكـل 1000 مواطن .

في حين تبين الاحصائية نفسها ان مصر تصدر (15) جريدة تطبع (775) ألف نسخة تكون حصة كل 1000 شخص (23) نسخة فقط.

في حين ان الدول الصناعية تصدر (عشر) مرات معدله في الـدول الفقـيرة مـن الصحـف أي ان كـل (213) مقـابل (29) علـى التـوالي لكـل 1000 نســمة، وان اجهزة المذياع كل (676) مقابل (80) لكل 1000 نسمة.

امـا الكتـب فـان نسـبة الصـادر منهـا في دول الشـمال تسـاوي 3، 81٪ مـن مجموع انتاج العالم في حين تنتج دول الجنوب 1، 16٪ فقط.

وتعتبر الأقمار الصناعيـة قفـزة نوعيـة مهمـة في مجـال تكنولوجيـا الاتصـالات وتدفق المعلومات المسموعة والمرئية والمقروءة عبر مساحات جغرافية متباعدة بحيث أصبـح العـالم قريـة صغـيرة وبعـد إنشـاء " المنظمـة الدوليـة للاتصــالات السـلكية واللاسلكية عام 1964 " واختصارها (إنتلسات) تبنت إطلاق أقمار صناعية باجيال

---

[10] انظر: بحثنا: (خطاب الافصاح فضاء الابداع) الموقـف الثقـافي والموقـف الاعلامـي / المؤتمر العـام الرابع عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب، الجزائر 3ـ 9 آذار 1983. وبحثنا: الثقافـة في امريكـا تحت سلطة صحافة مستبدة وديكتاتورية فكر ، جريدة الثورة، بغداد، العدد 7437، الأحـد 21ـ 10 .1990

واعمار مختلفة، فقد اطُلق الجيل الأول من تلك الأقمار عـام 1965 مشـتملاً (240) قناة تلفازية وقناة معلوماتية واحدة.

أما جيل الأقمار السادس الذي أطلق الى الفضاء عام 1986 فقد عكس تطـوراً واضحاً في طاقة نقلـه للمعلومـات الصوتيـة والصوريـة بلغـت مايقـارب الـ (170) ضعفاً عما كانت عليه أقمار الجيل الأول.

وبجـانب أقمـار منظمـة الإنتلسـات الـتي تعكــس هيمنــة الولايــات المتحــدة الأمريكية، هناك تجربة القمر الصناعي (عربسات) الذي يغطي المنطقـة العربيـة عـبر محطات أرضية منتشرة في الأقمار العربية المختلفة المشاركة فيه، وقد أطلق أول قمـر صناعي عربي عام 1984.

أما تكنولوجيا الحواسيب الالكترونية والليزرات ودورها في احتكار المعلومات فمعلوم أهميتها، بخاصة، في ضوء الاستعانة بالأقمـار الصناعيـة في تنـاقل المعلومـات عبر مناطق جغرافية لاتحد..

وكمثال على نوع واحد من هذه الأقراص التي تخـزن المعلومـات والـتي يطلـق عليها اسم (CD -Rom) المخصص للمعلومات الوثائقية والاعلامية المقروءة، حيـث يزيد حجم المعلومات المختزنة في القرص الواحد الذي لايزيـد قطـر اسـطوانته عـن (12سم) على ربع مليون صفحة ورقية اعتيادية مطبوعة.

وقد ارتفع عدد عناوين وموضوعات الاقراص المكتنزة هـذه مـن (48) عنوانـاً وقرصاً عام 1986 الى (816) قرصـاً وعنوانـاً عـام 1989، والى (2212) عنوانـاً في العام 1991.

وتنتشر مئات الآلوف من هذه الأقراص عن طريـق الشـركات والهيئـات الـتي تحتكر نشرها وتوزيعهـا، وقـد بينـت الاحصـاءات بـأن 62٪ مـن هـذه الشـركات والهيئات تتعامل مع انتاج ونشر وتوزيـع اقـراص الليزر المكتـنزة هـي في الولايـات المتحدة الامريكيـة وكنـدا و 30٪ منهـا في أوربـا الغربيـة و8٪ في كـل مـن اليابـان واستراليا[11]

---

[11] انظر: قنديلجي:، د. عامر ابراهيم، مصدر سابق، ص: 23ـ 24ـ 25.

والآن... فإن شبكة الانترنيت تغزو شاشات الكومبيوتر في العالم كله مما دفع فرنسا للاحتجاج الصارخ، وبخاصة وان لغة الانترنيت هي (الانكليزية) كما اعلنت قلقها البالغ والجاد من غزو افلام هوليود للمتلقي الفرنسي وعلاقة ذلك سلبياً على "الثقافة الفرنسية" وتكوين الانسان وعقله.

نستطيع القول: ان من يحاول التأثير علينا حقاً لابد أن يسبر اغوارنا، ليحول اتجاهات تفكيرنا.

ولما كانت نسبة الأمية في الوطن العربي تتجاوز الـ 80٪ فإن القدرة الهائلة لوسائل الاتصال الغربية لاتواجه تلك الصعوبة في التأثير على " الرأي العام " عندنا، وتحويل اتجاهاته.

بخاصة وان هذا "التيار اليومي الذي يغلب صوته صوت الآخرين" في "الصحافة والبرلمان" كما يفترض ان يعني مفهوم "الرأي العام" لايتجلى قوياً.

يعرف: "اليغ" الرأي العام كونه "ناتج تفاعل افكار الافراد في أي شكل من اشكال الجماعة"، في حين يعتقد "بلوفر" "ان تضارب آراء الجماعة وأوضاعها يؤدي الى تكوين الرأي العام من خلال التقارب"، هذا التشكل "الاشكالي، المتنافر، لم يعد - الا بالمقياس المعجمي - مفهوماً واضحاً للرأي العام" كمصطلح. وربما يبقى قول (بسمارك) هو الاقرب الى الواقعة، حيث يرى ان "الرأي العام" (الحقيقي) يتكون (في باطن الشعب). وتكون عناصره (سياسية ودينية واجتماعية).

واذا كان في الغرب يشكل "تياراً يومياً" يلعب في التأثير حتى على البرلمان - أحياناً - ندرك مدى خطورة التدفق الاعلامي والمعلوماتي عندما يمارس هذا الغرب ضغطه على عقولنا في محاولة منه لتحوير أفكارنا فرادى وجماعات. فغسل الدماغ أو (التحوير الفردي) - عالمياً - أصبح موجهاً الآن الى الجماعات لا الافراد وحدهم.

لقد جندت المخابرات المركزية الامريكية اكثر من (400) صحفي امريكي لصالحها بينهم محررون بارزون في "النيويورك تايمز" و "النيوزويك" و"الواشنطن بوست" منذ اكثر من ثلاثة عقود. لذا فان (الحرب) ضد عقولنا لم تعد فقط استخداماً ذكياً للتكنولوجيا والاسلحة المدمرة، حسب، بل وفي حومة الصراع الحاد ينهض الغرب بأجهزة الاعلام الكبرى لتقوم بدورها.

ففي (الحرب) - يقول أدموندريسنور ــ تصبح "جميع الاسلحة صالحة" من ابسطها "المسدس" الى "اكثرها سرية": التقنيات الاتصالية.

وهكذا يختزل الغرب الامبريالي لدعم الصهيونية ولتأكيد عولمته المهيمنة، الاساليب والطرق، وان كان سعى بشكل حثيث لفهمنا أولاً، ووضعنا على طاولة البحث تفصيلاً من خلال تلك المراكز البحثية المنتشرة والنشيطة، كي يؤثر بالتالي على "اتجاهات" تفكيرنا ولكي يمرر القرار الذي يريد، والفكرة، والتوجه والمشاريع، ..مهما كانت مقاومة وعينا عالية، فإن الشعوب بمثل هذا الحال الذي أوصلتنا إليه العولمة والهراوة الامريكية، ستدفع ثمن تضحياتها ومقاومتها غالياً.

وحتى لو تشكل "رأي عام" حول هذه القضية أو تلك، فان الأنظمة لم تعد تأبه بهذا " الرأي " أو ذاك، الا لما يخدم مصالحها ومصالح أسيادها.. من هنا، لم تعد "التعددية" أو وجود "برلمان" أو أحزاب مسألة عائقة حين تريد هذه السلطة أو تلك تمرير القرار أو السياسة أو المشروع المعينين.

ومع ذلك.. كي ينهض النظام بالهدف المرسوم له، تشتغل آلية الاعلام الغربي الصهيوني بكل طاقاتها، على الارض ومن الفضاء وعبر الشاشات المتنوعة، كي تغرق العقل العربي بالتشويش أولاً، ثم تدفعه إلى الخلخلة والفراغ، وتعبئ دماغه بالمكونات المعرفية والإيحائية التي عبرها سيتقبل الأمر الواقع بأدنى مقاومة محتملة، وبأقل الخسائر.

■ يعرف (كيمبال يونغ) "الدعاية" بأنها: "استخدام مقصود ومخطط للرموز عن طريق الايحاء والوسائل النفسية المماثلة، يرمي الى تغيير وتيسير الآراء والأفكار والقيم والاتجاهات، ومن ثم القيام بعمل في الاتجاه المدبر له.."

ويكشف تقرير رسمي نشر في 14 حزيران 1970، النقاب عن حقائق مذهلة تؤكد الدور الرئيس الذي قامت به مجموعة صحف "ماركيورو" ووكالتا الاعلان الامريكيتان التي انشأتهما وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، في (عملية تشيلي) وهي الانقلاب الدموي الذي اطاع الرئيس الليندي والمجزرة التي رافقته.

اذ ان مجموعة "ماركيورو" تتألف من شبكة صحف واذاعات ووكالات أنباء ووكالات اعلان، وهي نالت (نصف الاموال) التي انفقتها وكالة المخابرات

المركزية في تلك العملية القذرة والدموية. وهذه الاموال قدرت بثمانية ملايين دولار!!

وكشف الصحفي "كارل برنشتاين" أحد محرري "الواشنطن بوست" واحد المشتركين في كشف فضيحة ووترغيت عن حقائق اخرى مذهلة أيضاً، كارتباط مئات الصحفيين البارزين بوكالة المخابرات المركزية بصفة(وكلاء) منهم رئيس تحرير النيوز ويك تايمز (العالمي) التي آوت في مكاتبها الخارجية منذ الخمسينات عديد العملاء لوكالة المخابرات المركزية تحت ستار العمل الصحفي.

إن الاكاذيب التي نشرتها "هرست" هي التي أدت الى الحرب الامريكية — الاسبانية، بالاضافة الى ان المصالح الرأسمالية و(التروستات) هي التي أدت الى الحرب مع اليونان، وهي نفسها التي تجعل دولة كبرى كالولايات المتحدة الامريكية تجانب المباديء القانونية والاخلاقية رافضة حقوق الانسان في اتجاه واحد، انها مثلاً كما يقول القس جوزيف رايان ـ لاتشير ـ كصحفي، سوى الى جزء من شرعة حقوق الانسان لتؤيد هجرة اليهود (السوفيت) الى "اسرائيل"، وتتجاهل الجزء الآخر والمهم المتعلق بحق العودة لابناء الشعب الفلسطيني الى أرضهم.

كما جرت العادة في الصحف الامريكية على عدم انتقاد "اسرائيل"، بل تبرير كل ماتقوم به، وتقديم صورة "الاسرائيليين" كشعب مسالم ومحب للسلام وهو الذي حوَّل الصحراء الى جنائن غناء، وشبابهم منفتح، و(الفتاة الاسرائيلية) متحررة من العقد الجنسية تعمل كتفاً الى كتف مع الرجل، وتقود التراكتور والمصفحة الحربية، تنشد وتغني وترقص، وتحمل البرتقالة بيد والرشاشة بيد أخرى..

أما العربي فتصوره كسولاً ومضحكاً ويسخر منه الناس في الأماكن العامة وانه "الرجل الاسود" في " أوروبا البيضاء"!

لقد أجرى (غلين بري) دراسة سنة 1975 حول الكتب المدرسية المستعملة في المدارس الثانوية والمعاهد العالية الأوربية، إختار منها عشرين كتاباً ركز فيها على ثلاثة مواضيع:

1ـ النظرة الى الإسلام

2ـ الصراع العربي ـ الصهيوني

3ـ الانسان العربي المعاصر

وانتهى الى الخلاصة التالية:

".. ان جميع المؤلفين، باستثناء قلة، ينقلون الصورة التي تعكسها أفلام هوليود عن العرب.

وهي صورة متميزة ومضللة..."

وقد وجدت الصهيونية في أزمة الطاقة غب حرب اكتوبر ـ تشرين الثاني 1973، وتأميم العراق لشركات النفط الأجنبية ميداناً رحباً لبث سمومها.

اذ نشرت الاعلانات في الصحف ظهر فيها عربيان يقفان قرب برميل النفط الذي كتب عليه:

1973 = 70، 2دولاراً

1975 = 51، 11دولاراً

(إشتر أو لا تشترا)

واتبعت هذه العبارة بعبارة اخرى تقول: (المحصلة: خسارة مالية وبطالة وفقدان السيادة!)

....

■ لقد عمقت آلة الغرب الاعلامية شعاراً بات رائجاً في الغرب كله هو القول على لسان عرب النفط: "نحن لدينا النفط وليست لدينا عقول!

ولأن آلية وسائل الاتصال الجماهيري في الغرب تتوسل التقنيات كلها لتشويه صورة العربي فهي تقدم اشرطة التسلية وافلام ((الكارتون)) للاطفال، والروايات البوليسية كمسلسل ((كانون)) و ((مسرح الاسرار)) و((مك لاود))..الخ، وهي مسلسلات عرضت في اكثر الاجهزة المرئية العربية آنذاك بعد انتشار ((الستلايت)) في المنازل والدوائر على السواء..

وقبل ذلك قدمت هوليود اشرطة من نوع: ((سندباد)) و ((ابن السندباد)) و ((علي بابا والاربعين حرامي)) و ((الف ليلة وليلة)) لتشويه صورة العربي في العقل الاوربي وفي العالم.

كما قامت وسائل الاعلام الغربي المضاد على تشويه سمعة الشخصيات التي تظهر تفهماً ولو نسبياً للموقف العربي مثل: ((كلارك كليفورد)) و ((وليم روجرز)) و ((وليم فولباريت)) و ((جيمس أبو رزق))

ونشرت مجلة (parada) مقالاً شهرت فيه بزوجة السيناتور ((جاكوب جافتش)) التي تعمل في خدمة ((العلاقات العامة الايرانية)) وقالت بأنها ((عميلة لزبائن عرب)) وقد غاب عن المجلة المذكورة، أو لم يغب، ان ايران ليست دولة عربية!

كما لايخفى دور الاذاعات الموجهة باللغة العربية وعددها (45) اذاعة منتشرة في مناطق مختلفة من العالم، كالقسم العربي لهيئة الاذاعة البريطانية، و(صوت امريكا) و (صوت المانيا) بالاضافة الى (تل ابيب) وبرنامجها الموجه بدقة الى عقل المواطن العربي وهمومه واهتماماته.

ومعظم هذه الاذاعات تبث بالعربية: الاخبار والتعليقات السياسية والمواضيع الاقتصادية و الثقافية والعلمية والرياضية..كما تبث الموسيقى الكلاسيكية والحديثة والاغاني.

أما التلفاز فيحتل مساحة عريضة من اهتمام المتلقي العربي ووقته وعقله، بقنوات متنوعة لاتحصى، ومباشرة، وبوسائل اغراء وجماليات انتاج، تعجز عن مجاراتها محطاتنا المحلية والفضائية المتواضعة،... وبعد اتساع رقعة استخدام الستلايت والديكودر والانترنيت..اصبح العالم بالفعل (قرية صغيرة)!

ودائماً يجعلنا الاعلام المضاد ((ضحيته الأولى)) لأنه اعلام ((الصوت الواحد)) وهيمنته في العادة، انه صوت المتعالي الغني على الفقير المتلقي.

ان النتاجات التلفازية المصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية توزع في اكثر من (100) بلد عبر وكالة (USIA) أو عبر القنوات التجارية ويشاهدها مايقارب الـ (100) مليون مشاهد في معظم بلدان الأرض، وتصدر كل واحدة من الشبكات التلفازية الامريكية الثلاث الى ما يقارب من 80 الى 90 بلداً.

أما عن نوعية البرامج المصدرة فالجزء الأغلب منها هو قصصي بوليسي، ومسلسلات الجاسوسية والعنف والكوميديات العائلية والبرامج الخفيفة، إذ تفوق نسبة مشاهدة الأجنبي ـ كالعربي مثلاً ـ للبرامج الامريكية نسبة الى مشاهدة الامريكي للبرامج الأجنبية المستوردة بنسبة (20: 1) الى جانب زج البرامج التلفازية الامريكية عالية التقنية، عالية التكاليف، رخيصة الثمن عند البيع، مما تسهل الاقبال على شرائها وتداولها.[12]

هذه الهيمنة تفرض اتجاهات الاعلام المضاد على حساب الحوار والعلاقات المتكافئة والاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، التي تؤكد عليها ـ دائماً ـ (وثائق) المؤتمرات الدولية المكرسة لحق الاتصال وعدالته!

لذا فإن انتقاء الاخبار وروح التعليقات والتحليلات السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية وتوجهاتها.. تتجه كلها ومباشرة الى عقولنا..، وبخاصة بعد ان اشاعت وتشيع روح الاحباط والعجز في النفس، وعدم الثقة فيما تقدمه المحطات المحلية ومنظوماتها.

ولم يعد خاف على أحد ان الصهاينة يمتلكون معظم الصحف الكبرى في العالم كالنيويورك تايمز والواشنطن بوست، ومعظم شبكات الاذاعة المرئية والمسموعة.

وهكذا أصبح (واقع الحال) مألوفاً، وتطويق الاعلام المضاد لعقولنا، حالة مكررة انه يخترق حياتنا بخاصة وإن الحكومات في المنطقة لعبت دوراً مرسوماً، أو عن جهل لتسهيل ذلك.. وحدوث ما حدث!..

ـ وهكذا تماماً:

■ ((ماأغرب
أن نبصر البرق
ولا يخطر ببالنا
ان الحياة تزول...))

(باشو)

---

[12] انظر: ن.س.بيريوكوف:جريدة القادسية، بغداد، السبت 3 تشرين 1990/2.

....

((وفي كلا الحالين، يقول واحد،
مخاوف وخسارات
وبين الخسارات، يقول آخر،
الاماكن الخاصة
التي...
كان لدروبنا أن تؤدي إليها..))

(ليغرتوف)

5 ـ الإختراق

■ (سوف يرقد الموتى

حيث يسقطون!......)

....

السائد هو "خطاب النار"،.. (كان) السائد، لأنه (الخطاب التقليدي) (الكلاسيكي)، هو (قبل) و(بعد) دائماً، كأنه الجسر الموصل.

والسؤال: ماذا أرادت أن تحقق تلك الحروب؟!

- الأرض مقابل السلام؟
- الارض والسلام معاً؟
- السلام مقابل السلام؟
- القبول بالشراكة الأبدية؟

بعد حرب (السبعة وستين)، أو ما اصطلح عليه في وسائل اعلامنا المحبطة: (نكسة حزيران)، تركزت البحوث المخابراتية (الاسرائيلية) على مفاصل مهمة تكمن في ((الايحاء)) بقوة النكسة والهزيمة، واشاعتهما في النفوس والعقول كذخيرة للمستقبل، وبخاصة في نموذج (المثقف والمهزوم) لتسهيل مهمة الوثوب على أمانيه وآماله، فتوجهت الى قطاع الطلبة والشباب والصحافة واساتذة الجامعة عبر وسائل الاعلام، للتعبير عن حالة الاحباط والخيبة وفقدان الثقة بالهياكل السياسية والتنظيمية وفعالياتها، وبالتالي دفع تلك القطاعات الى (الغاء) كل ماهو موجود في (النظام) العربي، باعتباره لم يعد يصلح لشيء! فهو غير مؤهل لحل المشكل الاجتماعي

والاقتصادي والسياسي، وبالتالي فهو (نظام) عاجز، وعاجز أيضاً، وبالضرورة عن مواجهة (اسرائيل)! وقوتها التقنية والدعم الغربي اللا محدود الساند لها.

هذا السعي كان تمهيداً مدروساً لتفتيت بنية المنظومات العربية كل على حدة، واسقاط هيبتها ورهبتها في آن، وبضمنها: الحكومات والشخصيات والفعاليات الحزبية والمهنية والرموز: كما حدث لجمال عبدالناصر.

بالتالي: تسهل مهمة الوثوب لايصال سلطات أو رموز ضعيفة لتحقيق العبور المضاد الاخطر الى البنية الاشمل: الدين، القومية، والوحدة (كهدف).

ان تعميق حالة الشك وعدم الثقة بين الجماهير العربية وفعالياتها السياسية من جهة وبينها وبين القيادات وحكومات بلداننا، من جهة اخرى، وغلق ابواب الحوار الوطني لصالح الشعب وقضاياه وأمانيه، واتسام هؤلاء واولئك بضيق الأفق وضيق الصدر أدى الى تعاطي العنف والارهاب بديلاً عن الحوار مما قاد الخطوات التالية في المخطط المعادي للهيمنة تالياً، على الارض والثروات، وتقييد القرار السياسي المستقل.

في مطلع العام 1968تلقى حوالي سبعين عميلاً من وكالة المخابرات المركزية الامريكية من العاملين في بيروت كمركز نشاط تابع لهذه الوكالة، تلقوا تعليمات واضحة بوجوب ((جمع المعلومات)) في نطاق (رسم صورة كاملة للوضع السياسي والحزبي في المنطقة).

وتم تشكيل "خط ثان" لهذا الترتيب أُنيط بموظفي السفارة الامريكية للإتصال بالمثقفين وسواهم تحت ستار ((ان الخارجية الامريكية تشعر بعد حرب 1967انها بحاجة شديدة لاستكمال معرفتها بشؤون المنطقة، وعلى ((المثقفين)) ان يفيدوا من هذه الفرصة، وذلك بطرح وجهة النظر العربية بوضوح!)

وكرست مؤسسة (راند) العريقة بهذه الخبرات المعلوماتية، الاستقصائية، عناوين بحوثها في مقدمة الخطة التي اعدتها عام 1968باقتراح دراسات من بينها:

- القوى الكامنة في الأمة العربية
- دور العسكريين
- قيمة آيديولوجية البعث

- العلاقات العربية

- نفط الخليج

وتحت شعار ((تنوير البيت الابيض)) و ((الاستقصاء العلمـي)) فـان مؤسسـة "راند" ركزت نشاطها على:

- الطلب من اساتذة الجامعات وضع دراسـات تخصصيـة بواسـطة مؤسسـات تبدو في ظاهرها وكأنها مهتمة بالبحث العلمي فقط.

- الاتصال بالاحزاب والصحافة والتنظيمات الفلسطينية عن طريق الجامعـات الامريكية بقصد ((البحث الدراسي)).

ولكي تظهر مؤسسـة "رانـد" مصداقيتهـا (البحثيـة!) أصـرت ان تصـدر هـذه (البحوث) على شكل كتب تضع عليها أسماء مؤلفيها جوار عبارة لازمة: (مع هيئة راند)، تماماً كما فعلت مؤسسة فرانكلين حين دفعت عدداً من المثقفين لترجمة كتب بعنوانات غير لافتة، كأن يكون الكتاب مثلاً عن ديستويفسكي.

وهكذا يتجاوز مفهوم الاختراق المعنى الانفصالي والعـاطفي، الى واقـع عملـي ملموس ويتصدى الأمر "المعلومة" و"عنصـر البحـث" الى شـراء الذمـم والكفـاءات وتوظيفها كي تتم السيطرة ـ تماماً ـ على رقبة انتاجها الحيـاتي (المـادي والإبداعـي) في آن، وبالوسائل المختلفة، ومنهـا مايسـمى بـ ((الامبريالية الالكترونيـة)) لغـرض واضح محدد هو ((استعمار العقل)) عـبر التبعيـة الثقافيـة، بعـد اسـتعمار البلـدان أو الانظمة، أو تحقيق التبعية السياسية والاقتصادية.

وهكذا..

صحيح اننا نعيش في التاريخ،

لكننا لاندري أين تؤدي بنا طرقه!

....

يعتقد الأخوة المتفائلون جداً، ان تلك الوسائل والاساليب ـ كلهـا ـ لم تمكـن (اسرائيل) من جعل ((معاهدة الصلح 1979)) أمراً واقعاً في الشـارع المصـري، ولم (تتمكن) من جعل (التطبيع) "واقعاً شعبياً".. وظل ((الصلح والاعتراف والتوقيـع))

(مجرد سفارة مفتوحة في القاهرة، وعلم يرفرف فوقهـا) حسـب: لجنة الدفـاع عـن الثقافة الوطنية في مصر.

وفي واقع الأمر لم تكن (السفارة) مجرد (مبنى) ولا (علم يرفرف فوقها)، فهي تشتغل بالتنسيق مـع السـفارة الامريكيـة، وبكـل الطاقـة، لجـذب اعـداد اكـبر مـن الباحثين والعلماء المصريين الى مراكـز بحوثهـا، وبالتـالي خدمتهـا مباشـرة، وخدمـة (التطبيع) كسياق.

الى جانب الخطاب المجاور الذي تبثه أجهزتها بإضعاف الثقة بالمثقفين المصريين حين تنشر أخباراً عن ((عقود بين الاسرائيليين وعـدد مـن الكتـاب اللامعـين لنشـر اعمالهم في (اسرائيل) مقابل أجور مبالغ فيها، وعلى رأسهم: توفيـق الحكيـم/نجيـب محفوظ/يوسف أدريس/أنيس منصور...وغيرهم)

وتنشر جريدة الشعب ـ على نفس وتيرة الاساءة الى رموز الثقافة والابـداع ـ في عددها الصادر يوم الثلاثاء 25آذار ـ مارس 1980، وعلى صفحتهـا الأولى خـبراً بعنوان: ((فيلم مصري اسرائيلي مشترك)) تقول فيه:

"اعلن المنتج الاسرائيلي ايدي صوفر، ان الرئيس انور السادات أبـدى موافقتـه على اشتراك وحدات الجيش المصري في فيلم سينمائي اسرائيلي مصري مشترك عـن حرب اكتوبر 1973. وسيشترك في انتاج الفيلم المنتج مـارتن بـول، وسـيطلق عليـه اسم: ((جسر على السويس))"

وتضيف:

"..هذا، وكان الرئيس السادات قد استقبل المنتج الاسرائيلي ايدي صوفـر، في شهر كانون الثاني يناير 1980 في القاهرة حيث قدرت التكاليف المبدئية للفيلـم بـ (12) مليون دولار"!!

....

■ "العالم بشع
والبشر حزنى.."

والاس ستيفنز

....

■ لم تتردد ثلاث صحف مصرية كبرى لنشر (معلومات) عـن (اسـرائيل) في حقل (الكلمات المتقاطعة) ـ التسلية ـ كاشكال (ناعمة) غير ملفتة. تجعـل (الصلـح) حقيقة موضوعية:

ـ ففي عدد الاهرام: 13ـ حزيران يونيو 1980 كانت الكلمتان في البنـد الرابع من الكلمات الرأسية هما: (زعيم اسرائيلي) معكوسة!

وبين عشرين عدداً آخر من الجرائد المصرية الثلاث، كانت (11) منها تتضمن في نفس الحقل معلومات (اسرائيلية) مطلوب من القاريء معرفتها والاجابة عنها:

ـ ففي عدد الاهرام:29شباط ـ فبراير 1980 كانت الكلمات المتقاطعة في البنـد الثامن من الكلمات الأفقية تسأل عن (شيء اسرائيلي)، والكلمة الوحيدة التي تعـني (اسرائيلي) ـ حسب ـ الجريـدة هـي "يهـودي"، دون التمييـز عـن الوطـن الاصلـي والجنسية ومسقط الرأس والمعيشة والموقف.

ـ وفي عدد الجمهورية: 17ـ 1ـ 1980تسأل (الكلمات المتقاطعة) عن معلومـة (تاريخية من اسفار العهد القديم)

ـ وفي عدد الاهرام: 12ـ 1ـ 1980تسأل عن: (حزب اسرائيلي)

ـ وفي عدد الاهرام: 23ـ 1ـ 1980تسأل عن: (شيء به وصايا موسى)

ـ وفي عدد الاهرام: 10ـ 2ـ 1980تسأل عن: (مدينة اسرائيلية)

ـ وفي عدد الجمهورية: 27ـ 2ـ 1980تسأل عن: (كتاب مقدس عند اليهود)

ـ وفي عدد الاهرام: 29ـ 2ـ 1980تسأل عن: (كلمة: اسرائيلي) ايضاً

ـ وفي عدد الجمهورية: 9ـ 3ـ 1980تسأل عن (زوج وزير خارجية اسـرائيلي راحل.)

ـ وفي عدد الأخبار:10ـ 3ـ 1980تسأل عن (شيء في اسفار موسى الخمسة)

ـ وفي عـدد الجمهوريـة: 1ـ 7ـ 1980ثـلاث كلمـات بثلاثـة اسـطر تســأل عن:رئيس وزراء اسرائيلي راحل / وبلدة لوط المذكورة في التوراة.

....

وهكذا، تقدم الاجابات في اليوم التالي فتتكرر المعلومة مرتـين، مـرة في ضمـير الغيب، ومرة في ضمير الصحيفة!

كما يلاحظ تنوعاً في المعلومات من تاريخية الى جغرافية الى أحـزاب سياسـية ودينيـة وشخصيات قياديـة مـن كـل نـوع، ويـأتي تكـرار بعضهـا في اكـثر مـن صحيفـة لغـرض ترسيخها في عقل المتلقي. علماً بأن توزيع هذه الصحـف اليوميـة الثـلاث يكـاد يصـل الى ثلاثـة ملايـين نسـخة يومياً. إذا اخذنـا متوسـط مـن يقـرأون العـدد الواحـد وهـو خمسـة اشخاص ندرك معني تلك (الاشارات) في محاولة (التطبيع).

ومعلوم ايضـاً ان المقصـود بهـذا التوجـه هـم قـراء الكلمـات المتقاطعـة الذيـن يشكون الملل عادة من الأخبار المعادة والمواد الجادة، وهم كـثر!.. لتنشـر لهـم هـذه المعلومات في وقت التسلية وهكذا أيضاً:[13]

■ (مطر بارد يبدأ بالهطول
ولا قبعة لـــــــــــي!)

....

■ على صعيد أهم..هل نعتبر ((الحوار)) مع روائي لامع وكبير كالاستاذ نجيب محفوظ، وجهاً آخر من وجوه إشاعة التطبيع؟!..كون آراء محفوظ وتحليلاته ستصل ــ مثل إيحاء قوي ـ الى عقول قرائه والمعجبين بأدبـه.. وبالتـالي فهـو ليـس هامشـياً كـي توضع افكاره خارج المتن، وبالتالي فالاختلاف مع محفوظ، بخاصة اذا كان المحـاورون أقل حجة وتأثيراً، شخصياتٍ ونتاجاً، واسـئلةً، ومواقـف.. وان عليهـم مـاعليهم مـن وجهات نظر حياتية وسياسية وسـلوكية وعلاقـات مـع أنظمـة، وكتابـات.. وهكـذا تكون الحصيلة عكسية، فبدلاً من الإيقاع بنجيب محفوظ في شباك الحرج، أوقعهم في حفرة التطبيع، وبخاصة حـين تحـول بعضهـم مـن هـذا ((الموقـف)) المعـارض للتطبيـع (كلطفي الخولي) الى نصير مناصر للحوار مع الكيان الصهيوني، و"قائد" مـن (قيـادة) مثقفي كوبنهاغن و ((التحالف الدولي)) لحركة السلام (العربي ـ الاسرائيلي)!!

ففي موضوع: (نجيب محفوظ يحـاور 7 أدبـاء معـارضين ومؤيـداً واحـداً) هـو (ثروت أباظة)

أعد (قصة الحوار): صلاح عيسى

---

[13] انظر:مجلة **المجلة** ، السنة الاولى، العدد 27، الصهيونية عبر الكلمات المتقاطعة.

وشارك (في الحوار): ابراهيم منصور/د.عبد المحسن طه بدر/سليمان فياض/ جمال الغيطاني/ جميل عطية/ ولطفي الخولي..

نشر في جريدة (الوطن) ـ الكويتية ـ على مدى عشرين حلقة، استغرقت في النشر ثلاثة شهور للفترة من 26شباط ـ فبراير الى 26مايس ـ مايو 1980

ومن عناوين الحلقات:

- نجيب محفوظ يدافع عن التطبيع: تغيير المناهج التعليمية تنفيذاً للاتفاقيات سيكون للأفضل
- نحن نزيف التاريخ وليس اسرائيل.
- د.عبد المحسن بدر: هناك حكومات عربية قلبها مع السلطة في مصر ولسانها ضدها..
- تغيير المناهج في مصر يعني تزوير التاريخ.
- اذا التحق الاسرائيليون بجامعاتنا سيرفض الاساتذة القاء المحاضرات
- ثروت أباظة: لاخطر علينا من الاسرائيليين/ ادبهم شظايا من الآداب الأوربية/
- اسرائيل دولة تكونت بالصدفة العمياء
- سليمان فياض: كاتبان اسرائيليان زارا القاهرة ومعهما اسماء الكتاب المطلوب اغتيالهم.
- نجيب محفوظ: لقد استعدنا بترول سيناء.
- ابراهيم منصور: وبعناه للدبابات الاسرائيلية في جنوب لبنان.
- نجيب محفوظ: المصالح الامريكية لاتتناقض مع العربية
- هل الموقف في نظري ان نطبق معاهدة السلام بحذافيرها والدفاع عن حقوق الفلسطينيين قدر استطاعتنا، ونترك للعرب ان يختاروا طريقاً يرونه أفضل.
- لقد حاولنا تغيير الواقع فدخلنا كل هذه الحروب، والمخيف ان خسارتنا في محاولة تغييره أفدح مما لوتركناه كما هو.
- لوكان عبد الناصر سياسياً محنكاً لما ترك اسرائيل تستدرجه للحرب..[14]

---

[14] انظر:جريدة الوطن الكويتية 23اغسطس آب الى15سبتمبر ايلول 1980.

(يطرح نجيب محفوظ رؤيته لتطبيع العلاقات الثقافية بين حكومتي مصر واسرائيل ـ كما يصفها صلاح عيسى ويلخصها ـ رائياً: ان ذلك أمر منطقي تماماً مع اتجاه الدولتين لإقامة (سلام دائم) بينهما..

ففي رأي محفوظ "ان الاسرائيليين يفتقدون للأمان نتيجة وجودهم في جو عدائي واضطهادهم الطويل، وان تطبيع العلاقات سوف يزيل هذا الشعور، ويسمح بالتالي بمزيد من التفاهم المتبادل حول الموضوعات المختلف عليها بين الدولتين."

"ولا مبرر ـ لدى محفوظ ـ للخوف من آثار تطبيع العلاقات الثقافية على الثقافة العربية، الاّ عدم ثقة المثقفين المصريين والعرب بأنفسهم وبثقافتهم، وتصورهم ان أي تغيير في مناهج التعليم سيكون للأسوأ، بينما يرى (محفوظ) ان كتب التاريخ التي تدرس في مصر مليئة بالتزوير وبخاصة فيما يتعلق بالاسرائيليين!، وأن العرب انفسهم ((يزورون)) تاريخهم، بينما لم يفعل الاسرائيليون ذلك"!!

ويؤكد محفوظ: "ان المفاوضة عملية مستمرة، وان المفاوض المصري يستطيع ان يضع الشروط التي تضمن الاّ يؤدي تطبيع العلاقات الى خطر على الثقافة المصرية" ولذلك فهو يطالب المعارضين المصريين بالمعارضة لا بالمقاطعة. اذ ان معارضتهم تساعد المفاوض المصري على التشدد، أما مقاطعتهم فهي السبب في تعنت الطرف الآخر.."

يقول نجيب محفوظ: "نحن وقعنا معاهدة سلام. ويعني ذلك انه يتعين علينا ان نطبق السلام بكل نتائجه، ومن أول هذه النتائج تطبيع العلاقات، أي أن تكون علاقتنا مع اسرائيل طبيعية مثل علاقتنا مع باقي دول العالم"

....

■ يطلق صلاح عيسى لقب ((فرسان الدفاع عن السلام والحضارة)) على نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وحسين فوزي وثروت أباظة: "حيث مكانهم في "الأهرام" يدعى ((مكتب الحكماء))، ومنه من منبر جريدة مهمة، واسعة الانتشار كالأهرام يطلقون سهامهم ضد أو مع..."

ـ وفي اشارة اخرى: "إن اول سفير لاسرائيل في القـاهرة: اليـاهو بـن اليسـار يحضر الندوة الاسبوعية التي كان ومايزال يقيمها نجيب محفوظ في كازينو قصر النيل مساء كـل جمعـة، وموافقتـه الشـخصية على تقديـم روايتـه ((ثرثـرة فـوق النيـل)) ممسرحة على خشبة المسارح الاسرائيلية"

ـ أما الكاتب المسرحي الكبير توفيق الحكيم فهو صاحب الدعوة لحياد مصـر، التي جاءت بعد توقيع اتفاقيتي كامب ديفيد، وتزايـد الرفـض داخـل مصـر والوطـن العربـي إثـر مؤتمـر قمـة بغـداد (2ـ 5 تشـرين الثـاني ـ نوفمـبر 1978) الـذي دان الاعتراف باسرائيل، وقرر: (عدم الموافقة على هاتين الاتفـاقيتين وعـدم التعـامل مـع مايترتب عليهما من نتائج، ورفضه لكل مايترتب عليهما من آثار سياسية واقتصادية وقانونية وغيرها من آثار)

وما اجتاح الوطن العربي ـ آنذاك ـ من تظاهرات إدانة واحتجاج، ومـا صـدر عن مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب من قرارات خاصة بالمقاطعة منـذ انعقاده ايضاً في الفترة من 27 الى 31 آذار ـ مارس 1979.. حيث كان من قراراته:

ـ "تطبيـق قوانـين المقاطعـة العربيـة ومبادئهـا واحكامهـا علـى الشـركات والمؤسسات والأفراد في جمهوريـة مصر العربيـة، الذيـن يتعـاملون بصـورة مباشـرة أوغير مباشرة مع العدو الصهيوني.."... الخ

....

(نتيجة هذه الاجواء.. الرافضة، المقاطعة، في مصر والعالم العربي، وجد النظام الحاكم نفسه في عزلة عربية، ومقاطعـة اسـلامية بعـد رفـض حضـوره مؤتمـر القمـة الاسلامية الذي عقد آنذاك في الرباط بالمغرب!..

لذلك جاءت دعوة (الحكيم) لحيـاد مصـر، لتطـرح أفكـاراً وتوجهـات تخـدم النظام المصري في اجـواء العزلـة الـتي يعيشـها، لأن اقتنـاع الشـارع المصـري بهـذه الأفكار يجعله يعتقد بأن النظام اختار الحياد..)

(ان هذه الأفكار ماهي الاّ أصداء لتوجهات السلطة التي وضع (الحكيم) نفسه في خدمتها منذ صدور كتابه ((عودة الوعي))[15] ورسالته الشهيرة الى السـادات في

---

[15] نفسه.

6ـ 5ـ 1979 تأكيدعلى ذلك، حيث اعتبرتها لجنة الدفاع عن الثقافة القومية المنبثقة عن التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، جزءاً متمماً للجهد الذي يقوم به (الحكيم) لفصم مصر عن العروبة، وان منطق (الحكيم) في هذه البرقية يلتقي ومنطق عتاة الصهيونية،.. فالحكيم يقسم المنطقة الى قسمين:

- معسكر الاسرائيليين المتحضر
- معسكر العرب المتخلفين

ويجعل (حضارة مصر) مرهونة باقترابها من اسرائيل وانفصالها عن العرب)[16]

....

■ (أريد أن أعيش
لكن أين أعيش،
اذا كان العالمُ
قد اختفى!!)

(ليفرتوف)

....

[16] انظر: ابو مطر،د.أحمد:الثقافة المصرية في زمن التطبيع، منشورات الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب، عمان، ط1ـ 1994، ص94ـ 97 . وانظر: من مقاومة التطبيع الى مواجهة الهيمنة./اعداد لجنة الدفاع عن الثقافة العربية، القاهرة، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين لجنة الدفاع عن الثقافة العربية في فلسطين المحتلة، ط1، عمان، 1993.

6 - "التحالف"!

■ ((.... كل ما كانَ قد ضاع
بماذا سأبدأُ...
ها أنت ذا ترتدي معطف المطر - الإحتراق
وها أنت تكتشفُ الآنَ
بعد فوات الأوانْ
بأن الدروب لروما لاتؤدي إليها
وان الكتابة قاتلةُ الشعراء..))

*** (عبد الوهاب البياتي/ من:المراثي - ص:16)**

....

■ ((هذا زمن الحق الضائع
لايعرف فيه مقتولٌ من قاتِله ومن قَتله
فتحسس رأسَك
تحسس رأسَك.....))

*** (صلاح عبد الصبور)**

....

■ ((ياثعالب ستبرأ منها الثعالبُ
يا افاعِ ستمقُتها الأفاعي،
ايها القادة الخونة
من كل منزلٍ متهدم يخرج لكم سيفٌ بتارٌ

بدلاً من باقات الأزهار
ومن كل طفل يموتُ
تخرج بندقية ذاتُ عينين
ومن كل جريمة تقترفونها تتوالد القذائف
القذائف التي ستهتدي يوماً الى قلوبكم..))

(نيرودا: فلنتصارح)

....

1 - الإقتباس والخلاصة!:

(منذ ان تمكن ((هنري كيسنجر)) - وشركاه - في نهاية سنة 1973 وبداية سنة 1974من تعطيل فرصة لاستعادة المشروع القومي، وتقويم وتعميق مساره تعرضت الأمة لظواهر واعراض تثير القلق على حالتها الصحية، وعلى حالتها النفسية والعقلية أيضاً!)

- كذلك يقول (محمد حسنين هيكل)[17]

- (إن معركة يونيو سنة 1967- برغم كل ما قالوه لم تكن نصراً استراتيجياً كاملاً يعطي الدولة العبرية حق رسم خريطة الشرق الأوسط من جديد وعلى هواها.

- (ومعركة اكتوبر سنة 1973- بالرغم من كل ماقلناه - لم تكن نصراً استراتيجياً كاملاً يعطي العرب حق رسم خريطة الشرق الاوسط من جديد وعلى هواهم.

وبدون مبالغات لاداعي لها فمن الممكن القول انه في سنة 1967 استطاعت (اسرائيل) بتحالف مع الولايات المتحدة، أكثره في السر وأقله في العلن، أن تضع على خريطة المنطقة أمراً واقعاً جديداً لايمكن تجاهله. وعلى نحو أو آخر فإنه في سنة

---

[17] انظر، هيكل.محمد حسنين:حوار عن الحوار/مجلة الكرمل، العدد 52، صيف 1997ص6 هنا، وتالياً اقتباس، له دلالته فيما يجري الآن، حيث لاينفيه هيكل، كما لاينفيه غيره وان كتبوا "ان هذه الآراء تمثل كاتبها" أو: "المقالات تعبر عن وجهات نظر كتابها.." فهناك (خط)، يمنح استقبال الحالة قيمة الايحاء بتبنيها..، وشيئاً شيئاً، تصبح (طبيعية) و(ضرورية)!!.

1973 إستطاع العرب بنوع من وحدة العمل، معزز بتحالف دولي واسع، ان يضعوا على خريطة المنطقة أمراً واقعاً مختلفاً لا يمكن هو الآخر تجاهله. وكان وارداً أن تسوية معقولة وليس بالضرورة نهائية في الشرق الاوسط قد تكون متاحة في مناخ عالمي ينبيء شواهده المبكرة أنه معبأ ومشحون بما يصعب رصده ومن ثم الاحتياط مسبقاً لمفاجآته. وفي كل الاحوال فقد بدا ان ابسط ضرورات السلامة تقتضي يقظة في التعامل مع أوضاع مستجدة شرط الفهم الدقيق لهذه الأوضاع، كما تقتضي مرونة في الحركة شرط الاستيعاب العميق للاستراتيجية العليا المطلوبة للأمة، وهي استراتيجية قد يقصر الحاضر عن مقاربة أهدافها، لكنه لايملك حق اشعال النار فيها وتحويلها الى رماد خامد من أي نبض وحس!

(لكن هذا الذي كان وارداً ضاع منه طريقهُ لأسباب كثيرة!!)

....

(لقد كانت اشارة القلق الاسرع الى الظهور شيئاً يمكن حسابه نتيجة مباشرة لتفاعلات ظروف الحرب في اكتوبر 1973، وترتيباً على ماظهر وترسخ اثناءها وبعدها من أواصر وعلاقات متداخلة بين مراكز القيادة السياسية وبين مشتريات السلاح وفوائض اموال البترول والقفزة الهائلة فيها، ثم الاحساس الزائف بنشوة النفوذ والغنى، وكل ذلك دعا الى تجاوزات خطيرة في حدود وحرمات كثيرة..

ثم تكاملت ملامح الظاهرة، واذا نحن امام: فسادٌ متشح بالسلطة.)

....

ـ وجاءت الاشارة الثانية ــ يستطرد هيكل ــ للقلق، لاحقة، حين زادت وعلت نبرة الاحتجاج على ما آلت إليه الأوضاع السياسية والاجتماعية، وفي غيبة قنوات سياسية وشرعية يمكن ان تستوعب حركة الاحتجاج وتحولها الى فعل مؤد الى أمل. ومع شيوع اليأس ظهرت وتصاعدت نزعات العنف.

ـ ثم تكاملت ملامح الظاهرة، واذا نحن امام:إرهاب ملتحف بالدين.

ـ ثم جاءت الاشارة الثالثة للقلق وقد برق شرارها بالذات على شطآن الخليج، فما بين الحرب العراقية ــ الايرانية، ثم الكويت، ثم تحالف عاصفة الصحراء، بدت التصرفات العربية فاقدة للذاكرة، مصابة بقصر النظر، متلعثمة مترددة في خطابها ملعوباً بها وهي تحسب نفسها لاعبة..

الصحراء، بدت التصرفات العربية فاقدة للذاكرة، مصابة بقصر النظر، متلعثمة مترددة في خطابها ملعوباً بها وهي تحسب نفسها لاعبة..

ـ ثم تكاملت ملامح الظاهرة، واذا نحن امام: قرار عربي مغترب عن العصر، وقد أصابه داء الاكتئاب يعبر عن نفسه بالهياج المستثار مرة وبالسكون الخامد مرة اخرى، وهو في الحالتين كئيب كما هو مكتئب!

ـ وأخيراً تبدت إشارة رابعة هذه اللحظة أَظْهر ـ وإن لم تكن أخطر ـ مايثير القلق على الحالة الصحية للأمة، وبالتحديد والتركيز على صحتها النفسية والعقلية..

والذي اعنيه ـ يقول هيكل ـ هو "ذلك الذي نسمع اصواته واصداءه في الأجواء العربية الفكرية والسياسية من دعوات أو دعاوى عن "ضرورة الاعتراف بالآخر حتى لوكان عدواً" وعن "لزوم الحوار معه لأن الحوار لايكون بين متفقين، وانما يكون بين مختلفين" وعن ان تلك: "سمات الزمان الجديد وأساليبه العاقلة والحضارية"

"ومع ان ذلك معقول ومقبول فإنه مثل كل معقول مقبول يفترض الاستقرار على قواعد، أو على أرضية، يكون منها اساس يتحمل البناء فوقه ويستحق التعلية عليه...ومثلاً كقاعدة اساس، فإننا حين نطالب طرفاً بأن يعترف بالآخر ولا ينفيه فإن من حق هذا الطرف أن يتأكد من أن الطرف الآخر بدوره يعترف به ولاينفيه.."

ـ "واذا ظللنا مع القواعد والاسس وذهبنا خطوة أبعد، فان هناك سؤالاً حيوياً تتحتم الاجابة عليه قبل ان ننتقل من "نفي الآخر" الى "الاعتراف به" ومن ثم الحوار معه "مجاراة للعصور الحديثة واساليبها العاقلة والحضارية"!!

وهذا السؤال الحيوي يتعلق بحجم مابيننا وبين أي "آخر" من اسباب للتناقض استدعت النفي وعدم الاعتراف. ولايتعلق الامر هنا بأسباب التناقض، حسب، وانما بحجمها وطبيعتها وطاقة الاحتكاك الكامنة في الكتل المرئية وغير المرئية لها.."

(ان فكرة الحوار ـ وبعيداً عن أي تطبيق عملي علي العلاقة بين العرب واسرائيل ـ شأنها شأن كل فكرة تستحق الاحترام ليست استعراضاً لحجج في مقابل حجج وليست

هيكل "صلة وشـروط تتعلق بحقـائق الاشـياء" و"حقـائق الاشياء" في (قيمـة) أي حـوار، تتطلب (علاقة توازن) من نوع مابين عنصرين:

1- توازن من نوع مافي ((المعرفة)) بين طرفي الحوار

2- ثم توازن من نوع مافي ((القدرة)) بين طرفي الحوار.

و " الحاصل "...

انه اذا جرى لقاء بين طرف يعرف، وطرف لايعرف، فان ذلك اللقاء يصعب ان ينشيء حواراً يستحق هذا الوصف[18]

....

■ ولنبدأ من الأخير:

يجري (حسن خضر) سجالاً مع (ميناحيم برينكر) تحت عنوان ملفت:

(مابعد الصهيونية: حاضر يدعونا للقطع مع الماضي)[19]

كان (برينكر) حريصاً، عندما انتقل معه (حسن خضر) الى بيته في (الكولونيـة الالمانيـة في القـدس الغربيـة) علـى اطلاعـه علـى مجلـة (راديكاليـة) يسـارية بــدأ في اصدارها منذ عام 1977 "للدعوة الى تفاهم بين الفلسـطينيين والاسـرائيليين"، كمـا انه "كان عضواً في حركة السلام الآن" الاسـرائيلية، الـتي سـتأتي الاشـارة إليهـا في الحديث عن "وثيقة كوبنهاغن" وزيارة لطفي الخولي الى ((فلسطين المحتلة))..

(يحـاضر برينكـر في الفلسـفة والادب، ويقضـي السـنة الاكاديميـة متنقـلاً بـين الجامعة العبرية والجامعات الامريكية. ولد في القدس عـام 1935. لأب مهـاجر مـن لاتفيا، وأم يقول بأنها كانت الجيل السادس من اسـرتها في فلسـطين. وكـان جـده لأمه حاخاماً للاشكناز في فلسطين. أصدر مجموعة من الكتب منها ((تاريخ موجـز لعلم الجمال)) 1982، و((تمثيل الواقـع في الروايـة)) (1985) و ((محـاضرات حـول الحد الفاصل بين النظريتين الادبية والفلسفية)) 1995 اضافة الى كتاب عن يوسـف

---

[18] نفسه: ص8.

[19] انظر:الكرمل/نفسه/ص:25- 37:(وبرينكر في الثانية والستين يبدو مألوفاًفي مقهى كاسيت بالقدس الغربية..(شاب) يرتدي الجينز وينهمك في حديث هامس مع امرأتين كما يصفه خضر، انه احد الاكاديميين الاسرائيليين الذين فتحوا الطريق الى مفاوضات أوسلو..).

الحد الفاصل بين النظريتين الادبية والفلسفية)) 1995 اضافة الى كتاب عن يوسف حاييم برينر ـ مؤسس الرواية العبرية الحديثة ـ وآخر عن جان بول سارتر بعنوان: ((طرق الحرية)).. عَبَّر عن افكار ستعرف فيما بعد باسم ((مابعد ـ الصهيونية)) في محاضرة القاها عام 1979في مؤسسة فان لير البحثية وفي عام 1981 أعاد نشر أفكاره في مجلة فصلية عبرية، وأخيراً قامت مجلة امريكية بترجمة مقتطفات من مقالته المنشورة بالعبرية ونشرتها عام 1985بعنوان: ((نهاية الصهيونية)) وهي المقالة التي لفتت نظر المحاور السيد حسن خضر في بداية الأمر، وفكر بأنها ربما تنطوي على نقد للصهيونية!!

ويوجز الافكار التي طرحها برينكر في مقالته على النحو التالي:

ـ كان هدف الصهيونية تطبيع الحياة اليهودية، وانشاء دولة يهودية ذات سيادة تعيش فيها أغلبية اليهود.

ـ مع انشاء اسرائيل تحقق هدف الدولة ذات السيادة. وحسب تقديراته يعيش نصف يهود العالم في اسرائيل، ومع نهاية القرن ستعيش اغلبية اليهود فيها.

ـ بنى حساباته حول عدد اليهود "الفعليين" الذي يقدر عددهم بحوالي ثمانية أو تسعة ملايين استناداً الى مدى احساس الفرد بيهوديته.

ـ اسرائيل ليست وطن يهود العالم، بل وطن اليهود وغير اليهود الذين يعيشون فيها، طالما ان هؤلاء يمارسون حق التصويت ويدفعون الضرائب!

ـ اصبحت الصهيونية (عبئاً) على اسرائيل لأنها تعني البحث عن (حلول صهيونية) للمشاكل التي تواجه الدولة والمجتمع وبالقدر نفسه فقدت جاذبيتها بالنسبة ليهود (الديا سبورا)!

يقول (برينكر) بأنه يحمل (ذكريات طيبة) عن الفلسطينيين، الذين عرفهم خلال عمل والده في بلدية القدس ايام الانتداب، ومن ناحية اخرى قال بأن (اليمين) الاسرائيلي (يحاول التشكيك) في نوايا الفلسطينيين، (ومدى جدية رغبتهم في السلام)، ورغم عدم ايمانه بمحاججات اليمين، الاّ إنه (يشعر) بصعوبة الرد عليهم، احياناً، عندما يتحدثون عن (السياسة المرحلية) التي يتبعها الفلسطينيون: (ففي لحظة امتلاكهم للقوة الكافية، سيقضون مع بقية العرب، على إسرائيل)!!

يقول: في الصهيونية اتجاهات مختلفة، ربما تجد اتجاهاً يقول طالما لم نحصل على دمشق فالصهيونية لم تتحقق بعد!، لكن ذلك لايمثل اتجاه الأغلبية. (الاجماع الصهيوني) هو "خلق وطن لليهود" حيث يشكلون (الاغلبية) ويحققون (السيادة).

خلافاً لذلك قد تجد صهاينة (يطالبون بالحدود التوراتية) وتجد آخرين يقولون ان (السلام اكثر أهمية من الارض)، كان (هدف الصهيونية): (إدخال اليهود في عائلة شعوب الشرق الأوسط والحصول على اعتراف بهذا الحجم اكثر أهمية من الحصول على هذه الحدود أو تلك..(فلنقل، اذاً، ان الصهيونية كانت حلاً للمسألة اليهودية. يسأل حسن) ويجيب برينكر: (أجل)..

ـ لكن حل المسألة اليهودية خلق مسألة فلسطينية، والآن سواء أحببنا أم كرهنا، هناك ترابط بين المسألتين، واقتراح (حل) لواحدة منها سيؤدي بالضرورة الى طرح المسألة الاخرى. (السيادة) تحققت على حساب الفلسطينين (قال حسن): لو سمعت كلاماً من اسرائيلي يستشهد بالتوارة سيكون المنطق مختلفاً. سيقول لي هذه (أرض الميعاد). كان لدينا حساب في البنك قبل ألفي عام وأتينا للحصول عليه!!

ولكن من وجهة نظر علمانية (ماتقوله) لايعني شيئاً: تحققت مهمتكم على حسابنا؟

ـ انت تركز على نقطة نختلف حولها. لا اعتقد ان النص التوراتي قال برينكر هو الذي منح الشرعية لدولة اسرائيل، مامنحها الشرعية حقيقة ان اليهود عاشوا دائماً في هذا البلد. لم تمر سنة واحدة دون وجود يهود هنا. النص التوراتي لم يعد الشرعية للاختراق اليهودي لفلسطين. ما اعطاه الشرعية ان هذا الاختراق الذي توسع شيئاً فشيئاً، مع تطور الحركة السياسية الصهيونية، ثم وفق قوانين وظروف تلك الازمة بطريقة شرعية (الناس اشتروا اراضي هنا). هذا كل ما هنالك. (اشتروا اراض حسب القوانين العثمانية)

ثم حسب القوانين البريطانية. (إشتروا اراض من اشخاص كانوا على استعداد لبيعها).

اشتروها بطريقة (سلمية وقانونية) (إشترى اليهود الاراضي لبناء بيوت ليهود آخرين)!

و لم يكن في وسع أحد الاعتراض على ذلك. جرت (العملية) وفق القوانين نفسها التي اتاحت في القرن التاسع عشر لاربعمائة الف عربي القدوم من البلاد العربية والعيش هنا. وماذا فعل اولئك الناس: اشتروا اراضي حسب القوانين العثمانية، وجدوا عملاً، واشتغلوا هنا. لم يكن هناك دولة فلسطينية عام 47 ولا في عام 1917، كانت منطقة خاضعة للانتداب البريطاني، احتلها البريطانيون من الاتراك، ولا ترجع ملكيتها حسب القانون الدولي لأحد. لم يطلب الفلسطينيون في عام 1910 أو 1915 (الحكم الذاتي) من الاتراك!، ونادراً ماتحدثوا عن انفسهم كشعب متميز عن بقية الشعوب العربية. ماذا تريد اذن؟ جاء اليهود. (إشتروا أراضي بطريقة شرعية).

بسبب الحرب الاهلية في روسيا من 1917-حتى 1920 ذُبح (90) ألف يهودي وفقد (400) ألف بيوتهم، كانت تلك (موجة الهجرة) التي اتجهت الى أمريكا واوربا والى فلسطين أيضاً. بذل الصهاينة أقصى جهد ممكن لتحويل جزء من هذه الهجرة الى أرض اسرائيل. من خلال شراء الأرض ومنحها لليهود و لم يعترض أحد!!

هذه ليست التوراة. بل الفعالية الجديدة!

فكر بعض الصهاينة من الارثوذكس المتدينين ان التوارة تمنحهم ضمانة إلهية.

لم يفكر (ثيودور) هرتسل كذلك، ولا (دافيد) بن غوريون و (بيرل) كاتز نلسون [احد قادة الصهيونية العمالية وصاحب فكرة العمل العبري، رفض خطة التقسيم البريطانية عام 1947، مطالباً بكل فلسطين!!] قال الصهاينة الاشتراكيون، دائماً: (اذا أتينا سنحصل عليها، واذا لم نأت لن نحصل عليها)..

....

ـ لماذا لم يحاول العرب انشاء دولة مستقلة، إذن؟ خذوا ما اعطته لكم الامم المتحدة (التقسيم) وعززوا وضعكم!

ـ عندما قبل بن غوريون قرار التقسيم، شعر المحيطون به بالدهشة، (قالوا) كيف تقبل هذه الخطة؟ هذا على الأقل مايقوله ميخائيل بار زوهر، مؤرخ بن غوريون، وقال لهم بن غوريون: هذا ما نستطيع عمله الآن والجيل القادم. (سأل حسن)

ـ مراحل (أجاب برينكر)

ـ الجيل القادم سيكمل المشوار!، الصهاينة العمليون لم يؤمنوا كثيراً بالايديولوجيا

ـ نعم.. نعم، كانوا يتمنون ان يهاجمهم العرب

ـ صحيح

ـ كي يتمكنوا من توسيع الحدود!

ـ صحيح..

ـ لماذا دخل العرب الى المصيدة، اذا؟ (تساءل برينكر): لا اطلب من الفلسطينيين الاعتراف بالهولوكوست. ولا اطلب من الاسرائيليين الاعتراف بالخطيئة الاولى، هذا الطرح يشترط اعتراف الجانبين بخطاياهم، التي أعرفها بطريقة مختلفة. لن نصل الى حل.

ـ لماذا؟

ـ لأننا سنحقق السلام اذا مارسنا التأمل في الحاضر والمستقبل، واعترفنا ان استمرار الصراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين سيدمر الشعبين، بصرف النظر عن الظالم والعادل. (برينكر).

■ اذاً.. الخلاصة:

بصرف النظر عن الظالم والعادل.. الآن، يقيمون الحوار، و"التحالف"!

في أي زمان.. نحن؟!

في أي زمان؟

لايدري أحد في أي الأزمانِ

نحن الآن؟..

.... انهم اشتروا الارض.. انهم لم يطالبوا بحكم ذاتي.. ان لليهود وجوداً دائماً منذ الاف السنين! (هذا هو منطق الآخر اليهودي)

وفي خلفية المشهد.. يكمن سؤال الحاضر:

هل الصهيونية علمانية، أم دينية، وهل أولويتها هي ترسيخ كيان اليهود..؟

ظهر التاريخ اليهودي المؤسطر..

وادعت الصهيونية بأنها حركة قومية! وتجاهلت ان الحركات القومية تنطلق من حقيقة الاحساس القومي النابع من الوجود الموضوعي للشعب، بينما حاولت الصهيونية اثبات وجود الشعب للتدليل على وجود الاحساس القومي. مما استدعى اعادة تاريخ الطوائف اليهودية في العالم بما يخدم هذا الهدف. أي تحويل (الخصوصية الدينية) (طائفة دينية لا تنتمي الى أرض محدودة) حولوها، الى (غلالة رقيقة) تحجب (الخصوصية القومية السرمدية).

انهم جاؤا ليبقوا، ليحتلوا الأرض بالمال وبالسيف!...

إذاً، أي (سجال) بين (ميناحيم) و (حسن)!؟ (العلماني) (نصير السلام) يقول ذلك!.

إنهم يلقون الكرة على حائط أصم، أخرس.

هل يجدي (الحوار)؟.. ام تبقى الحرب، هي دائماً، ما قبل وما بعد!؟

... أم انهم يخترقون العقل، خلية، خلية! حزباً حزباً، نظاماً إثر آخر؟!

....

ـ هل نبدأ بما انتهت إليه (وثيقة كوبنهاغن)، أم نبدأ من (قبلها)؟!

المسافر ليس بعيداً.. مادام "اليهود" صهاينة بالطبع، وليس بالتطبع..

فتماماً، اثناء السير جنب الحائط، كان ثمة من يعبر النهر سباحة،

وآخرون، قفزوا الحواجز، علانية... فالتطبيع ليس هدفاً بذاته،

انه وسيلة: الهيمنة هي الهدف!.. والعولمة هي السائد.. وصراع الحضارات هو المسار.

"مناحيم برينكر " هذا، الذي يشتغل على الخط الفاصل بين الادب والفلسفة!

يدرك (الخط الفاصل) بين الفلسطيني واليهودي!! ورغم ذلك انه ينكر الجوهر الميتافيزيقي للحقوق.." فالحق بعد حرب استمرت لمدة مئة عام يحدد من جانب الفريقين!! "

■ الصهاينة، إنهم يغفلون الترابط الداخلي بين التواريخ والجغرافيات والهويات الثقافية. لا يبحثون عن مقاربة علائقية، الاّ لهوية جماعتهم..وليس لهوية الجماعات!.

هل يمكن عقد الصلات بين الجدالات المختلفة؟..وماهي البدائل، بعد تدمير البنى التحتية لانساننا؟ والخروج بمفهوم موحد لسلسة من التموضعات إزاء الواقع، ماقبل هذا الواقع، ما بعد هذا الواقع، الانحدارات، الاصول، الطموحات، الحقوق، وكل الصيانات المحرمة والهويات المعرضة للضغط؟!

انه خصام المقاربات، وليس حوارها، أو تحالفها!...

فليرسم هنري كيسنجر مايشاء من "احلام". اذا كنا بالقدرة والايمان (وهما مفهومان مثاليان) نصنع ـ وبالفعل المادي ـ معجزتنا.. فان احلام المخططين تبقى على الورق فقط..

لكنهم لايشتغلون على (الاحلام) الميتافيزيقية، انهم يوظفون الميتافيزيقيا لجهة الواقع ولجهة ماسيصير.. يخططون لعوالم، هي من صنع إرادتهم الارهابية، هي من نواتج (القتل) الجماعي للايمان والقدرة الذاتية، ليس اقليمياً، حسب، بل عالمياً، جزءاً جزءاً، ومنطقة منطقة، وشعباً شعباً، بل مللاً وأقليات وفسيفساءات.

ليس المنظور اليهودي وحده، الذي يشتغل على "تلمود" قديم، تلك اكذوبة، ان الامبريالية اشتغلت لصالح "تلمودهم" الجديد، خططهم المعلومة.. صهاينة، أو محتلين، في كل بقاع المعمورة، وحتى في بحارها وسماواتها!..

ومن الخطأ الوقوع بما يريدون لنا الوقوع به، من يأس مطبق واحباط تام، فذلك اول الطريق الى وصول غاياتهم الى مداها الأقصى...

دائماً لنحفر في كينونتنا، في موجودنا، كي نعمر به القلب..(ذلك اشبه بالرومانس) أو التمني، ولكن في الاقتصاد، كما في السياسة، وادارة الحكم، كما في

المسؤوليات، حين ندرك البعيد الذي يرمي العدو إليه شباكه منذ الآن، لابد ان نشغل تلك الفعاليات، كذلك واساساً، نفعل في الثقافة ...

الآن، هم يدفعوننا الى ماقبل العصر الصناعي، ربما يدفعوننا ايضاً الى العصر الحجري القديم، تلك نواياهم.. وهي نوايا لايتركونها على الغارب، فهم يرسمون الستراتيجية، الى القرن الثاني والعشرين.

ليس الصهاينة، فقط لاننا نتحدث عن تطبيع، واحتلال عقل.. ولكن الشعوب الكبرى ايضاً، كالصين... انهم يراهنون على دورة حضارية يمسكون، هم، بها ويسيرون العالم على وفق مصالحهم...

كانت فرنسا (تفرح) لانها استطاعت ان تجعل شعباً كان مختلفاً معها، يقرأ اشعار سان جون بيرس، بترجمة أحد ابنائه! انهم يصدرون الثقافة..وتلك فعال وعي حضاري، بدلاً من ان يصدروا لنا جنرالات القتل والعار، كما في الجزائر، أولاً..

ثم يصدرون التخريب، كما في الجزائر، تالياً..

لانهم لايريدون لنا الاستقلال التام، حتى في زمن الثورات، هم يحتفظون بالثأر منها، لأنها اخرجت الشعوب من هيمنتها، من انتدابها الطويل، أو من احتلالها الأطول.. قسموا أرضنا، وزرعوا مشاكل الحدود حتى قبل انسحابهم من قواعدهم العسكرية في ارضنا، جعلوا "التقسيم" سياسة وهدفاً.. (سايكس بيكو) ــ مثالاً ـ لانهم به، يبدأون أول مشوار اضعافنا وسرقة ثرواتنا، وعوامل قوتنا..

انه اتفاق العولمة، واتفاق المقاربات الامبريالية.. جميعاً..

ـ فهل حقاً ان الانسان يصنع التاريخ دون وعي منه!؟

ـ اين نضع افعال المستعمرين، اذاً.. الذين سعوا الى احتلال الارض، ثم احتلال العقل، ثم تفتيت البنى التحتية للانسان.. ان الانسان الذي يكتشف نفسه مشروطاً ببنيات..يعرف ان التاريخ يدلف الى البنيات، لاتاريخ بدون بنى ... وبدون تموضع مجموعات بشرية ضمن مهاده..

وهكذا..

يريد الاستعماريون ـ والصهاينة مادمنا نتحدث عن تطبيع مع أو ضد..ــ الدخول في مجالنا دائماً، بل تفعيله على وفق شروطهم..

معرفياً.. لابد من اتخاذ موقف لصالح التصور، المخيلة، وليس لصالح واقع قيدوه بمرارات، وخسارات وأوجاع مزمنة..

مفكرون، مثقفون، وقادة..في كل ميادين المعرفة والعلم والحياة، يؤسسون حصانة المستقبل، داخل بنية الحاضر، وإن بدت ((مفتتة)).ذلك وحده الذي يمضي بنا ضد مافعلوه بنا..

في العمق، ماهي مستحيلات المستقبل؟.. لابد من ايجاد الجواب، والعمل على تفعيله في الواقع..

"الزمنية" ليست قيداً، كي لانتفهم أبعادها.. لقد اشتغل الصهاينة على الزمان، جدولوه، بالخطط، ونفذوا ذلك على مراحل.. بدءاً مما قبل ((الوعد)) وليس انتهاء بالإستيطان والازاحة.. داخل المحيط العربي في القدس.

... هل يستطيع العرب، اليوم، عقد مؤتمر لمدة سنتين، اوثلاث سنوات: (مؤتمر مفتوح) يفكرون فيه ـ من خلال العلماء والاختصاصيين خارج هوى الحكومات ـ بتقديم مشروع المستقبل.. مشروع القرن الواحد والعشرين، والذي يليه، على المستويات كافة، من دراسة الموارد المادية والبشرية، الى تفعيلها.

هل يستطيعون الخروج على ولاءات المصالح الذاتية ـ القطرية ـــ الضيقة؟ هل يستطيعون لوي ذراع الغرب الامبريالي فقط بسحب ارصدتهم من بنوكه، ولو لمدة إسبوع، واستثمارها داخل بلداننا العربية؟

هل يتخلون عن عقلية "الشيخ" الآمر الناهي، الى عقلية الحر المستقل؟

هل يتخلون عن (عبودية) المنصب والتنصيب، الى فضاء الحاكم العادل؟

احلام عجز الانبياء برسالاتهم وسيوف جندهم، ومؤمنيهم، بأن يحققوها بالكمال المثالي، الذي نطرح فيه "امنياتنا" المستحيلة؟

ان الامتيازات آخذه بالزوال.. ولكن لمصلحة من؟

ذلك هو سؤال المحنة..

ان الانسان يتطور، بمعنى ما، من طرف تطور البنية ذاته..

صحيح ان التاريخ ليس هو النظام أي النسق..، لكنه حاصل أفعاله..

والصهاينة حالة اقليمية..الصراع معها لاينتهي حتى لو وقعت ملايين الاوراق المرحلية، الاّ اذا حسم الصراع مع المهيمن الأوحد.. والعولمة!..

2 ـ المواثيق

"حين يموت المؤلفُ
قد يأخذ النص بُعداً جديداً
ويتحد النهر بالنبع
تصبح كل المنافي وطناً واحداً
تختفي كتلة الثلج تحت ماء البكاء
ويصير اللقاء وداعاً
وفضاء الكتابة... سقط متاع..."

(البياتي: المراثي: 15)

....

■ الآن... لا نريد أن نقوض الحـدود بـين التواريـخ والمواقـف... فقـط نقـدم الفعل، والفعلة... الأدباء، الكتاب، حين حاصرتهم الإفتتانـات (بـالآخر) (العزيـز)، الذي يستحق الزيارة إلى عقر داره، الاعتذار له عن جرائمـه الـتي اقترفهـا، والبكـاء على حوائط ندبنا، اضطروا إلى إشهار ميثاق شرف، لأن الشرف هو ليـس المقاربـة البنيوية لقيمة كتابة، ولأخلاق مهنة، أو هوايـة، بـل مـلاذ لجوهـر الكلمـة وعنـوان التزامها... إلا لمن لا يستحي، فذاك يصنع ما يشاء...، لنقرأ معاً، قراءة صامتة ذلـك "الميثاق":

– "نحن المثقفين العرب الموقعين على هـذا الميثـاق، استشـعاراً منـا للمسـؤولية التاريخية حيال الأمة العربية لقضاياها وأجيالهـا، وللـدور الـذي ينبغـي أن تقـوم بـه، عربياً وعالمياً، وبمواجهة التحدي التي يفرضهـا علينـا العصـر، والاسـتقطاب الـدولي الوحيد الطرف، والتقـدم العلمـي والتقـني، والاسـتراتيجية الصهيونيـة – الإمبرياليـة القائمة على القوة والقهر ومحو الآخر أو فرض التبعية عليه،

نعلن...

نعلن...

نعلن وقوفنا بقوة وحزم موحدين متماسكين حول الثوابت المبدئية والتوجهات النضالية التالية:

1 – الصراع العربي الصهيوني، صراع وجود مع وجود، ولم يكن يوماً ولن يكون أبداً نزاعاً على حدود بين العرب والكيان الصهيوني الدخيل المفروض عليهم ويتحدد...

ويتحدد.. موقف المثقفين من السياسات والتيارات الفكرية الثقافية والاجتماعية في ضوء موقفها من ذلك الصراع ونظرتها إليه...

وينسحب هذا الرأي والموقف على كل أشكال التطبيع

على كل أشكال التطبيع

على كل أشكال التطبيع... مع العدو الصهيوني وكيانه في فلسطين المحتلة، وعلى دعاة التطبيع ورموزه وممارسيه المروجين له.

2 – الحرية والمساواة واحترام الحقوق والحريات العامة للمواطنين.

3 – الثقافة العربية الإسلامية...

4 – ....

5 – ....

....

إذاً.. الميثاق يدعو إلى تجذر في الأرض، حفاظ على هوية، تنمية خصوصيتنا بوعي معرفي عصري. ونمارس مثاقفة مع الآخر – باعتزاز وثقة وانفتاح – رافضين كل "قطرية" و "إقليمية" و "طائفية": تقزمنا/ أو تقسمنا!....

وصار "الميثاق" الدرس الأخلاقي للمؤتمر العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، وأفهم علناً!.. كي تبقى ثوابته، مبدئية، قيمية، قومية، نضالية،... وجعلها الأساس للمعيار الذي يحكم مواقف الأدباء والمثقفين... وتعاملهم، ويُحتكم إليه في تقويم: الأفعال والسياسات والمواقف والتوجهات والأشخاص.

– المبدعون (الأدباء، الكتاب والمثقفون المصريون)، اصدروا "وثيقة" أو "ميثاقاً" ضد... ضد... (ضد التطبيع مع العدو الصهيوني..) صاغه، د. غالي

شكري بتكليف من (فريق كبير) من أولئك المثقفين... ليصار إلى تعميمه وتوقيعه واعتماده كوثيقة ملزمة للموقعين عليها... "المجد" نشرت ذلك "السلاح الثقافي" على النص التالي:

"منذ توقيع اتفاقية غزه أريحا والعدو الإسرائيلي يكثف محاولاته للتطبيع مع الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين بمختلف تياراتهم وتلاوينهم الفكرية، ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين، نعلن عن إصرارنا على رفض كل أشكال التطبيع والتعامل مع إسرائيل.

نعلن..

نعلن...

عن إصرارنا على رفض كل أشكال التطبيع والتعامل مع إسرائيل

على رفض كل أشكال التطبيع والتعامل مع إسرائيل

انطلاقاً من عنصرية هذه الدولة الاستيطانية، وعنصرية ثقافتها، ودورها التاريخي في إشعال حروب الإبادة ضد شعوبنا العربية...

إن إسرائيل مازالت تصر على أن حدود دولتها تبدأ من النيل وتنتهي إلى الفرات، وهي مازالت تحتل الجنوب اللبناني ومرتفعات الجولان السورية، وتقمع انتفاضة الشعب الفلسطيني بوحشية، وتصر على أن القدس عاصمة أبدية لها.

ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين، استناداً إلى وعينا بمصالحنا القومية واستناداً إلى ضمائرنا الأخلاقية، نعلن عن ميثاق شرف فيما بيننا، نرفض من خلاله كل أشكال التعامل الثقافي مع الكيان الصهيوني وخصوصاً عبر الأشكال التالية:

1ً - رفض التقاء كل ذي حيثية ثقافية بصفته إسرائيلياً داخل مصر أو خارجها أو في إسرائيل.

2ً - رفض المشاركة في مؤتمرات أو حوارات عالمية يحضرها إسرائيليون وعرب فقط، وتتخذ صفة الحوار العربي الإسرائيلي.

3ً - رفض الحضور والمشاركة في مؤتمرات أو ندوات في إسرائيل.

4ً - رفض الإدلاء بأية تصريحات أو إجراء مقابلات مع الإعلام الإسرائيلي.

5ً - رفض نشر وتوزيع أعمال المبدعين المصريين داخل إسرائيل.

6ً – عدم المساهمة في مهرجانات سينمائية أو مسرحية أو فنية داخل إسرائيل، وكذلك رفض إقامة معارض تشكيلية لفنانين مصريين داخل إسرائيل.

إننا نتوقع المزيد من محاولات التطبيع الثقافي يقوم بها العدو معنا، وبطرق وأشكال عديدة، تتفرع عن الخطوط العريضة آنفة الذكر. لذلك فإن وعينا وضمائرنا ستظل جميعاً بوصلتنا الحساسة في معرفة جادة الصواب ضد التطبيع.

وعينا...

وضمائرنا..

وعينا وضمائرنا.. ستظل بوصلتنا.. الحساسة في معرفة جادة الصواب ضد التطبيع

ضد التطبيع

ضد التطبيع

والحفاظ على موقفنا العادل الإنساني والمعبر عن مصالح شعوبنا...

....

■ وفي 1994/8/19 اتخذ المؤتمر الاستثنائي لرابطة الكتاب الأردنيين، قراراته بمثابة "ميثاق شرف"...

تلتقي النقاط الست الأولى حرفياً وتتطابق، مع ميثاق شرف المثقفين المصريين: و ... تأتي بقية البنود:

7ً – تعلن رابطة الكتاب الأردنيين التزامها بالنظام الداخلي لاتحاد الكتاب والأدباء العرب وميثاق المثقفين العرب الذي صدر عن المؤتمر الثامن عشر للاتحاد الذي عقد بعمان /ديسمبر 1993.

8ً – تؤكد الرابطة رفضها أشكال التواصل بالرموز الإسرائيلية الصهيونية.

9ً – مقاطعة كل أردني أو عربي ذي صفة ثقافية يتبنى موقف التطبيع الثقافي مع إسرائيل أو الترويج له.

10ً – رفض ترجمة أو نشر أو توزيع أي أثر ثقافي إسرائيلي عنصري في الأردن بدون مقدمة من شأنها الرد على الطروحات الصهيونية العنصرية وفضحها.

11ً – رفض التعامل مع المؤسسات الإعلامية والثقافية الإسرائيلية.

12 - اعتبار الخروج على هذه المقررات إساءة إلى سمعة الرابطة... ألخ... ألخ ... ألخ... ألخ ...

■ وفي لبنان بادرت مجموعة من المثقفين إلى تشكيل "لجنة تحضيرية للمؤتمر الدائم لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني" في لبنان، حيث تلتقي أسبوعياً منذ نيسان 1993 في مقر النادي الثقافي العربي في بيروت، واللجنة ليست منغلقة على بعض المؤسسين بل يشارك في اجتماعاتها ونشاطاتها أي مثقف واع بحقيقة أبعاد الصراع الحضاري والتاريخي ضد الصهيونية. بصرف النظر عن الانتماء الفكري للأفراد.

وهذا ما عبر عنه "النداء الثقافي" الذي يشارك عشرات المثقفين في صياغته باعتباره "ميثاقاً للمثقفين" يهدف لـ "وضع استراتيجية لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني ومقاومة عمليات التطبيع التي يروج لها بعض المثقفين "الانهزاميين"... وهذا ما ظهر في "ندوة غرناطة" وغيرها من نداءات تدعو إلى "لقاء الحضارات" (وليس إلى فهم صراع الحضارات على مستوى أبعد) ولقد أوضحت "اللجنة التحضيرية" الثوابت الأساسية لأي عمل مناهض للغزو الثقافي الصهيوني، وذلك عبر المشروع الذي أعلنته في المؤتمر الصحفي الكبير في نقابة الصحافة اللبنانية بتاريخ 1993/12/1 والذي حضره حوالي 200 شخصية ثقافية وروحية وسياسية ونقابية ونيابية وبعض الشخصيات العربية، حيث جاء مع نص "البيان الصحفي" الذي حدد الأهداف والمنطلقات "ملحق" يبين المحاور الأساسية للمؤتمر الثقافي المزمع عقده في بيروت ربيع 1994،...)

(إن اللجنة التحضيرية تدعو إلى قيام "مؤتمر دائم" لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني، تنحصر مهمته الأساسية في توجيه النضال الثقافي المناهض للغزو الفكري والتطبيع، والعمل على رصد ودراسة انعكاسات ذلك على حاضرنا ومستقبلنا وتطورنا وهويتنا الحضارية. وبالتالي مناهضة فكر وثقافة التسوية والتطبيع...)

تلك وقائع، لا نريد من نشرها إحباط القارئ كونها لم تحقق شيئاً فعلياً يوقف الزحف التطبيعي، ولا العدوان!

■ وجاء في "النداء الثقافي":

- إن الحركة الصهيونية، بدعم من الدول الغربية، تمكنت من إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، كخطوة أولى في تحقيق مشروعها التوسعي العنصري. ولتكون ركيزة لفرض استراتيجية الهيمنة الغربية، ومنع قيام أية نهضة عربية.

- إن إلغاء قرار الأمم المتحدة رقم 3379 الذي يعتبر الصهيونية "شكلاً من أشكال العنصرية" في ظل ما يسمى بـ "النظام العالمي الجديد" لن يغيّر أبداً من الطبيعة العنصرية لهذا العدو.

- إن التطبيع، كان ولا يزال هدفاً رئيسياً للعدو، فهو يكرس "شرعية" اغتصابه لأرضنا العربية، ويساهم في كسر حاجز العداء الوطني والقومي. ويؤمن له ما عجز عن تحقيقه بقوة العدوان، ويوفر له عوامل الازدهار والتوسع والهيمنة على محيطه، كما أن أكبر خطر من التطبيع سيصيب لبنان أكثر من أي بلد عربي آخر، فالصهاينة يشكلون تهديداً مباشراً لتماسك البنية الاجتماعية والاقتصادية والوطنية للبنان. ويطمحون إلى انتزاع دوره في المنطقة العربية.

- لقد دخلت الدول العربية المفاوضات مع الدولة، وهي في أشد حالات الضعف والتفكك وعدم التضامن، سعياً وراء "سلام" مزعوم مع دولة يشكل مجرد وجودها ودورها الاستيطاني العدواني النقيض للسلام الحقيقي.

- إن الصهاينة وهم يتكلمون عن "السلام" يحضرون للحرب، والتطبيع جزء منها، وهو ما يشكل خطراً داهماً على وجودنا وحضارتنا وتاريخنا وثقافتنا ومعتقداتنا وثرواتنا ووحدتنا.

إننا إزاء هذه المرحلة الجديدة من الصراع، نرى:

- ان صراعنا مع العدو الصهيوني صراع حضاري شامل: صراع وجود ومصير (كيف؟ يبقى الجواب معلقاً).

- ان المفاهيم الصهيونية العنصرية المتجذرة في التعاليم التوراتية والتلمودية التي تميز بين الشعوب والأمم، وتدعي أن اليهود شعب واحد على أساس عرقي ومتميز بمواهب متفوقة (شعب الله المختار)، هي مفاهيم متناقضة مع مسار التطور الاجتماعي والإنساني ولحقوق الإنسان الأساسية، كما أن لها نتائج خطيرة باستثارة

كل أشكال العصبيات اللاعقلانية. (ما هو السبيل إلى مقاومتها وتفنيدها؟ ذلك هو المهم...)

– ان سابقة قيام دولة العدو على أساس عنصري وادعاء ديني، هي دعوة للتفتيت القومي وقيام دويلات على أسس طائفية ومذهبية. (ذلك إقرار واقع حال... ما البديل؟)

– ان التعايش والتطبيع مع عدو يجسد المفاهيم العنصرية في مسيرته وسلوكه، يقيد تربيتنا وتنشئتنا لأجيالنا بدون تحصين حقيقي.. ويجعل مجتمعاتنا عرضة للاختراق والاستلاب الثقافي والارتهان والتبعية، ويسهل للعدو استكمال مشروعه ضد بلادنا و .... إذاً: ماذا نفعل؟ هل نستمر بإصدار البيانات الثقافية، تعريفاً بالماء، كما تقول الحكاية: إنه الماء!)

– ان مناهضة التطبيع مع المفاهيم والقيم الصهيونية العنصرية لا تخضع لأية ايديولوجيات أو مواقف مسبقة، بل هي دفاع مشروع عن الذات والثقافة العربية، والهوية الوطنية والقومية والقيم الإنسانية والدينية، وهي مهمة ثقافية وشعبية لبنانية وعربية وعالمية..)

– ان المناهضة الفعالة للغزو الثقافي الصهيوني تتطلب احترام الحريات العامة والحقوق السياسية للمواطنين، وتعدد الآراء، وإطلاق حرية الكلمة والتعبير والبحث العلمي، لكي تأخذ عملية التوعية ابعادها الكاملة...).. (إذاً هذا البند وحده، حدد (مهمة) معينة، لكن كي تأخذ (عملية التوعية بعدها الكامل، لابد من خطة عمل، وتنفيذ... نحن دائماً، للأسف، نتمنى، ولكن الفعل قليل وشحيح وشاحب).

– وانطلاقا من ذلك كله... (يستمر البيان):

– ارتأت جهة "هذا" البيان.. دعوة المثقفين، الذين يشاركونها قناعاتهم، على اختلاف اتجاهاتهم، إلى مؤتمر ثقافي عام يسمى "المؤتمر الدائم لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني" تنبثق عنه لجان متخصصة لمتابعة مختلف أشكال التغلغل الصهيوني... الخ (بيروت 1993)... أليس المطلوب (لمجابهة)؟ بدل (لمتابعة)!

– وبعد خمسة أشهر أو أكثر.. من عمل اللجنة التحضيرية، (بات من الضروري) – كما أعلنت – "تحديد منهجية وأسلوب وخطوات العمل، وصولاً

إلى عقد المؤتمر العام" وأصدرت ورقة حددت فيها "الهوية والدور الثقافي"... وأكدت هذه اللجنة التحضيرية أنها "لا تصادر باسم "المرجعية" أو الأسبقية في المبادرة، أو سواها، حق مختلف الكتاب والمثقفين والهيئات في مناهضة النشاط والفكر الصهيوني، كل من منطلقاته التي يؤمن بها." ثم أصدرت "اللجنة" مقترحات بعناوين محاور عمل المؤتمر الثقافي الدائم، من بينها:

1 – محور: "انعكاسات الاعتراف والتطبيع الصهيوني في لبنان".

– مخاطر الاعتراف والتطبيع الصهيوني على وحدة لبنان الوطنية.

– ومخاطره على الثقافة الوطنية والقومية، وعلى التربية والتعليم ثم الأطماع الصهيونية في الأرض والمياه، وتهديدات الاستيطان ومخاطر التوطين.

2 – ثم محور آخر حول مخاطر التطبيع والاعتراف عربياً، كمخاطر التعايش مع الصهيونية العنصرية، ومخاطر التطبيع على التراث والتربية والفنون... وتزوير حقائق التاريخ العربي، وحقوق الإنسان،...

3 – أما المحور الثالث فتناول مخاطر الاعتراف والتطبيع على الصعيد الاقتصادي العربي في قطاعات التنمية، والثروة المائية العربية، والصناعة والزراعة والخدمات والبيئة.

4 – وفي المحور الرابع، مخاطر الاعتراف والتطبيع على الصعيد السياسي، كالتسوية والحقوق القومية التاريخية، والمفهوم الصهيوني للسلام مع الدول العربية، وفرض التطبيع والحريات الديمقراطية...

– وقد توقفت اللجنة التحضيرية أمام المستجدات الناجمة (عن المفاوضات اللامبدئية) مع العدو الصهيوني التي نجم عنها اتفاق غزة – أريحا، وأصدرت بياناً حول ذلك.

كما أصدرت بياناً حول "ندوة غرناطة" التي انعقدت بإشراف وتمويل منظمة اليونسكو في 9 كانون أول 1993 تحت عنوان "لننتقل من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلام"، والتي دارت النقاشات فيها حول أهمية اتفاق غزة – أريحا كمدخل لثقافة "السلام" المزعوم.

وقد حضر افتتاح الندوة كل من شمعون بيريز وياسر عرفات، وشارك فيها من الكتاب الفلسطينيين: اميل حبيبي و د. بشارة عزمي والشاعر المتوكل طه، ومن الكتاب العرب: الطاهر بن جلون (من المغرب) و د. علي فرجاتي (من تونس)، ولطفي الخولي ومحمد سيد أحمد وبهجت النادي وعادل رفعت (من مصر) وأدونيس (ملحق "أخبار الأدب" القاهرة 1994/1/12)، كما أيد أمين معلوف هذا "الحوار".

وهكذا رأت اللجنة أن ما جرى هو (محاولة لإضفاء طابع ثقافي مزيف على اتفاقيات الاعتراف والاستسلام والتطبيع وتسويقها عربياً وعالمياً.

(إن اتجاه بعض المثقفين العرب إلى مستوى تبرير الاتفاقات السياسية الاستسلامية مع العدو الصهيوني الاستيطاني العنصري من شأنه أن يحط من القيمة الحضارية والمعنوية الأخلاقية للثقافة، ودورها في الدفاع عن القيم الإنسانية الأساسية..

إننا نرى – أكد البيان الثقافي حول ندوة غرناطة – في هذا اللقاء "محاولة لاختراق الجبهة الثقافية العربية المناهضة للاعتراف والتطبيع، وذلك تحت ستار: "البحث عن أرض مشتركة للحوار" أو "الانتقال إلى ثقافة السلام" أو "حوار الثقافات"..

وقد نبه البيان. أو لفت أنظار وزراء الثقافة العرب، (إلى مخاطر هذه النشاطات والشعارات التي تستهدف تطبيع العلاقات بين العرب والعدو الصهيوني).

(إن مثل هذه اللقاءات والحوارات التي تكررت بين مثقفين عرب وصهاينة تتعارض مع كل ما ورد في تاريخ وأدبيات ومؤتمرات ومواقف المثقفين والكتاب العرب من تمسكهم بالحقوق القومية والثوابت والمبادئ والقيم القومية والإنسانية، والأسس العلمية، حيث أن ثقافة السلام الحقيقي لا تكون مع الغزاة الغاصبين الصهاينة أعداء السلام، وأن الواجب الرئيسي للمثقفين العرب، في هذه المرحلة، يكون في توضيح مخاطر التعايش والتطبيع مع الفكر والوجود العنصري الصهيوني على وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا..) (بيروت في 1994/1/19).

كما أصدرت اللجنة في بيروت 1994/2/27 بياناً أدانت فيه المجزرة الصهيونية في الحرم الإبراهيمي/ ونبهت أيضاً، كافة المثقفين والقوى الحية في بلادنا "للمخاطر المتعددة التي ستنجم عن التسوية والاعتراف والتطبيع مع العدو الصهيوني".

نبهت، توقفت، رأت...، هكذا هي متوالية (أفعال البيانات)، للأسف، ولكن أفعال السلوك، تبقى (على الورق)، وحده. مع أن رفض المثقفين المصريين مثلاً مشاركة إسرائيل بجناح في معرض الكتاب السنوي بالقاهرة، والتظاهرات التي خرج فيها فنانون لامعون وأدباء وصحفيون... أيقظت فعلاً جماهيرياً رافضاً.. وعززته.

إن الآلية التقليدية التي تشتغل عليها الفعاليات السياسية والثقافية في الوطن العربي متخلفة، ودائماً لاهثة وراء الأحداث، وليست سباقة، ومبادرة.

إن شحذ "الهمم" ورقياً، لا يوازي فعل (حجارة) حقيقية تصيب (العدو) لتعيده، سنتيمتراً واحداً إلى الوراء.

لو كانت كلمات المثقفين تحولت إلى حجارة، حقيقية، لدفعت بالعدو خارج الأرض التي احتلها، أو (اشتراها) عنوة! - كما يدعون - أو سجلها - مقتطعة، من اقطاعات الحكم العثماني المحتل، والانتداب "البريطاني" المحتل أيضاً!

هجوم دائم ضد معطيات هذا الزمن!

ذلك هو التجاوز...

إنه خارج النزعة الوضعية، الجامدة،.. خارج تجميد طاقة الثورة لدى الإنسان، وبالتالي فإن أفعال التجاوز تتشكل عبر الإنسان ذاته، وفعاله الملموسة...

إنني، هنا لا أستهين بالمواثيق، والبيانات الثقافية، ولا بشرف نواياها، ونوايا منتجيها، لكننا، حين نفعل (الفعل الثقافي) ونجعله فعلاً اجتماعياً يومياً، وسلوكاً نبيلاً، وأخلاقياً، ضد التطبيع، ضد محاولات احتلال الأرض، والعقل، يكون للكلمة قوتها المادية، فاعليتها، وبالتالي، شرفها حين تتحول - في التفاعل مع إرادة الإنسان ـ إلى (فعل) مقاوم... تسهم في بناء هذه الصلادة من الإيمان...، إنها تنفي الوقائع، ولا تجعلها "أمراً واقعاً" معترفاً بعد، ومقونن.

حضوة المثقفين، حقيقة، تكمن في انتمائهم لأفعال.. وليس لأقوال!

إن التخلي عن الفعل، هو تخلٍ عن فهم الانتقال خطوة على طريق المنجز.. وإذ تظل أفكارنا، في حيز المواثيق، ورقاً وحبراً وتمنيات، نفضل أن نتركها تموت. لأنها تموت بالفعل، بموت النص حين يفقد فاعليته الحياتية على الأرض..

نحن نحتاج، ونحتاج أبداً، إلى إنتاج الفعل، وليس إنتاج الحلم وشرنقته في وثيقة. لذا، لا غرابة أن تحصل تلك القطيعة بين الوثيقة والسلوك، حين يتحول بعض الموقعين أو المنتمين إلى جهة الوثيقة، إلى مضاد حالاتهم الأولى، من طرف قصي يتحولون إلى الطرف الآخر، المضاد...

ولو كنا كسبنا أناساً، من الطرف المضاد إلى مضاد التطبيع... لاجترحنا إنجازاً حقيقياً، لأنه فعل ملموس.

دائماً هناك نظري، وهناك تطبيقي... إذا تمت القطيعة بينهما تتم إزاحة المعنى والهدف،.. تدفع الحالة إلى الصفر في درجة المعنى، والقيمة.

هذا الحال، شامل للأسف، ينسحب على الخطاب السياسي، أيضاً... ويباعد بين (التنظيم) وجدواه: التنظيم هنا، ليس بالضرورة: الخلية السياسية، بل الخلية الثقافية الفاعلة في المعطى.

مواثيق، إذاً، لم تجد - كما يجب - واقعها بالممارسة، أو ممارستها بالواقع. فظلت خطاباً وثائقياً نبيلاً، وحسب.

3 ـ غرناطة:

"إن موتهم يكفينا..."

(ايلوار: الأغبياء الأشرار)

■ قال أدونيس.. في نص الكلمة التي ألقاها في لقاء غرناطة:

"تنتمي إسرائيل، جغرافياً، إلى منطقة من العالم تقوم ثقافتها، أساسياً، على التمازج والتنوع، منذ السومريين والكنعانيين والفراعنة. إنها ثقافة تركيبية، تبنت المسيحية هذا الاتجاه، فكان لها بُعد ثقافي يتجاوز خصوصيتها الدينية. بحصر المعنى.

وجاء بعدها الإسلام فحقق الأمر نفسه: كان عالماً ثقافياً إلى جانب كونه عالماً دينياً. السؤال الذي يجب أن يطرح على إسرائيل، في هذا الإطار، وبخاصة في إطار "السلام وما بعده" هو التالي:

هل ستعطي إسرائيل لليهودية بعداً ثقافياً يتطابق مع انتمائها الجغرافي، ومع خصائص التمازج والتنوع في ثقافة المنطقة التي تنتمي إليها؟

فنرى فيها، مثلاً، زواجاً مختلطاً، وتعليماً مفتوحاً.

ونرى فيها، مثلاً آخر، وزيراً مسيحياً أو مسلماً، لا بوصفه يمثل أقلية، بل بوصفه يمثل إسرائيل كلها. كما كان الشأن في التاريخ العربي - الإسلامي، بالنسبة إلى اليهودي والمسيحي، وكما هو الشأن حالياً، في المملكة المغربية.

يرتبط هذا السؤال، عُمقياً، بمسألتي السلام والهوية. فدون هذا التمازج، سيبقى السلام، إذا حدث، قائماً على هويات مغلقة ومتنافية، سيبقى سطحياً، ومن خارج، وسوف يظل المكبوت التاريخي في الذاكرتين - العربية واليهودية، قوي الحضور، وفعالاً. وتتمثل نواة هاتين الذاكرتين في قبليات دينية تنطوي على نظرة لا تقر، بالآخر، إلا بوصفه غريباً، أو إلا إذا كان مستتبعًا. وفي هذا ما يجعل الهوية، هوية الذات وهوية الآخر ملتبسة.

ولا يحدث حوار عميق، أو سلام حقيقي بين هويتين، لا ترى كل منهما إلى الأخرى، إلاّ بوصفها ملتبسة ولا تكتسب الذات فرادتها، إلا وجهاً لوجه مع آخر تعترف بآخريته وباختلافه. إلغاء الآخر هو إلغاء الذات.

هكذا يستلزم السلام، على المستوى الثقافي، إعادة ابتكار الأفكار والمفهومات، حتى الهوية ذاتها لا تعود في هذا الإطار، معطاة، وإنما تصبح سؤالاً وبحثاً، تصبح بتعبير آخر، انتظاراً متواصلاً. [جريدة الرأي/ عمان / 4/29/ 1994]

....

تلك وثيقة شاعر يعرف كيف يحدد أبعاد موقفه.. وللأسف حتى ردود الأفعال، كانت قاصرة، وشاحبة، حتى فيما يتعلق بفصله من اتحاد الكتاب العرب بدمشق.. كأنه - كأن هذا الفصل، هو الإزاحة المتمناة، بدلاً من إزاحة الفعل الأقوى المهيمن، إسرائيل، أو الاحتلال، وجدنا "الضحية".

الملتبسة....

هكذا ....

■ وقال لطفي الخولي:

"نظمت اليونسكو في غرناطة في الفترة من الثامن إلى العاشر من كانون الأول – ديسمبر1993 (لقاء عالمياً) بين عدد من المفكرين والكتاب والفنانين والعلماء، تحت شعار:

"السلام وما بعد السلام"... المقصود بالسلام، هنا، هو الاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي حول إعلان المبادئ، والمعروف سياسياً باسم "غزة – أريحا أولاً" والذي جرى التوقيع عليه في واشنطن في الثالث عشر من أيلول سبتمبر الماضي.

وعلى الرغم من الاختلاف والتباين بين المدارس الفكرية للمشاركين في اللقاء، وتقييمهم لهذا الحدث وآثاره الراهنة والمستقبلية، فقد كان هناك شبه إجماع على أن الاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي يمثل بداية صعبة وهشة في آن واحد، لفك عقدة الصراع العربي الإسرائيلي الدفينة، أو على الأقل بفتح ثغرة في جدار العنف الدموي بمنطقتي الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط الاستراتيجيتين نحو ما يمكن أن يسمى بتجربة التعايش السلمي بين العرب والإسرائيليين بعد ما يقرب من نصف قرن من الحروب والصدام اليومي المروع بين الشعب الفلسطيني وقوات الاحتلال الإسرائيلي.

من هنا كان السلام الذي يعد به الاتفاق – في مفهوم اليونسكو الذي عبر عنه مديرها فريدريكو مايور، يتجاوز أطراف الصراع المباشرين وشعوب المنطقة، إلى العالم كله بحضاراته وثقافاته وأديانه وواقعه المتغير، ويصبح بالتالي، من مسؤولية المثقفين والمبدعين في هذا العالم، أن يتحاوروا حول دورهم في تأمين زراعة هذه الشتلة السلامية الصغيرة في التربة الغرقى بالدماء والشكوك والقلق، وتوفير المناخ الثقافي الصحي لها في الحال والمستقبل.

لم يكن لهذا اللقاء الدولي من معنى أو مبرر، إذا جرى من دون مشاركة الفلسطينيين وبخاصة العرب عامة، وكذلك الإسرائيليين.

وأحسب، أنه في هذه النقطة كانت المشكلة، وبالذات من الجانب العربي - الفلسطيني، ذلك ان هناك تيارات عربية - فلسطينية ذات وزن تعارض الاتفاق وتعتبر أنه فعل "ضد" السلام، لا "مع" السلام، وحتى بالنسبة لمن رحبوا بالاتفاق، على أنه خطوة متواضعة، ولكن لها أهميتها غير المسبوقة في تاريخ الصراع نحو وضع سلامي للصراع، فإنه يظل مجرد "كلام على الورق" لم يترجم بعد إلى حقائق على الأرض، وأن هذه الترجمة تلقى مقاومة متفاوتة، ليس فقط من المستوطنين والليكود وغيرهم من قوى المعارضة الإسرائيلية، ولكن أيضاً وان بطرق أخرى من حكومة اسحق رابين التي وقعت على الاتفاق.

ولعل هذا ما وضع الذين وجهت إليهم اليونسكو، من العرب والفلسطينيين، الدعوة للمشاركة بلقاء غرناطة، في موقع صعب وبخاصة أن لكل منهم قيوده ومحاذيره الذاتية والموضوعية، الوطنية والقومية.

لا أملك هذا الحق في الحديث عن أسباب ودوافع غيري من الزملاء العرب والفلسطينيين الذين تجاوزوا هذا "الموقف الصعب" وشاركوا في اللقاء، ولهذا أقصر الحديث عن نفسي:

كنت دائماً منتمياً إلى التيار المصري بآفاقه العربية القومية، الذي يرفض الحوار، حتى على المستوى الثقافي مع العدو، وحتى بعد أن أبرمت اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية الإسرائيلية اللتين عارضتهما منذ أواخر السبعينات. وكنا نرى أن مثل هذا الحوار يندرج في إطار التطبيع بين مصر وإسرائيل وهو ما التزمنا بمقاومته حتى تقوم إسرائيل بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطيني وتعترف بحق هذا الشعب في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، وتجلو عن الأرض العربية المحتلة.

وأود أن أقر بأنني لم أكن مرتاحاً عقلياً لهذا الموقف المطلق من الحوار مع العدو، وحاولت أكثر من مرة أن أقنع زملائي بضرورة التمييز بين الحوار السياسي لمؤسسات وأحزاب سياسية عربية وإسرائيلية وبين الحوار الثقافي بين المفكرين والكتاب والفنانين العرب والإسرائيليين، ولكنني لم أوفق.

ولقد قادنا هذا الموقف المطلق ضد الحوار دون تمييز واعتباره نوعاً من تطبيع العلاقات مع العدو إلى مآزق عبثية، نجد فيها أنفسنا مشلولين حتى عن مجرد التواصل والحوار مع أشقائنا الفلسطينيين في الأرض المحتلة..."

ويدرج لطفي الخولي أمثلة، بوصفه "الأمين العام للجنة المصرية الوطنية لدعم الانتفاضة" التي تكونت في كانون الثاني - يناير - 1988 من جميع أحزاب المعارضة والحزب الحاكم والنقابات المهنية والعمالية، والهيئات الثقافية والاجتماعية...

حيث تلقت هذه اللجنة (دعوة) من القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة عن طريق هيئات علنية في الأرض المحتلة لقيام وفد يمثل فعاليات الشعب المصري بزيارة الأرض المحتلة وعقد اجتماعات شعبية لدعم الانتفاضة والتعرف على واقعها ومشاكلها.

وكيف عارض هذه الدعوة حين طرحها الخولي على مكتب أمانة اللجنة، وذلك على أساس أن تلبيتها تعني التطبيع مع العدو، حيث أنه لا مفر من الحصول على "فيزا" دخول من السفارة الإسرائيلية، والمرور إلى الأراضي المحتلة من خلال بوابات العدو من مطار وطرق ونقاط تفتيش...

ولقد تكررت الدعوة (بإلحاح) بعد ذلك، ثلاث مرات، وكانت في صياغات مختلفة (يمكن أن تكون مقبولة) مثل (صياغة وفد من أساتذة الجامعات المصرية، في مواجهة قيام سلطات الاحتلال بإغلاق الجامعات والمدارس الفلسطينية، أو وفد من الكتاب والصحافيين ورجال التلفزيون المصريين من أجل متابعة ميدانية لمعركة الانتفاضة مع القمع الإسرائيلي، أو وفد من جمعيات المرأة المصرية... ولكن هذا (الموقف) المطلق الصمت الذي سجنا أنفسنا فيه - كما يقول الخولي - "منعنا من تلبية نداء الانتفاضة".

كما تلقى الخولي دعوة - بعد مؤتمر مدريد - من أميل حبيبي، بأن "ينظم في القدس العربية أو في نابلس أو غزة أو القاهرة لقاء بين المفكرين والكتاب المصريين والإسرائيليين على قاعدة حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته الوطنية المستقلة جنباً إلى جنب مع إسرائيل، ومشروعية الانتفاضة ضد القمع

الإسرائيلي وإدانة احتلال الأرض العربية.." ولكن هذا الاقتراح "اصطدم بموقف الرفض المطلق الذي تقوقعنا داخله" – حسب تعبير الخولي.

ويعقب: "وجاهرت - وقتها ونحن نعتذر عن الاستجابة لاقتراح اميل حبيبي - أن هذا الموقف المطلق من الحوار مع العدو كان وما يزال خاطئاً، لذلك أنه يعزلنا ليس فقط عن القوى الديمقراطية والسلامية المعادية للاحتلال النامية في الساحة الإسرائيلية وعن حاجات ومطالب شعبنا الفلسطيني في الوقت نفسه. وأنه بمجرد الوصول إلى اتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية على مبادئ للتسوية السياسية فإني أعتبر أن البوابة المغلقة قد انفتحت للحوار مع المفكرين والكتاب والمثقفين الإسرائيليين حيث يصبح هذا الحوار ضرورة للالتحام العضوي مع الشعب الفلسطيني ومثقفيه في سبيكة واحدة إزاء إسرائيل، بوجهيها: الاحتلالي الذي نرفضه ونقاومه، والسلامي الديمقراطي الذي علينا أن نتفهمه ويتفهمنا في موقف مشترك".

"انطلاقاً من ذلك" – (من هذه الخلفية قبلت دعوة اليونسكو للمشاركة في لقاء غرناطة، ووجدت بذلك أول تجربة في الحوار المباشر مع المفكرين والكتاب والفنانين والعلماء الإسرائيليين".

"في تقديري أن التجربة كانت مثيرة وإيجابية معاً، ولعل الأمانة تحتم عليَّ أن أقرر أني شعرت بالأسف لعدم قبولنا إجراء مثل هذا الحوار الثقافي من قبل، حيث كان في قدرتنا – على ما أرجحه بقوة بناء رأي عام ثقافي عربي فلسطيني – يهودي إسرائيلي – عالمي، ضد كل أشكال العنصرية والاحتلال ومصادرة حقوق الشعوب وحقوق الإنسان".

ماذا وكيف قاد شعور لطفي الخولي، بالأسف، وإلى أين؟

إن لقاء كوبنهاغن، وخلفياته، يعطي الإجابة الموضوعية.

فهل استطاع الخولي، بعد أن أصبح "الأمين العام" لما يسمى بـ "التحالف الدولي من أجل السلام العربي – الإسرائيلي" بعد أن كان "الأمين العام للجنة المصرية لدعم الانتفاضة الفلسطينية" أن يحد من الأشكال العنصرية الإسرائيلية، وان يوقف اندفاعها في مصادرة حقوق الشعوب، وحقوق الإنسان؟!

الواقع... يكذب ذلك، بالوقائع....

فلنذهب، معاً، إلى كوبنهاغن...، اجتماعات، ووثيقة، ومواقف... وليتبين الخيط الأبيض من العقل الأسود!.

....

ولكن قبل ذلك، ما دمنا، بعد. على ضفاف "غرناطة" لنتبين أبعاد (الضجة) حول فصل (أدونيس) من اتحاد الكتاب العرب... كي تتكامل الصورة مع استقالة لطفي الخولي من حزب (التجمع).. (ليتفرغ) كلياً إلى "التحالف"

"و... لنحرق مدناً أخرى

حتى نبلغ سور الصين!"

....

... هنا، وضعنا "كلمتي" أدونيس والخولي، ليس تأكيداً على مفاهيمهما، ولكن لننظر بموضوعية إليها، كما لننظر بعجزنا إزاء الفعال التي توغلا بها... ومن ورائهما، اشتغال أذكى وأكثر خبرة، وأغنى تمويلاً، لجعل "التحول" مساراً، وسلوكاً، وتحركاً، واختراقاً... وهذا ما لم تفعله كل المواثيق والوثائق والبيانات التي أصدرتها جهة (مقاومة) التطبيع، للأسف!

■ الضجة:

السؤال:... هل يكفي هذا الرد، فعلاً للتغيير؟.. مع ذلك لنقرأ مقالة (الضجة) بأناة:

■ أوضح (هاني مندس) المنسق العام للمؤتمر الدائم لمناهضة الغزو الثقافي الصهيوني في لبنان: ان "الضجة التي أثارها قرار فصل أدونيس في بعض الصحف والمجلات اللبنانية وغيرها تحتاج إلى توضيح أبعادها ومراميها على صعيد الواقعة: (لننتبه إلى المعنى: توضيح الأبعاد والمرامي وليس مقاومتها).

– القرار اتخذه اتحاد الكتاب العرب في مؤتمره السنوي بأغلبية 90 صوتاً ورفض 15 صوتاً. وتريث 20 صوتاً "للدراسة المسألة" (لم نبحث بمسوغات هذا التريث كونه يشكل تياراً: لماذا؟).

- وتم فصل الشاعر أدونيس والكاتب هشام الدجاني بسبب موقفهما الداعي إلى الاعتراف بالعدو الصهيوني وتطبيع العلاقات معه، ولخروجهما عن ميثاق المثقفين العرب الذي أقر في عمان 1993 في المؤتمر الثامن عشر لاتحاد الأدباء والكتاب العرب، ولخروجهما عن النظام الداخلي لاتحاد الكتاب العرب في سوريا الذي ينص على "إزالة عضوية" من يخالف أهداف الاتحاد لجهة الاعتراف بالعدو الصهيوني والتعامل معه. (ولم يفصل لطفي الخولي لاحقاً وجماعته!)

- القرار موجه نحو الموقف السياسي لكل من أدونيس وهشام الدجاني وليس ضد أدبهما وكتاباتهما... وهو "لا يعني أن أدونيس ليس كاتباً مهماً، بل يعني أنه اختلف مع "ميثاق المثقفين العرب" ومع النظام الداخلي للاتحاد، - ويضيف د. علي عقله عرسان - "نرفض في الاتحاد الاعتراف بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها، وكل من يخالف ذلك يكون خارج المؤسسة وسنبقى على موقفنا رافضين للتطبيع مع العدو الصهيوني حتى لو اعترفت جميع الدول العربية بإسرائيل وطبعت العلاقات معها. سنتوجه من حصن الثقافة إلى أمتنا وأجيالنا، ندعو للمحافظة على الثوابت المبدئية والأخلاقية للأمة وللتمسك بحقوقها وكرامتها، إن اتحاد الكتاب العرب أكبر من أي فرد فيه"

- السؤال المطروح هنا، ألا يحق لأي نقابة أو جمعية أو نادي - حسب النظام الداخلي، وتبعاً للأعراف الديمقراطية المتبعة - تجميد أو فصل أو طرد أي عضو يخالف النظام الداخلي، الذي على أساسه تتم قبول العضوية؟ ثم ان القرار اتخذ في المؤتمر السنوي للاتحاد وأيده معظم الأعضاء. (لنلاحظ أيضاً: لغة التبرير، وكأنها اعتذار عما حدث).

- فلماذا كل هذه الضجة ولماذا التركيز على فصل أدونيس وإهمال فصل زميله الآخر: الدجاني؟ لماذا لم تثر الضجة ضد النقابات المصرية المختلفة "الاطباء والمحامون، المهندسون والفنانون، الخ..." حين اتخذت إجراءات صارمة من بينها الفصل والتشهير بحق بعض الأعضاء، كذلك إجراءات الكنيسة القبطية المصرية بحق 40 مواطناً، زاروا الكيان الصهيوني أو التقوا بصهاينة، أو روجوا للاعتراف والتعامل مع العدو الصهيوني؟!

ولماذا لم تثر الضجة حين قررت نقابة المحامين الأردنيين فصل خمسة من أعضائها في الضفة الغربية المحتلة في كانون الثاني 1995 "لأنهم تعاملوا مع ضابط العدلية الإسرائيلي" كما تدرس هذه النقابة – درست – قضية "فصل المحامين الأعضاء في مجلس النواب (الأردني) الذين شاركوا في المصادقة على المعاهدة، وحالياً – أنذاك – "تنظر – نظرت – رابطة الكتاب الأردنيين في قضية فصل عشرة من أعضائها لاتهامهم بنشاطات تطبيعية"؟

كما أن (12) نقابة مهنية في الأردن تمثل (80 ألف) عضو ترفض الاعتراف بالعدو الصهيوني وتطبيع العلاقات معه، وتشترط ذلك على أعضائها، وتتخذ الإجراءات بحق الأعضاء المخالفين. وكما أكد كمال ناصر نقيب المحامين الأردنيين "بأننا لن نسمح بأي اتصال مع الإسرائيليين على رغم معاهدة السلام التي أبرمتها المملكة مع الدولة العبرية.

إن الدولة تستطيع أن تعمل ما تشاء لكنها لا تستطيع أن تتدخل في نفوس الناس وإقناعهم بأن العدو "الإسرائيلي" يسلك سلوك الصديق".

فلماذا التركيز على قرار اتحاد الكتاب العرب في سوريا وتصويره كأنه "النشاز" وليس "القاعدة" وماذا يخفي ذلك من خلفيات مختلفة؟

لماذا ضاقت الديمقراطية؟

لقد حاول بعض الكتاب تصوير مواقفهم ضد قرارات فصل الشاعر أدونيس، بأنه دفاع عن "جوهر الثقافة" والديمقراطية... ورفضاً "للانجرار وراء الشعارات الجاهزة" (إلياس خوري، ملحق النهار 1995/2/4)

وان "معاقبة أصحاب الرأي المخالف" هو "قمع للحرية" أو "اعتداء" يجب "شجبه" (سهيل إدريس/ ملحق النهار 1995/2/18) أو نوع من "تهمة الارتداد والتكفير" مستمدة من "النظام وثقافته" (عباس بيضون /ملحق النهار 1995/2/18) و "غزوة بدوية... لا تدل على حكمة القرار" لكون أدونيس يرتبط "بالحداثة" (أحمد بزوز/ السفير 1995/2/10)، وأن "العودة" إلى "التحريم" "عملية قمعية" و "إلغاء" و سفح للدم ورفض لوجهة النظر الأخرى (جهاد الزين/ السفير 1995/2/7) ويصل الأمر إلى حد اعتبار قرار فصل أدونيس "قاتلاً" و "انتصاراً

للإرهاب" وإلى حد الطرافة حين يُذكر د. سماح إدريس، عرسان بالتزام القيادة السورية "بالسلام العادل والشامل" وأنه "خيار سوريا ولبنان الستراتيجي" هذا "السلام" الذي تعثر بسبب عنجهية العدو! لكن التطبيع هو "تحصيل حاصل بعد توقيع اتفاق السلام" (نقلاً عن الكاتب هشام الدجاني) ومعاهدة السلام ستقود إلى "معاهدات أخرى في مجالات متعددة" وتحت عنوان واحد كريه وبغيض هو التطبيع" شئنا أم أبينا، وبدلاً من تقدير الموقف المبدئي لاتحاد الكتاب العرب في سوريا "الرافض للتطبيع" حتى لو تم توقيع معاهدات السلام، فهو يتهمه بتبرير التفاوض والتكتكة للسياسيين "وبالتشدد ضد المثقفين أمثال أدونيس" (د. سماح إدريس / جريدة النهار 1995/2/17)

علماً بأن الاتحاد يعلن عن موقفه المبدئي في كل المناسبات، وهو يحق له، ضمن مجال نشاطه الثقافي والنقابي التشدد ضد المثقفين الذين يخرجون عن هذا الموقف، أم أنه يريد للاتحاد أن يتحول إلى حزب سياسي؟

ولكن هل حال توقيع المعاهدات "التي تم فرضها سياسياً" دون قيام النقابات والهيئات الأهلية والمثقفين والمواطنين بمقاومة التطبيع في مصر والأردن وفلسطين على الصعد كافة. ويمضي التهويل إلى حد تصوير المثقف بـ "الضحية" والحديث عن تضييق نطاق الديمقراطية التي يدافع عنها البعض إلى حد كانت تعني فقط حرية اتخاذ "الرأي المخالف" القائل بضرورة الاعتراف، بالعدو الصهيوني والتعامل معه"..

إن قصر الحرية على هذا النحو، يعني إرهاباً فكرياً ومصادرة للآراء الأخرى الرافضة للعدو وحقها في اتخاذ المواقف المنسجمة مع قناعاتها ومواثيقها.

كما يعني تهويناً من شأن المواقف التي تعترف بالعدو والتطبيع معه،... وتمريراً لها تحت يافطات براقة مثل "البحث عن الحرية" و "حق الاختلاف" وحق "الاجتهاد" وطرح "الأسئلة" والدفاع عن الثقافة و "الحداثة".

جوهر القضية: ان كل هذه التهويمات و "التشويهات" التي يدخل فيها الكثير من الخلفيات والحسابات السياسية والثقافية والنقابية والاجتماعية تستهدف صرف الأنظار عن الرئيسية.. وهي: هل دور المثقف في هذه المرحلة هو مباركة ومسايرة

النهج الاستسلامي لمعظم الأنظمة العربية والقبول بالتسـويات المفروضـة، والـترويج للصلح والاعتراف بالعدو الصهيوني؟

"انكشـارية التطبيـع" كمـا سماهم بـول شـاؤول، يدعـون، عمليـاً، إلى تـأييد سياسـات الأنظمـة في الوقـت الـذي يتغنـون فيـه بالحريـة والديمقراطيـة.. فلمـاذا لا يركزون على رفضهم لسياسة الأنظمة تجاه الاعتراف والتطبيع؟ أم أنهم ضد سياسة الأنظمة تجاه قضية الديمقراطية فقط؟

وهـل يحق، فعـلاً، للمثقـف أن يـبرر ويغطـي سياسـات الاستسـلام تجـاه العـدو الصهيوني؟ وهل دور المبدع في "إبداع" أشكال تخليه عن شعبه وأمته وتبرير الاستسـلام للعدو؟ إن هـذا مـا يجري حاليـاً، تحـت ستار الاعـتراف بـالآخر و "الواقعيـة" واعتبـار "السلام النـاقص" أفضـل مـن حـرب.. يقـول أدونيـس بـالحرف الواحـد: "السـلام مع إسرائيل: أفهم أن يكون لهذه العبارة وقع مرعب في نفوس الذين ولدوا في الحـرب على إسرائيل، ونموا وشبوا وكادوا أن يشيخوا في هذه الحرب، لكن على هؤلاء أن يستيقظوا ذات يوم ويسألوا أنفسهم ما هذه الحرب التي نحشد لها كل قدراتنا ولا نحصد منها غـير دمارنا المتواصل؟ فيما يتعلق بي أفضل سلاماً ناقصاً على حرب توجهها وتهيمـن عليهـا أصوليات تؤول الدين بعيداً عن حقيقته!" (مجلة الآداب/ تشرين الأول 1994).

لنلاحـظ عبـارة "الحـرب علـى إسـرائيل"... هـل نحـن الذيـن نشـن الحـرب والعـدوان.. أم ان الدولـة الصهيونيـة قائمـة علـى الاغتصـاب والاحتـلال والتوسـع العدواني؟

ثم هـل أن صراعنـا مـع العـدو الصهيونـي هـو صـراع تخوضـه بعـض القـوى السياسية، أم أنه صراع كل مجتمعنا العربي؟

صحيح أنه قد يبرز أو يطغى في مرحلة معينة ولأسباب موضوعية وذاتية، تأثير تيار سياسي وفكـري معـين علـى مـا عـداه، لكـن المقاومـة ضـد العـدو الصهيونـي وأطماعه في التوسع والهيمنة هي مهمة كل أبناء أمتنا..

والسؤال، هنا، هل الخشية من سيطرة تيار معـين يمكـن أن يدفعنـا إلى تفضيـل "السلام الناقص" أو الاعتراف بالعدو الصهيوني؟ هل نذكر أدونيـس بقصيدتـه عـن (الخميـني) في أواخـر السـبعينات الـتي نشـرتها السـفير؟! ... وتطـول كلمـة (هـاني

مندس).. لتدخل في مداخلات الدفاع عن اتحاد الكتاب، وتحذر من انشقاق لم يحصل... إلخ.

هذا "الدفاع" ليس سجالاً حقيقياً ضد الماهية، فلا مواقف أدونيس تغيرت، ولا مواقعه، وهو ليس الأساس، لكنه "الاكتشاف" الذي، هو غير مفاجئ أيضاً!.

إن ثوابت الفكر المعارض للتطبيع، تتمنهج في أمل معقود يتجاوز الأشخاص إلى الأساليب والحالات... يتجاوز (المعركة) الداخلية إلى أبعد، وأشرس، وأخطر...

لأننا لا نريد أن نحوّل (أفعالنا) و (بياناتنا) إلى (محاكم تفتيش) من نمط آخر... الذين يسقطون، ماتوا في الطريق... اهمالهم أنبل وأشرف، من الدوس على جثثهم... المهم أن الطوفان لا يدمر كل بيوتنا، بعد أن دمر سواترنا وحصون مدننا وقلاعنا (الثقافية)...

هل تشكلت منظمة حرة، ذات فعالية دولية، ممولة، وقوية، وتستثمر، "اليونسكو" في جوهر مبادئها، لتقف ضد سيل التطبيع، كما استثمر (التطبيعيون) من خلال الموساد، وسواها، "اليونسكو" مع التطبيع في "غرناطة".. ثم استثمروا "الدولة" في لويزيانا (المتحف)، والدانمارك (وزارة الخارجية) والوعاء؟

الأعداء يشتغلون على مساحة أعرض وأذكى... لنعترف بذلك. ونحن قيدتنا (تقاليد) إصدار بيانات (الشجب) و (الاستنكار) و لم نشغل مخيلتنا بأفعال أكبر من "الورق" و "قرارات الفصل" والإدانة على حياء!

مطلع القرن الحادي والعشرين سيشهد "الاستقرار" لحالة "التسوية". بل ان شهد الربع الأخير من هذا القرن، حالة التدمير لبنانا التحتية، والإنسانية، في كل البلاد العربية، حتى التي لم (تسقط) في وحل الديون، فقد أفرغت خزائنها ومن زمان بعيد أفرغت (قراراتها) وفي خدمته، وخدمة (مشاريعه) و(مخططاته)...

وظلت (الحرية) الإنسانية، هي الهم الأول... ضدها، مرات، ومعها، مرات.. ولكنها نائية تحت ظل الواقع السياسي في وطننا العربي...

الذين كانوا يحلمون بأسطورة "أرض الميعاد" حققوها على أرض الواقع، ونحن الذين نملك – كنا نملك جناتنا على الأرض – خسرناها، واحدة، بعد أخرى..

تلك هي غيبة الوعي...

وكي نعيد اكتشاف الوعي، لابد أن نعيد اكتشاف طاقة الإنسان في دواخلنا... الإنسان الذي احترقته الدوافع والغرائز والمصالح وغيبوا فعل المبادئ عن جدارته وشجاعته.

كان الأمل معقوداً... على جماعية فاعلة لحرية الإنسان ولوجوده نفسه...

وكي ننجح، في مهمتنا، لابد أن نعيد لحرية الإنسان ووجوده فاعليتهما...

آنذاك نتعالى عن إدانة الجثة ورجمها بالجمار... لأن الميت لا يموت مرتين!

4 ـ كوبنهاغن:

"وطن مثل مركبٍ
تخلى عنه ملاحوه.
وأنا مثل حاكم
هو أشقى من الشقاء
ظل ملكاً على أحزانه..."

(أراغون: ريتشارد الثاني)

....

■... "لن أخفي اسمي".

هكذا أنهى عميد متقاعد من المظلات، رسالته التي بعثها بالفاكس إلى برنامج "الاتجاه المعاكس" لقناة "الجزيرة" الفضائية، التي ضيفت السيد لطفي الخولي (أمين عام التحالف الدولي من أجل السلام العربي – الإسرائيلي) والسيد فخري قعوار (أمين عام الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب)...

منتقداً، الخولي، الذي يؤمن بالتطبيع ويبشر للحوار مع "الآخر" الإسرائيلي، والذي يعتقد بأن هناك "نقصاً شديداً في المعرفة كما يجري في إسرائيل، وفي إطار عملية التسوية بتداخلاتها المعقدة الإقليمية والدولية..." وإن "إعلان كوبنهاغن هو في الحقيقة، أول فعل سياسي دولي يدفع بعملية التسوية، ويضمن استمرارها على الأطر التي اتفق عليها العرب تماماً، والتي جاء "نتنياهو" ليخل بها وهي: الأرض مقابل السلام".

(وهذه الحركة - يستطرد - هي إنشاء لواقع جديد في الصراع العربي الإسرائيلي لم يكن موجوداً، وهو إدخال القوى الجماهيرية، العالمية، والإقليمية، للضغط على من يخل بعملية السلام)[20]

ويعتقد الخولي بأن هناك آلية سوف تُدخِل كل القوى المؤيدة للبيان "كي يصطف الرأي العام" مع بيان كوبنهاغن، بعد أن كان (يصطف دوماً مع إسرائيل)، وهو يراهن على (التفككات) داخل (حتى) "الإئتلاف الحاكم" لأن من "الأفكار التي (ضللته) طويلاً (فكرة أن إسرائيل كتلة صماء واحدة، وليس بها صراعات..) وهي فكرة (غير صحيحة) - كما يعتقد - (فالآن عندما ينادى للاحتياط في إسرائيل بعد مسيرة التسوية، لا يلبي النداء سوى 25٪ ممن يجب أن يلبوه، ومعظمهم لا يريد العمل في الأرض الفلسطينية المحتلة، والآن - يستطرد الخولي - لا يقدم من الشباب على الانخراط في الجيش سوى 30٪ فقط).

ربما تكون هذه القراءة انتقائية... ربما، لازالت "إسرائيل" تضللنا بالأرقام، لأن الصهيونية تعتقد بأننا "أمة لا تقرأ".. وربما يضيف حاخاماتها: "إننا أمة لا تقرأ... و لا تكتب!" ببساطة، إن البعض يعتمد (القراءة الانتقائية) للتاريخ الشرق - أوسطي والتي تقوم - لديهم - بين سيرورتين:

(رفض السياق العربي والمسلم للمؤسسات والهوية والتاريخ اليهودي، فضلاً عن اختزالها بطريقة غير إشكالية إلى تجريد، إلى "تجربة يهودية كونية" من خلال تأكيد فكرة "الضحية - اليهودية - الكونية!!" في آن!)

إنه: (إخراس أي انحراف عن المسرود المعولم والمؤرخن). من نوع لا يكتفي برؤية اليهود (ضمن سياق وضعهم الديني كفئة شعبية عامة، بل أيضاً بالعلاقة مع ثقافاتهم السياقية، ومؤسساتهم وتواريخهم)

---

[20] - انظر: إعلان كوبنهاغن: ربيع السلام في قفص الاتهام/ مواجهة مباشرة أجراها الإعلامي المعروف حمدي قنديل في محطة راديو وتلفزيون العرب (A.R.T) بين ثلاثة مثقفين اشتركوا في المفاوضات التي سبقت الإعلان واشتركوا في التوقيع عليه (لطفي الخولي/ عبد المنعم سعيد / محمد رضا محرم) وأربعة من طلائع المعارضين له (سعد الدين وهبه، أنيس عبد العظيم، صلاح الدين حافظ، محمد سيد أحمد) مجلة: المجتمع المدني، مارس 1997، العدد 63، ص:5 - 15.

وبالنظر إلى هذه (المقاربة)، ثم بالنظر إلى (النزاع الإسرائيلي – العربـي) ليـس غريباً، إذاً، أن يكون (يهـود الإسـلام – واليهـود العـرب بصفـة أكـثر تحديـداً: قـد شكلوا حالة تتحدى التعريف التبسيطي لليهودي، ثم الهوية اليهوديـة ـ الإسـرائيلية بصفة أخص)[21].

....

■ نقف هنا أمام حالتين متضادتين: اتجاه (التأثيم)، واتجاه (التطهـير) وبـالرغم من نفع الحوار العربي ـ العربي، الذي يكتشف الواحد الآخري الذي هو ذاته، على وجه آخر، لأنه اختلافي في الآن، وكان نصـيراً أو منـاصراً، أو متطابقـاً مـع ... مـن الضروري إزالة هذا اللبس، قبل أن نفكر (جدياً) – كما يدعو الدعاة – إلى حـوار مع الآخر "الإسرائيلي".

إن تلامس تطابق جزئي بين الصور المجازية الاستيهامية الملصقة (ببعضنا) قبـل أن تكون ملصقة من (اليهودي – الصهيوني) بالعربي – المسلم، وليس فقط بالفلسطيني، الـذي (بـاع أرضــه، ولم يطــالب بحكـم ذاتـي في زمـن العثمـانيين، ولا في زمـن الانتداب)... لأن (اليهودي) – حتى العلماني كما يتظاهر مثل ميناحيم برينكـر كمـا أسلفنا – ينظر إلى حقوق قديمة له في فلسطين، والأرض اشتراها، وحافظ عليها بقـوة السلاح، أما (الفلسطيني) فهو "الداخل" الغريب إلى "أرض ميعاد" اليهود التلمودية – التوراتية).. إنه (هناك) ليس مواطناً، ولا شريكاً حتى ... انه "مستعمر" "عبد" في ظل الحكم العثماني "لم" يطالب بـإطلاق سـراحه! أو (بحق) للتملـك، علـى العكـس أنـه (باع) أرضه! والذين جاءوا (مهاجرين)، بعـد المجـازر الصليبيـة في اسبانيا (فرديـنـاند) وقشـتالة (ايزابيـلا)، مـن المسـلمين واليهـود، لا يتسـاويان في الخطابـات، فاسـبانيا (الموريسكية) – مثلاً – رغم أنها (شهدت تعددية ثقافية وفاقيـة منـذ أقـدم العصـور، فإن إيديولوجيـا الفتـح في (نقـاة الـدم) بوصفهـا ممارسـة مبكـرة في (التطهـير الذاتـي) الاوربي، سعت إلى طرد المسلمين واليهود، وإجبارهم على الاهتـداء والحمـلات الـتي شنت ضد المسلمين واليهود، وكذلك ضـد "عمـلاء الشـيطان" والمراطقـة والسـحرة

---

[21] ـ انظر، شوحت، إيللا: كولومبوس، فلسطين، واليهود العرب: نحو مقاربة علائقية لهويـة المجموعـة، مجلة الكرمل، العدد 52 صيف 1997، ص: 38 – 52 (ترجمة: صبحي حديدي).

وفرت جهازاً هائلاً من التمييز العنصـري والجنسـي، أعـاد تصنيـع نفسـه في القـارات "المكتشفة" حديثاً، وموجات العداء للسامية والعداء للكفرة أنتجـت جهـازاً مفهوميـاً ونظمياً بدأ ضد آخري أوربا القريبين أو الداخليين، ثم رشـق نفسـه إلى الخـارج ضـد آخري أوربا البعيدين أو الخارجيين:

– يطرح جان بيتيرز نقطة أكثر تعميمـاً، مفادهـا أن العديـد مـن موضوعـات الإمبرياليـة الأوربيـة تعـود بجذورهـا إلى سـوابق أوربيـة ومتوسـطية. وهكـذا فـإن موضوعة الحضارة مقـابل البربريـة نُقلـت مـن العصريـن الإغريقـي والرومـاني، وأن موضوعة المسيحية مقابل الوثنية كانت مفتاح التوسع الأوربي الذي بلـغ ذروتـه في الحروب الصليبية. وأن الموضوعية المسيحية حول "المهمة" اندمجت في فكرة "المدنية" فأعطت مفهوم "المهمة المدنية"–)[22]

....

■ إن نقاشات العام 1992 حول طرد اليهود جلبت موضوعة "اليهودي التائـه" وقوّت الفكرة الضالة حول "شعب واحد" اتحد مـن جديـد في وطنـه القديـم، ولكـن اليهود في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا عاشوا في العالم الإسلامي حياة مستقرة "غـير تائهة"، و "السفارديم" تنقلوا في أرجاء آسيا وإفريقيا والمتوسط لأغراض تجارية ودينية أو علمية، وليس لأسباب ذات صلة بتعرضهم للاضطهـاد. ومـن المفارقـة أن الـترحيل الرئيسي وقع في السنوات الراهنة حين شُرد ورُحّل اليهود العرب بسبب التعـاون بـين إسرائيل وبعض الحكومات العربية في ظل تنسيق مارسته القوى الاسـتعمارية الغربيـة، التي أطلقت على حل "قضيـة فلسـطين" اسـم "التبـادل السـكاني"[23] (وأن لا يُسـأل الفلسطينيون أو اليهود العرب عما إذا كانوا يودون المبادلة بالفعل، هي حكاية أخـرى نمطية في تواريخ تجزئة العالم الثالث)، والسفارديم الذيـن نجحـوا في مغـادرة إسـرائيل، غالباً في إطار رد فعل (غير مباشر) على العنصرية المشرعنة هناك، اقتلعوا أنفسـهم مـن جذورهم ثانية، وهذه المـرة صـوب الولايـات المتحـدة وأوربـا وامريكـا اللاتينيـة وفي

---

[22] ـ المصدر السابق، ص: 40، والهامش رقم (3) وانظر:

(Pieterse¡ Empire and Emacipation¡ London¡ pluto¡ 1990.

[23] ـ نفسه ص 48 وانظر الهامش (19).

انعطافة تاريخية مباغتة، فإن من المحرمات القصوى أن يُسمح ليهود الشرق الأوسط بالسفر إلى البلدان العربية الإسلامية حيث أصولهم، دع جانباً أن يتخيلوا أمر العودة إليها: على سبيل المثال حين كتب شمعون بلاص رواية (هو آخر) "صدرت له بالعربية أيضاً مجموعة قصص عن دار الجمل بألمانيا بعنوان: "نذر الخريف" تتحدث جزئياً عن يهودي عراقي بقي في العراق بعد انتقال جاليته، واهتدى إلى الإسلام، هوجم بعنف وجرى الخلط بين شخصية البطل والمؤلف. في محاولة عاجلة لفرض الرقابة على المخيلة....

إذاً (صلات المواطنة) بين يهود الشرق الأوسط والمسلمين هي (تذكرة شائكة) بالشخصية الشرق أوسطية لغالبية اليهود في (إسرائيل) اليوم، فكيف نهمل إشكالية التعامل مع المسلم الفلسطيني أو نخفف حدتها... على أساس "استثمار"، "تفككات" داخلية، أو وهم "استدعاء" ابتكارية خاصة في المقاربة الحوارية مع الآخر (المعادي).

وليس من المدهش - حسب إيللاشوحت - (إن وقائع الذكرى الخمسمائة كما جرت في الشرق الأوسط والامريكيتين، ركزت على اسبانية الثقافة السفاردية (خصوصاً اللغة والموسيقى ذات الأصول الإسبا - عبرية Ladino أو اليهودية - الإسبانية) وهمشت حقيقة أن اليهود في إيبيريا شكلوا جزءاً من ثقافة يهودية - إسلامية لشمال إفريقيا، والشرق الأوسط، والجزء البلقاني الأوربي من الامبراطورية العثمانية، ومعظم النصوص السفاردية، في الفلسفة واللغة والشعر والطب، كتبت باللغة العربية وعكست تأثيرات إسلامية مميزة، فضلاً عن حس قوي بهوية ثقافية يهودية - إسلامية، ويهود إيبيريا جاءوا من الشرق الأوسط- بعضهم مع الرومان وغالبيتهم مع المسلمين - وعادوا إلى الشرق الأوسط فراراً من محاكم التفتيش وأكثر من 70٪ عادوا إلى مناطق الإمبراطورية العثمانية، في حين توجه الباقون إلى أوربا الغربية والامريكيتين (لا حاجة للقول بأن معظم التعبير الثقافي في العالم العربي لم يكن باللغة الإسبا - عبرية، ومن العجيب، في الواقع، أن هذا التمثيل الخاطئ للتاريخ السيفاردي دفع (باراتي موخرجي) إلى أن يجعل بطله اليهودي ألفي يهودا

(في رواية "الوسيط") يقول: كنا في بغداد العتيقة نستخدم شكلاً من أشكال اللغة الإسبانية!...)

(وهكذا فإن الكتابات التاريخية التي تتحدث عن ثقافة يهودية جامعة، هي غالباً الكتابات ذاتها التي تتحدث عن (العرب ضد اليهود) دون الاعتراف بالوجود اليهودي - العربي ... ولقد انتهت إسرائيل الأوربية إلى وضع عالق يكون فيه (شرقيوها) أصحاب روابط ثقافية وتاريخية أقرب إلى العدو المفترض - أي "العربي" - من اليهود الاشكنازي الذين يتوجب أن يندمجوا معهم في مواطنة واحدة)..

....

"ملوك نفعية"... لكنهم ملوك أحزانهم، سيظلون أشقى من الشقاء، ومن "ريتشارد الثاني"!

وهكذا... نحتاج إلى درجة قصوى من الضبط حتى لا نتغير مثل قطرة الزئبق من أقصى.. إلى أقصى..

ونترك جيش البروليتاريا غارقاً في الوهم الطبقي.. وفي (رثاثة) الفكر، التطبيعي، الراكض وراء (القطيع).. تحولت القياسات، من الراعي، القائد، إلى العبد، الأجير..

لا نريد لأحد أن يكون كذلك.. ولا نتمنى إلا أن يتفهم كل الساحة الخلافية جيداً، كي لا يكون في الاصطفاف الآخر، بعيداً عن هموم شعبه وأوجاعه.

ولا نريد لهذا الوطن أن يكون مثل مركب... تخلى عنه ملاحوه!!

....

- فما هي تمهيدات المسار الذي قاد إلى كوبنهاغن وإعلانه الذي أثار ولا زال سجالاً وصل درجة التقاطع والتباعد في المواقع والأفكار والاجتهادات:

■ **المراحل:**

يقول د. غازي حسين في مقالة بعنوان: (الموساد وتحالف كوبنهاغن):

- (نشطت الأوساط اليهودية في أوربا والولايات المتحدة الامريكية ووكالة المخابرات المركزية ومنظمة الاشتراكية الدولية وحكوماتها ومؤسساتها وأحزابها ومراكز البحث والدراسات فيها، إلى عقد مؤتمرات وندوات واجتماعات سرية (أو

علنية) بين مثقفين عرب ويهود، وبين فلسطينيين وإسرائيليين، لاشراك المثقف العربي في تعميم كامب ديفيد على بقية الجبهات العربية، وتطبيع العلاقات مع العدو الإسرائيلي، ودفع التسوية الأمريكية – الإسرائيلية إلى الأمام، للتوصل إلى حلٍ نهائي للصراع بالشروط والإملاءات الإسرائيلية..) وتأكد له – حين كان ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في فيينا – (بأن المخابرات المركزية كانت ترعى وتمول) تلك اللقاءات. و(كانت الدول الإسكندنافية في طليعة الأدوات الأمريكية والإسرائيلية لترويض القيادة الفلسطينية وحملها على الشروط والإملاءات الإسرائيلية... وتشكلت قوى ضاغطة عالمية لاختراق القوى السياسية والجبهة الثقافية العربية، ومنها: زعماء المؤتمر اليهودي العالمي، وشخصيات يهودية قيادية في منظمة الاشتراكية الدولية، وسياسيون إسرائيليون بارزون منهم شمعون بيريز وموشي دايان والجنرال ميتتيا هو بيليد ويوري أفنيري وحركة السلام الآن، الإسرائيلية.)

– استجاب لمساعيهم – حسب: د. غازي حسين – (الملك المغربي وحسن التهامي ومصطفى خليل والسرطاوي وأبو مازن وياسر عرفات وبعض القيادات اليسارية الفلسطينية)

فيما يتعلق بلقاء (غرناطة) الواقع في الفترة ما بين 9 – 12 كانون الأول 1993 معروف أن شمعون بيريز نظمه، ورعاه مع ياسر عرفات، بعد توقيع اتفاق أوسلو في 13 أيلول 1993 أما لقاء كوبنهاغن، فقد تمت مراحله على الوجه التالي:

– اقترح الدانماركي (هربرت بوندك) المزدوج الجنسية والولاء وعميل الموساد، على وزارة الخارجية الدانماركية رعاية اجتماعات عربية إسرائيلية لتطبيع العلاقات بين المثقفين العرب والإسرائيليين (يرأس بوندك تحرير مجلة "بولتكين" الدانماركية).

– توجه في نهاية العام 1994 إلى القاهرة للتعرف على رأي عدد من المثقفين المصريين، بعد أن زودته الموساد بقائمة تضم أسماء ستة وعشرين مثقفاً مصرياً، فاتصل بكل واحد منهم على انفراد... وكان يرافقه – في بعض الزيارات – الكاتب الإسرائيلي آموس الون، ورجل الموساد الشهير ديفيد قمحي (الذي سنأتي

على تفاصيل حياته لاحقاً)، والدبلوماسي الدانماركي تورين بريل (مسؤول مكتب العلاقات مع إسرائيل والبلدان العربية في وزارة الخارجية الدانماركية)

(وكان الجانب الإسرائيلي يطرح في نقاشاته مع بعض المثقفين المصريين أن أنصار السلام في إسرائيل يعانون خطر التمزق والانعزال بسبب عدم تجاوب المثقفين العرب معهم في "مواجهة" اليمين الإسرائيلي.)

وطرحوا فكرة (الحوار) وإقامة (التحالف) مع مثقفين عرب.

فوافق بعض المثقفين المصريين على الفكرة.

- ووجهت وزارة الخارجية الدانماركية الدعوة إلى لطفي الخولي، وأحمد فخر، ومحمد سيد أحمد، و د. منى مكرم عبيد، لإجراء الحوار مع الجانب الإسرائيلي الممثل بـ: ديفيد قمحي وآموس الون وآشر ساسر (مدير معهد ديان في تل أبيب) وأفيشاي مارجيليت.

- وأعقب هذا اللقاء لقاء آخر في كوبنهاغن في الثلاثين من أيلول 1995 حيث وافق الحضور على (رغبة إسرائيل) بخلق آليات لتنشيط التطبيع على المستوى الشعبي.

- وجرت الدورة الثانية في شباط 1996 واشترك فيها من الجانب المصري: لطفي الخولي و د. محمد السيد سعيد، و د. جمال عبد الجواد، و د. سميحة فوزي.

ومن الجانب الإسرائيلي: دان ميريدور (وزير المالية آنذاك) وديفيد قمحي، وشولاميت هاريفي، ويوناثان ليرنر.

واعتبر لطفي الخولي اشتراك دان ميريدور (عضو قيادة الليكود) إختراقاً له وزنه لجبهة اليمين ولمصلحة قوى السلام الإسرائيلية!!

- وتقرر أن تجري الدعوة لدورة ثالثة للحوار في 1996/5/13 ولكن لطفي الخولي وجماعته امتنعوا عن حضورها بسبب حرب شمعون بيريز العدوانية على لبنان وارتكاب جيش العدو الإسرائيلي لمجزرتي قانا والنبطية الجماعيتين.

- وخلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة التي بدأت في أيلول 1996 أخبر وزير خارجية الدانمارك، عمرو موسى وزير خارجية مصر، عن مبادرة كوبنهاغن

ورجاه أن يتدخل لدى المثقفين المصريين للعدول عن موقفهم ومتابعة الحوار مع الإسرائيليين.

– وفي نهاية العام 1996 وصل إلى القاهرة ديفيد قمحي وهربت بوندك والدبلوماسي الدانماركي تورين بريل، وبدأوا مرحلة جديدة من (الحوار) مع لطفي الخولي وآخرين...

– وبدأت الدورة الرابعة من الحوار في التاسع والعشرين من كانون الثاني 1997 وانتهت في الثلاثين منه بإعلان كوبنهاغن.

....

■ بمعنى من المعاني، أن "الوعي" التطبيعي وجد قنواته الأخطر، لتعميم الحالة، وتعويم المعارضة للتطبيع...

هل هو عمل "محدود جداً"؟... بحيث تكون ردود فعله في الصحافة العربية محض مقالات باهتة و "فاكسات" مليئة بالشتائم وآراء شاحبة!؟

هنا، العقل الإنساني هو المتحكم في قوانين أفعاله... وصياغة تاريخ السلوك... ولا نحاكم لطفي الخولي بطريقة عشائرية لأنه انجرف إلى الآخر بوعيه، وراح ينظر وينظم الفعاليات لصالحه.

فلسفياً انه يحاول الكشف عن ميدان مستقل عن انتمائه السابق، ولكنه سيكرس قواعد نفسه على وفق قواعد الآخر.

ولو كان، وزملاؤه يجهلون ما يفعلون، لقلنا سذاجة... ولا وعي معرفي!! لكنه يدرك قواعده وتحديداته، كما يدرك الفضاء الذي يتحرك في أحيازه.. إنه هيئة اعتراف بالآخر... فمن هو نموذج ذلك الآخر (العدو)، الذي تآصر معه الخولي في الوصول إلى (التحالف)؟

■ **ديفيد قمحي:**

ابن أسرة يهودية هاجرت من سويسرا إلى انجلترا ولد في لندن عام 1929 معروف منذ طفولته بالصمت.. يستمع طويلاً ولا يتحدث إلا نادراً وفي حدود المناسبة. محب للمعلومات ويسعى إليها، كتوم حتى على أسرته..

هاجر إلى فلسطين مع أسرته قبل عام 1948 وشارك في حرب 48 مسؤولاً عن كتائب إرهاب القرى العربية كي يرحل سكانها عن فلسطين، وأثناء قيامه بتفجير أحد منازل أسرة فلسطينية ثرية جرح في قدمه بشدة مما سبب له عاهة مستديمة جعلته ولا يزال يمشي بعرج بسيط.

التحق بعد الحرب، بالجامعة العبرية بالقدس متخصصاً بالشؤون الشرق أوسطية، وكان يعمل محرراً ليلياً في صحيفة "الجيروز اليم بوست" الإسرائيلية لإشباع رغبته المعلوماتية، كان يجمع أخباره من الجامعة والشوارع العربية بالقدس المحتلة، وتخصص بكتابة الموضوعات الأمنية والعسكرية فبرع بها مما أثار انتباه ديفيد بن غوريون – رئيس الوزراء آنذاك – فاستدعاه ليسأله عن مصادر معلوماته، فبدلاً من أن يعلمه، سرد عليه آخر الأخبار السرية عما يدور في دهاليز المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، فأعجب به بن غوريون وأرسله إلى مبنى الموساد في زيارة كان قمحي يعتقد بأنها زيارة صحفية لينفرد بنشر أول تقرير صحفي من داخل الموساد، لكن الواقع كان مختلفاً إذ تلقى إيسار هارائيل رئيس الموساد اتصالاً من بن غوريون يطلب فيه تعيين قمحي فوراً، "سيحضر لك غداً صباحاً، واريد أن تنهي إجراءات تعيينه حالاً"

بداية العام 1953 تولى قمحي – كضابط في الموساد – مسؤولية فرع إفريقيا في قسم الصحافة... وراح يعد تقاريره اليومية من الصحف اليومية العربية والإفريقية، حتى أوكل إليه هارائيل مهمة النزول إلى الشارع الإفريقي كرجل أعمال إسرائيلي وزوده بهوية مزيفة تحمل اسم "ديفيد شارون".

هارائيل الذي كان يعد – وقتها – خطة لاغتيال جمال عبد الناصر – طلب من قمحي الاتصال في إفريقيا بعدد من العملاء لجمع معلومات عن أية زيارة محتملة يقوم بها عبد الناصر سراً إلى أي بلد إفريقي، وذهب قمحي بادئاً مشواره من المغرب (المملكة المغربية) مزوداً بقائمة طويلة من الاتصالات والمهام، التي كان من بينها وبشكل عاجل اغتيال سلطان جزيرة زنزبار العربي الأصل، وتم لديفيد ذلك بعد أن أقام شبكة عملاء لإسرائيل ذبحت السلطان العربي وأسرته، وكان قمحي –

يوم المجزرة – داخل قصر السلطان يبحث في أوراق السلطنة السرية عن المعلومات التي يريد.

وكجائزة له، ومكافأة، عين بعد عودته، رئيساً للقسم الإفريقي بالموساد.

– في عام 1966: كان قمحي هو المسؤول المباشر عن عملية استخلاص المعلومات من اليهود المصريين الذين وصلوا لتوهم من مصر إلى تل أبيب، فجمع قدراً أكبر من المعلومات عن علاقات اليهود بمصر وعن أملاكهم، واتصالاتهم.

في ذات العام تعرف على فتاة يهودية مصرية تدعى (روتي) (مواليد 1946) بشارع سليمان باشا بالقاهرة، فأعجب بها وتزوجها، ومنها تعلم اللغة العربية (باللهجة المصرية) التي لم يتحدث بها أثناء زياراته المتعددة إلى مصر مطلقاً، ليستمع إلى تعليقات المحيط، وبخاصة المصريين الذين يطلقون لألسنتهم العنان.

وقمحي أقام اتصالات أيضاً: بالهند، باكستان، اندونيسيا وأقام علاقات سرية معها.

– إنه صاحب أول علاقة سرية للموساد مع المغرب. كنشاط رسمي للموساد هناك، ومع دول المغرب العربي الأخرى التي خرجت تواً من الاحتلال الفرنسي.

– وحين يصعد مناحيم بيغن إلى قمة السلطة، ويأتي اسحق حوفي رئيساً للموساد (1974 – 1982) يطلب بيغن أن يستغل الموساد علاقاته مع البلاط الملكي المغربي والمخابرات هناك لترتيب مصالحة مع مصر والسادات. فيخبرونه بأن ديفيد قمحي – الذي وصل آنذاك إلى منصب نائب رئيس جهاز الموساد – هو المؤهل للعب هذا الدور. فيطلبه بيغن ويكلفه بمهمة الاتصال بالمغرب، كونه الصديق العتيق لهم.

وتتم عملية (السلام) بين السادات وبيغن بواسطة طرف ثالث هو الملك الحسن الثاني... بالفعل.

– في العام 1981 كان قمحي المسؤول الأول في الموساد عن شبكة اتصالات المخابرات الإسرائيلية بالمليشيات المسيحية في لبنان (الكتائب وسواها).

– في 18 حزيران 1981 قام رئيس الموساد اسحق حوفي بإجراء حوار متعمد مع صحيفة (ها آرتس) الإسرائيلية، حول عملية ضرب مفاعل تموز الذري في

العراق، مدعياً أنه فعل ذلك دون تصريح مـن بيغـن!... - وهـو أمـر مسـتبعد، لأن ضرب المفاعل العراقي، لا يتم إلا بقرار من أعلى المستويات، وبتنسيق كـامل مـع دول الجوار التي مرت الطائرات الإسرائيلية عبر أجوائها لتنفيذ تلك العمليـة الدنيئـة - فتظاهر بيغن بالغضب، فأطاح ذلك برئيس المخابرات الذي قدم استقالته كنـوع من "كبش الفداء" للرد - عالميـاً - علـى إدانـة إسـرائيل... تلـك المقابلـة المتعمـدة، وضرب المفاعل، هما بوضوح "رسالة" صريحة موجهة إلى العراق وقدراته العسكرية وأهدافه، ونواياه... وإلى "الجوار" العربـي كلـه... بعـد أن أصبحـت "مصـر" تحـت حلف السلام، وخرجت عن المواجهة.

لكن العراق ثأر لنفسه، ولو بعد حين، إذ أمطر تل أبيب بتلك الصواريخ، التي أصـابت أهدافهـا أو كـادت، والـتي أثـارت الفـزع في الكيـان الصهيونـــي، أفـــراداً وحكومة وأمناً، فأسقطت "أسطورة" الأمن الإسرائيلي، وعرفـت العـالم أنـه سـاحة مكشوفة لمـن يمتلـك قـرار الفعـل، وقـدرة التنفيـذ، وآليتـه... وهـو فعـل لـن تنسـاه الإمبريالية - والصهيونية للعراق شعباً ودولة، ولمن هلل لذلــك الفعـل... لـن تنسـاه أبداً.

- هذه "العملية" رشحت قمحي لمنصب رئاسة الموساد خلفـاً لحـوفي... لكـن الأخير قدم ملفاً بعمليات قمحي السرية لصالح الليكود أظهر فيها إدانة قمحي لأنـه لم يكن أميناً أثنـاء شـغله لمنصـب نـائب رئيـس الموسـاد، كونـه عمـل مـن الداخـل لإسقاط رئيسه ليتولى منصبه الذي طالما حلم به وأعلن عن ذلك الحلم...

وهكذا اضطر قمحي لتقديم استقالته بعد 28 سنة قضاها في خدمة الموساد.

لكن اسحق شامير، الذي كان أيامها وزيراً للخارجية، انتشل زميله العريق في الجريمة والدم والموساد، فطلب منه أن يتولى مهمـة المديـر العـام لـوزارة الخارجيـة.. فقبل قمحي وعينه تنظر إلى وعد بإعادة ترشيحه لمنصب رئيس الموسـاد بعـد انتهـاء خدمة الرئيس الجديد ناحوم أدموني الـذي عـين في (1982) لكـن أدمونـي ظـل في منصبه حتى العام 1989 واكتفى قمحي بوظيفة مستشار الشؤون الصحفية والعربية - المصرية - بالموساد، حتى برز دوره الفعلـي، ثانيـة، في مسـار التحضـيرات للقـاء

كوبنهاغن والاتصالات المكوكية التي أجراها مع "المثقفين المصريين" سراً، قبل ذلك في متحف لويزيانا بالدانمارك وفي القاهرة، على حد سواء...

إنه "عراب" كوبنهاغن إذاً، عراب (التطبيع) على المستوى الأشمل والأعـرض، المدعوم والمخطط له، بدقة، عبر ما أعلن عنه كواجهة: (التحالف الـدولي مـن أجـل السلام العربي – الإسرائيلي) ونائب عميده الأستاذ لطفي الخولي.

■ إعلان كوبنهاغن: الإنسان ونفيه!

الإنسان: يختفي في الفلسفة أو يختفي تحـت غلالتهـا.. لا كموضـوع للمعرفـة حسب، بل كإعلان عن الوجود و "الحرية".

هل فعل "التحالفيون" ذلك من خلال طروحات إعلان كوبنهاغن..

(إنسان) القرن التاسـع عشـر – كـذات فاعلـة – لوعيهـا وحريتهـا، أشـهرته الفلسفة لتأليه نفسه! تمامـاً كمـا أشـهرت قريـش أصنامهـا الـتي صنعتهـا مـن التمـر والجص والحجر، آلهة تعبدها...

وإذا كان نيتشر هو الذي أشـهر مـوت الإلـه. فـإن الإسـلام أسـقط "الصنـم" وأعاد للإله مهابته في الرسالة.

وجاء ابن خلدون، وابن رشد، وابن سينا، والكندي، ليعيدوا للفلسفة مكانتها ولكن جوار صراع الحضارات، وصراع الإنسان.

وحين قال فيورباخ بعد ذلك بقرون: ينبغي استرجاع الكنوز التي تم انفاقها في السماء إلى الأرض. فلأنه كان يضع في قلب الإنسان تلك الكنوز التي أقرضها قديماً "للصنم".

الآن في نهايات القرن العشرين، وبعد اشهار النظام العالمي الإمبريالي "الجديـد" عن هيمنته، وانتشار "العولمـة" مفهومـاً وسـلوكاً... صـدرت أمريكـا – المخـابرات المركزية – مفهوم "نهاية التاريخ" فقط لتشيع في نفوس – بعـض مثقفينـا – بخاصـة حين تهاوت منظومة الدول الاشتراكية، وانتهت الحـرب البـاردة اليـأس والإحبـاط ليقبلوا ويتقبلوا عبادة "الصنم" الجديد: (إسرائيل)...

إنها ليست "الإختراع" المفاجئ لفلسفة الغرب، لكنه "الإختراع" التدميري لكيانية المنطقة، وبالتالي (الأداة) التنفيذية للهيمنة على ثروات الشرق الأوسط كلها...

فماذا تفعل؟!

حولت الفلسفة من "محاولة تجميع" - (من هيغل إلى سارتر)، للعالم، للتجربة الإنسانية، إلى "نشاط"! نظري وتطبيقي، للتفكيك والتفتيت، بدءاً من اللسانيات و الانثروبولوجيا والاثنولوجيا، وانتهاء بالاقتصادي السياسي، وثقافات العالم.. إنهم أوحوا، بأنها (نوع من النشاط المستقل) متحررة، في هذه الميادين (نشاط تشخيصي) أن يشخص المرء الحاضر معناه، أن يقول إنه حاضر...

وعلى هذا الوتر عزفوا للمثقفين المصريين، والعرب، والذين شاركوا بكوبنهاغن، كي يضموهم إلى جوقة الكورس العالمي الذي يؤبن تاريخنا، وثرواتنا، وقرارنا المستقل، يعملون - كفريق - لجهة الكيان العدواني، ويباركون "سلاماً" هو في الأساس سلام القاتل!!

إذ كيف يتحالف المثقف اليساري مع دموي الموساد!؟

إنها مفارقة الضد... تتجه بسهمها نحو انكسار رهيب في المفاهيم والقيم، وفي المسعى لتأسيس (كيان) ملتهم، لتصليبه وإعداده إلى قادم السنين حين تكون صراع الحضارات، وصل حد الاحتدام المباشر بين الغرب والشرق، ولذلك فإن (الصين) قبل أي بلد عربي، لها علاقات اقتصادية متينة مع "إسرائيل"!.. إن العين الآسيوية البعيدة، تنظر بشكل مركب إلى الأمور... أما عيننا العربية، فهم يحاولون أن يجعلوها عمياء!

إن إعلان كوبنهاغن، هو نفي الإنسان العربي. باختصار... فماذا تضمن تفصيلاً:

- يلتقي بيان كوبنهاغن في ديباجته، أولاً، بتماثل أهداف اتفاق أوسلو... وكأنه نسخة منه أو امتداد له...

إعلان أهمية (السلام) في المنطقة....

مع مفاهيم جاهزة، ومعروفة، مثل كون "الصلات بين الشعوب هي أمر حيوي ولكن هذه الصلات مشروطة "بنجاح جهود السلام في المنطقة".

وبالضرورة - يأتي الإعلان - على "سببية" وجبرية أن تقف وراء ذلك "قاعدة شعبية" التي إن لم "تقف" فإن "عملية السلام سوف تتراجع".

الهم الأول في الشأن الفلسفي، والتكتيكي: وجود (قاعدة شعبية) ساندة "للتسوية" أي ساندة للمنهج والآلية... أن تلغي كينونتها منذ وقفتها الشهيرة المجاهرة ضد زيارة السادات إلى تل أبيب، وحتى استمرارها في رفض التطبيع...

الاشتغال (الجديد)، إذاً هو صوب هذه "القاعدة الشعبية" لذا فإن أول ما فعلته (إسرائيل) هي اختراق (رموز) هذه القاعدة من (قيادات) المثقفين!... وهذا عنصر حاسم ومهم في إدارة (الصراع) الآن في المنطقة، إخراج تلك العزلة الساداتية - كمنهج - من (عزلتها)، واعتبارها "مساراً" حتمياً وضرورياً، لحياة وأمن واستقرار ورفاه الشعب العربي كله.. وإلا: فالحروب من أمامكم، والجوع من ورائكم، فأي الأمرين الأسوأين.. هو "الخيار"؟

لذا يتباهى صاغة البيان بأنهم (سوف) يعملون على (عقد اجتماعات عامة) بمعنى ذات صلة بالقاعدة الشعبية الرافضة... لاستدراجها شيئاً، شيئاً، نحو الهاوية! ويتباهون، أيضاً، بأنهم "سيضغطون على الحكومات"، وكأنهم جهة جماهيرية قوية، فاعلة، شارعية - بمعنى تمتلك الشارع تظاهرات وإضرابات واعتصامات! - الآن، يمكن للشارع أن يتبعثر، بل ينغمر بالدم، ببساطة، وليس بخراطيم المياه... (العقاب الجماعي) ظاهرة أنظمة، وليس (ظاهرة إسرائيلية) فقط، أو أمريكية تجمع لها "حلفاء" كما فعلت بالعراق 1990 - 1991.

لكن موقعي البيان، ندموا على عبارة "نضغط على الحكومات" لأنهم أولاً ظلالها، ورجالها، ويعملون بمباركتها ودعمها وتمويلها... فأدركوا حجمهم، فاردفوا تلك العبارة (الاستعراضية) بكلمة تناسب حقيقتهم "نراقب".

ماذا يراقبون؟!

يراقبون التقدم والنكسات في عملية السلام"!

"بنفس الوقت" – والعبارة من أصل الإعلان: "الذي نراقب فيه أعمال التمييز والعقاب الجماعي والإساءة إلى حقوق الإنسان وأعمال العنف".

سيل من "الواوات" المتعاقبة والمعطوفات.. وكلها جاءت في حدود "نراقب" إذاً: لا منهج ضد، مطلقاً لا مواجهة حقيقية، لا كيفيات نضالية لوقف أعمال التمييز والعقاب الجماعي والإساءة إلى حقوق الإنسان وأعمال العنف!

إلى جانب التضليل، فقد جعلوا القاتل والقتيل في كفة ميزان واحدة!

ولم يقولوا، بالإفصاح الكامل من هو مسبب تلك الفعال الدموية!؟

وليتهم، على الأقل، لجنة تحري حقائق انتهاكات حقوق الإنسان في الوطن العربي، أو حتى في مدينة عربية واحدة، كما تفعل لجان حقوق الإنسان، إنها على الأقل تتحرى، وتناقش، وتصدر "التقارير"... وأمريكا هي التي "تعاقب!" بهراوتها المتفردة! تعاقب شعوبنا، بالطبع، لأن المضطهد في خانة الأمان، مكسوب سلفاً.. فالظالم في صف الظالم، والظلم يستأنس بالظلم!

"إن كثيراً تم إنجازه في صنع السلام بين العرب والإسرائيليين".

وهذا الكثير لا علاقة لجماعة كوبنهاغن به، كأفعال، بل بمموليهم، وسادتهم، لذا فهم يقدمون "أجندة" (المكاسب) تلك، من باب التباهي ونردفها، هنا، كما وضعوها:

- اتفاقية فصل القوات المصرية الإسرائيلية في يناير 1974
- اتفاقية فصل القوات السورية الإسرائيلية في مايو 1974
- اتفاقية فصل القوات المصرية الإسرائيلية في سبتمبر1975
- اتفاقية كامب ديفيد في سبتمبر 1978
- معاهدة السلام المصرية – الإسرائيلية في مارس 1979
- عملية السلام في الشرق الأوسط التي انطلقت من مدريد في اكتوبر 1991
- إعلان المبادئ الفلسطيني الإسرائيلي في سبتمبر 1993
- إتفاق القاهرة الفلسطيني الإسرائيلي في مايو 1994.
- إعلان واشنطن بين الأردن وإسرائيل في يوليو 1994
- معاهدة السلام الأردنية – الإسرائيلية في اكتوبر 1994

- اتفاق المرحلة الانتقالية الفلسطينية - الإسرائيلية في سبتمبر 1995

- إعلان قمة شرم الشيخ لصانعي السلام في مارس 1996

- واتفاق الخليل .... (الأخير)!

إزاء ذلك... "التراكم الكمي" من (فصل قوات) و (معاهدات سلام). وهي كلها صبت في سلة الراحة الإسرائيلية، لأن (جيش الدفاع) الإسرائيلي، إبان الحروب هو (جيش) متطوعين، ولا يضاهي "ملاكه" الثابت أي جيش عربي من أية دولة متواضعة في عدد سكانها... لذا، فإن ذلك (الفصل) يعني عودة (المتطوعين) إلى أعمالهم ومهنهم، وأحياناً كثيرة، إلى بلدانهم التي يعملون فيها، وكان وجودهم في "الخاكي" يشكل عبئاً مادياً ونفسياً ثقيلاً على "إسرائيل" بالرغم من أنه أيضاً سبب (وجيه) لابتزاز العالم، وجمع أكبر كم من الأموال، بصيغة المساعدات والدعم.

ومعروف أن اليهودي "صيرفي ممتاز" يأخذ دائماً، ولا يعطي إلا ما يجلب الربح!! ولذا فإن موقعي الإعلان (يشعرون بقلق عميق) إزاء "الجمود" في "المسارات السورية الإسرائيلية" و "اللبنانية - الإسرائيلية".

يريدون أن تتنازل سوريا عن "الجولان" وينفذ نتنياهو وعيده ببناء مستوطنات فيها، لأنها "الحصن" الأمني لكيانه!... إذاً ،"الموقعون" يريدون التعجيل في هذا الأمر لذا من حقهم أن يشعروا "بقلق عميق" مادام قادة الليكود، يستعجلون حرق المراحل: "سلام زائداً الأرض والسيادة!".. وإلا: لتشربوا البحر!! (إنهم يقولونها لنا جمعاً، جمعاً) ولأنهم، قلقون، تماماً، كالإسرائيليين، أو كإسرائيليين - بالولاء والمسار - لأن (الطريق المسدودة) في (المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية) (لنلاحظ التقديم والتأخير هنا: الإسرائيلية - الفلسطينية).. قد يؤدي إلى "انفجار العنف"...

هذا "الاحتمال" الذي "تنبأ" به موقعو الإعلان، حدث بالفعل: الانفجار المزدوج في القدس (آب 1997)، والعملية الثأرية الإسرائيلية على جنوب لبنان، فوراً، لأن مصادرهم الأمنية، أشاعت أن منفذي عملية السوق، هما أقرب إلى

"حالات" (حزب الله)! ولا ينتميان إلى "أسلوب" (حماس)... وبرئت "منظمة التحرير" فوراً!!

....

والعجيب واللا عجيب. أن هذا "القلق" يأخذ حيزاً غير قليل من الإعلان... لأن "تأخر" عملية السلام يخلق حالة ترقب لانطلاق "خطر الحرب"!

مَن يحارب مَن، يا ترى؟

مَن الذي يبدأ بالحرب؟

دائماً: (إسرائيل) – هنا استعمل المفردة ذاتها "مقوسة" (بين هلالين).. فهي "مفردتهم" أصلاً... إنها تحمل صورة العدو، والكيان المغتصب.. إنها مثال بنية العدوان وحاضره في آن... لكن جماعة الإعلان، الذين يعلنون أنهم لا يمكن أن يقفوا "غير مبالين" بينما "يتدهور الوضع" "مقتنعون" بوهم كبير، أو ربما بما يخططون له مستقبلاً، كونهم "يعكسون" "إرادة أغلبية شعوب المنطقة" – وهذه الإرادة مشروطة، وليست سائبة: "الذين يتطلعون لوضع حد للصراع العربي – الإسرائيلي كمدخل لإقامة سلام تعاون إقليمي".

وبتظاهر كاذب لا يكتفون بتجريد "أغلبية شعوب المنطقة" من حقها في امتلاك "إرادتها". لكنهم يخصصون: "اننا – نحن الشعوب ـ..."! لقد وضعوا أنفسهم بديلاً عن الشعوب، وصادروا حقها في التعبير عن موقفها، "في رسم طريق المستقبل للشرق الأوسط" كله!

لأن الموقعين على إعلان كوبنهاغن (يستهدفون) "إقامة سلام شامل ودائم يقوم على أساس مبادلة الأرض بالسلام، وتطبيق قراري مجلس الأمن رقم 242 و 338 في جميع جوانبهما..."

وهم يدركون، بالرغم من الذرائعية العالية التي تميز صياغة الإعلان، بأن العدو الصهيوني هو، وحده، الذي لم ينفذ قرارات الأمم المتحدة، ومنها القرار رقم 242 والقرار 338 .. لكن "إسرائيل" لا تحاصر، ولن تمطرها "الأمم المتحدة" بفيض من القرارات التي تسلبها السيادة والثروات، وتجوع شعبها إلى مدى عقود لاحقة، وتقتل مستقبل أربعة أجيال متوالية! كما فعلت وتفعل بالعراق، مظلة لتطبيق

"الشرعية" وقراراتها "الأمريكية" الصهيونية! إنهم "يحتاجون" إلى (بعضهم البعض) – ذلك هو وحده المنطلق الصادق، في الإعلان كله: "إننا نحتاج إلى بعضنا البعض"!!

لذا أعلنوا (اتفاقهم) على ذات الأسس والثوابت التي وردت في الديباجة.. وخلاصتها دعوة "الحكومة الإسرائيلية والسلطة الوطنية الفلسطينية للتوصل إلى اتفاق عادل حول القضايا المهمة للوضع النهائي: القدس، اللاجئين، المستوطنات، الحدود، الأمن، المياه،...) في أسرع وقت ودون تأخير عن (5 مايو 1999) – كما تم النص عليه في اتفاق أوسلو –"

لا حسم، إذاً... إنها تمنيات، وضعوها نقلاً حرفياً من اتفاقيات وبيانات سابقة، لأنهم لا يمتلكون "فعلاً" سوى "الكلام"... والكلام يموت إن لم يتحول إلى (كتابة) .. لذا وضعوا "كلامهم" في إعلان... وتماماً، كما هو مرسوم، يؤكدون مجدداً على "توفير مناخ مؤاتٍ للمفاوضات، لا ينبغي استخدام أو تشجيع أو قبول العنف والإرهاب بأية صورة..."

وبحياء، يطرحون مسألة الاستيطان كأنها "تطمين" لإزالة مخاوف الفلسطينيين "فإنه: ينبغي عدم بناء مستوطنات جديدة وعدم مصادرة الأراضي الفلسطينية الخاصة والعامة".

هل "زالت" مخاوف الفلسطينيين "وهل" تزول "وهم ينظرون يومياً إلى (البلدوزرات) تهدم البيوت، وتقشط الأرض وتضمها إلى (ملكية) المستوطنين الإسرائيليين! .. نعم و "يحثون" كل القوى في الشرق الأوسط – أن تتكاتف من أجل – إعادة بناء منطقة مبرأة من سباق التسلح وخالية من التشاحن والفقر.."

"إسرائيل" وحدها صاحبة الحق في أن تكون ترسانة أسلحة الدمار الشامل وعلى كل المستويات. وهي وحدها التي يحق لها أن تخلق بؤر التشاحن، وتطحن ثروات الشعوب لوضعها تحت خط الفقر: أمثلة: العراق/ الجزائر/ السودان... و "الحصار" الجوي علي ليبيا!... – بل الحصار الأرضي والاقتصادي على "سلطة الحكم الذاتي"، تحركاً، اقتصاداً، عمالة، وبوابات... إلخ!

متى تنفذ "إسرائيل"، إذاً قرارات الأمم المتحدة: 425/ 338/242 حتى "تتم" التسوية؟ إذاً، (منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل ونظم إطلاقها" – (نداء) موجه إلى الأمم المتحدة وفرق تفتيشها للإيغال عميقاً في خرق السيادة والحرمات، وتفتيش حتى المساجد والمعابد والكنائس.. في العراق... وتدمير أسلحته من كل نوع... كي تظل (إسرائيل) المحصنة أمنياً وإلى أمد أبعد!

ويؤكدون على "شرق أوسط تستخدم إمكانياته الاقتصادية من أجل رفاه" "شعب الله المختار" وليس (رخاء شعوب المنطقة) عملياً... ومؤتمرات: الدار البيضاء / القاهرة/ عمان/ والدوحة تالياً.... ومدريد، و ... بحر أبيضية متوسطية، هي بعض واجهات عولمة الاقتصاد...، و"تل أبيب" سلة إنتاج خيرات العالم، تبدأ فارغة، فتمتد لها الأيدي والاستثمارات بما يملأ تلك "السلة".

وبالفعل، فإن الاستثمارات الإسرائيلية دخلت عقر البيت العربي، وان هي محصنة الأبواب من الداخل، وعالية السرية من الداخل، ومحمية من الموساد وقوى الأمن الإسرائيلية وبمنظومات متقدمة أمنياً... لكنها تشتغل على أرض عربية! وبمواد أولية رخيصة الكلفة، وبخدمات رخيصة الكلفة، وأحياناً بأيدي عاملة رخيصة الكلفة أيضاً: أما التسويق فيبدأ من خارج تلك المعامل، إلى الفضاء المحلي – منتج السلعة – ثم تتسع الدائرة، إلى العالم كله.

... إذاً : الموقعون على إعلان كوبنهاغن اختصروا كلامهم كله بشعار واحد: "فلتنته حالة الحرب ولنبدأ حالة السلام".

■ أما اللجنة التوجيهية لإعلان كوبنهاغن فتتشكل من:

– الفريق المتقاعد الطيار إحسان شردم (رئيس أركان سلاح الجو الملكي الأردني السابق) (عن: الاردن)

- سري نسيبه (رئيس جامعة القدس)، ود. رياض المالكي (عن: فلسطين).

- لطفي الخولي (عن: مصر)

- ديفيد قمحي (عن: اسرائيل)

- وشارك في اللقاء: سبعة أشخاص هم "الوفد الاردني": عدنان عودة (رئيس الديوان الملكي السابق) والفريق إحسان شردوم ومروان دودين (مسؤول ملف

اللاجئين عن الجانب الأردني في المفاوضات المتعددة الأطراف) والدكتور تيسير عبد الجابر، وزياد صلاح، وجورج حواتمه (رئيس تحرير صحيفة الجوردان تايمز اليومية) والكاتب الصحفي رامي خوري.

- في حين دعي كل من: د. عبد السلام المجالي وجواد العناني ومصطفى حمارنه والنائب فوزي الطعيمة، و د. منذر حدادين لكنهم اعتذروا عن المشاركة لأسباب خاصة.

■ أما الوفد الفلسطيني فضم: مروان البرغوثي (عن حركة فتح) و د. محمد جاد الله (من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) والشيخ جمال حمامي (عن: حماس) وزهيره كمال (عن حزب فدا) و د. جواد الطيبي ومحمد أبو خضير وحنا سنيوره ورياض المالكي (من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) و د. سري نسيبه وحاتم عبد القادر (7 سنوات في سجون إسرائيل) ومحمد الحوراني (عضو المجلس التشريعي الفلسطيني) وغسان الشكعة (رئيس بلدية نابلس)

أما الوفد المصري، فقد ضم إلى جانب لطفي الخولي، عبد المنعم سعيد (مدير مركز أبحاث) وأسامة الغزالي حرب، وحسين الحيوان (مدرس جامعي) واللواء د. أحمد فخر والمحامي علي الشلقاني والمصور السينمائي رمسيس مرزوق، و د. مراد وهبه (أستاذ جامعي) وأحمد شوقي الخطيب (محاسب قانوني) والدكتورة هالة مصطفى والسفير السابق صلاح بسيوني والدكتور رضا محرم (أستاذ جامعي).

أما الوفد الإسرائيلي، فقد ضم إلى جانب ديفيد قمحي، أعضاء الكنيست: مكسيم ليفي (من حزب: غيشر) وشقيق وزير الخارجية الإسرائيلية ديفيد ليفي، ويهودا لانكري والروائية يائيل دايان ابنة مجرم الحرب موشي دايان وشلومو بن آمي.. إضافة إلى: ناديا حلو وعامون ايلون وأيديت زيرتال وميخائيل ملكي - أور، ثواري برنشتاين.

كذلك حضر اللقاء عدد من أعضاء وزارة الخارجية الدانماركية وعدد من المدعوين من دول أوربية.

....

ومع ذلك.. لم يتحرج بعض موقعي البيان من إظهار "مواقفهم" (المعارضة) – الاستهلاكية – والكلاسيكية تماماً كأن يعلن محمد جاد الله (من الجبهة الديمقراطية) عن (تحفظه) لخلو البيان من حلول لموضوع اللاجئين! وكأن الإعلان وضع حلولاً سحرية لكل الوضع العربي الشائك والمعقد!

أو (انتقاد) محمد سيد أحمد الذي مهد للقاء و لم يحضره، وهو داعية عريق للحوار مع إسرائيل، بأن "اعتراضه" جاء بسبب تخصيص الإعلان، أولاً، كبيان بعنوان "تحالف من أجل السلام" ولكونه "بيان معد مسبقاً ومطلوب من المشاركين توقيعه دون مناقشته!.." وهو "لا يتوافق مع الحد الأدنى للمطالب العربية"

وقال عضو في الوفد الأردني لم يصرح باسمه لجريدة الرأي، بأن "الوفد الأردني قد نجح في فرض صيغة "التحالف الدولي" بدل أن يكون "ائتلافاً عربياً إسرائيلياً فقط" معتقداً أنه بذلك (يشكل "قوة ضغط" (عالية) باتجاه "تحقيق السلام العادل والشامل في المنطقة".

وهكذا... ينغمس الموقعون والمعتذرون في ذرائعية خانقة!

في حين أعلنت "منظمات ثقافية مصرية عديدة رفضها اجتماع كوبنهاغن وإعلانه" إذ وصفت "رابطة المثقفين المصريين" التي يغلب عليها التوجه (اليساري!) هذا "التحالف" بأنه "تحالف من أجل الشيطان!" واعتبرت المشاركين فيه "قلة لا تمثل إلا نفسها!"

ولإضفاء نوع من "الضوء" والتبرير لزيارة إسرائيل، أصدرت "اللجنة التوجيهية" بياناً توضيحياً عما أسمته "عملية لويزيانا" على "شكل "خطاب مفتوح" موجه إلى نتنياهو أعربت فيه عن "انزعاجها" البالغ من جراء الخطط الجديدة للحكومة الإسرائيلية الرامية لإقامة وتوسيع مستوطنات في القدس الشرقية والأراضي المحتلة، كما أعلنت عن "شجبها" و "رفضها" لهذه الخطط لمناقضتها لنص وروح إعلان كوبنهاغن والاتفاقات الإسرائيلية الفلسطينية ودعته إلى سحب وتجميد جميع أنشطة الاستيطان في الأراضي المحتلة فماذا عمل نتنياهو؟

لقد أوغل في عمليات الاستيطان وأدام عملية جبل أبو غنيم، علانية...

وفي "بيت الشرق" (المجلس الفلسطيني) التقى لطفي الخولي والوفد المصري المرافق له، مع فيصل الحسيني عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية مسؤول ملف القدس، "لتبادل الرأي" و "بحث" "تقديم الدعم للشعب الفلسطيني وخاصة في مدينة القدس" وضم الوفد المصري أيضاً: صلاح بسيوني، صلاح منتصر، علي الشلقاني، محمد رضا محرم، مراد وهبة، رمسيس مرزوق، وهم ذات الأشخاص تقريباً الذين شاركوا في لقاء كوبنهاغن!

كما التقى هذا الوفد (حركة السلام الآن) الإسرائيلية وأصدر الطرفان بياناً لا يختلف في مضامينه عن إعلان كوبنهاغن... وركز الجانبان على "إدانة حوادث القنابل المأساوية ضد المدنيين الأبرياء..." كأنهم يعتذرون لإسرائيل بدعوى "أن العنف يولد العنف!" [23 - 7 - 1997]

■ هل كان الموقعون على البيان صادقين مع التاريخ، التاريخ الذي هو نوع من الاستمرارية الضخمة العريضة التي تتشابك فيها حرية الأفراد بالتحديات الاقتصادية أو الاجتماعية ... هل اغتصب هؤلاء التاريخ؟

أم أنهم يعتقدون بأنهم يكتبون تاريخاً جديداً للمنطقة؟

لقد عاشوا على أسطورة (جهل مقدس!) من الناحية السياسية... ويتوغلون أكثر بهذا الجهل، مدعين أنهم لم يفهموا الآخر، وأن الحوار كفيل بحل المعضلة.

إن شعوبنا، في حقيقة الأمر، ترفض تلك (السياسات) القائمة على (الجهل المتعالم)، والتي هي الآن تدخل مأزق (الالتزام) بسلام الغطرسة! هل أن (الإسرائيليين) الذين حضروا (كوبنهاغن) يملكون القدرة على التنفيذ؟ (هل ستحل مجموعة المثقفين محل المفاوض الرسمي؟)

– ما هو وزن (وثيقة) – (إعلان) – أمام عشرات القرارات التي أصدرتها الأمم المتحدة بإدانة إسرائيل، و لم تنفذ؟

هل يكتفي المثقف بحدود الدور المرسوم له: أن يدافع عن مطالب أمته بالقلم؟ ما هي عناصر القوة التي يملكها "مراقبون" محض مراقبين؟

إن العبث بالرأي العام يخلق خللاً في العلاقة بين واجب المثقف، وبين شعبه.. فمسألة القدس، مثلاً، لما تزل مجرد أوراق قدمها المفاوضون السياسيون، وثائق

تفسيرية، لا أكثر... فالقدس التي هي "قضية حساسة" – حسب الإعلان – ليست في الوقائع، والواقع، سوى "موضوع لمفاوضات الوضع النهائي!"

إن "القدس عاصمة الدولة الفلسطينية".. هكذا من وجهة نظر الشعب الفلسطيني، لكنها في واقع الحال تحت الاحتلال، ويمارس فيها الصهاينة وضعهم كأنها عاصمتهم "أورشليم"!

إن الكلمة التي تلخص هذا الإعلان هي: كلمة واحدة: (MONITOR): نراقب، مراقبة ما حدث، ولكي نحول "مراقبة" إلى "مشاركة" لا بد من فعل جماهيري، إن الإسرائيليين، لا يؤمنون بشعب فلسطين. إنهم يؤمنون فقط بمصالحهم المباشرة.. لذا من السهل عليهم محاصرة الشعب الفلسطيني بكامله، لأن (ياسر عرفات) لم يقدم ما يثبت انه ضد "العنف".. إنهم يريدون من رئيس السلطة الفلسطينية أن يعاقب شعبه، جماعياً، لأن التفجير المزدوج في القدس، خرق اتفاق "شرم الشيخ"

والسياسيون الذين اعترضوا، من بعد: سعد الدين وهبة، عبد العظيم أنيس، صلاح الدين حافظ، محمد سيد أحمد، في المجابهة التي قام بها حمدي قنديل في الـ A.R.T. ونشرتها (المجتمع المدني، عدد 63 – مارس 1997 ص: 5 ــ15) لم يقدموا البدائل إنهم، أيضاً استعرضوا الحال، واعتبروا الاجتماع الذي قام في كوبنهاغن، (قام على التزييف) (عبد العظيم أنيس) وأن هذا الاجتماع (جسر) لاختراق جبهة المثقفين المعارضين للتطبيع..

هذا مفهوم.. ولكن ما الحل، ما البديل؟ تظل الإجابة واهنة، بل غائبة!

... ما يهم إن كان هذا الوفد أو ذاك (شعبي) أم (حكومي).. أكيد إنهم لا يمثلون الشعب.. فالوفود التي (ذهبت خلسة) تدرك جيداً أن (توازن القوى) بيننا وبين (اسرائيل) هو الآن في أشد حالاته سوءاً بالنسبة للمصالح العربية، ولذلك ــ كما يقول د. عبد العظيم أنيس – (من غير المتوقع أن تنزع من اسرائيل شيئاً. لا بالمحايلة ولا بمطالبة أمريكا بالضغط عليها..)

والوفد الفلسطيني لم يكن فيه من الأطياف السياسية من هو معارض، فاسم (رياض المالكي بصفته ممثلاً للجبهة الشعبية) لا يمنح الوفد هذه الصفة، فمن

المعروف أن (الجبهـة) اختلفـت معـه حـول الترشـيح لانتخابـات المجلـس التشـريعي الفلسطيني، وهو من العناصر التي احتواهـا "أبـو عمـار" فيمـا بعـد، وانضمـت إليـه بشكل من الأشكال..

حتى "حمامي" ممثل حماس، هو الآخر، انضم إلى (ياسر عرفات)..

و"أعداء السلام" الذين تناولهم إعلان كوبنهـاغن، هـم المثقفـون الذيـن وقفـوا ضد التطبيع، ضد الاتجاهـات الاستسـلامية، وضـد الجمـود عنـد (الجهـل المقـدس) للأشياء!

والمأساوي ان ما يسـمى بالدولـة الفلسـطينية، هـي في الواقـع العملـي، وعلـى أرض الواقع بدون جيش، بدون قوات جويـة، بـدون سـيطرة علـى الأراضـي، ولا على السماء والماء!

إن اسرائيل هي التي تمسك بمفتاح الباب، وهي تتحكم بـالداخلين والخـارجين منها! إنها "ليست دولة" بل "اسم بلا مضمون" (عبد العظيم أنيس)

في العـام 1992 وقـع 6 مـن الاسـرائيليين و6 فلسـطينيين و6 أمريكيـين وثيقـة سميت "وثيقة الاستيطان"، قال عنها يومذاك (بيـلر): إنهـا (نقطـة الانطـلاق)، مـاذا حل بها؟ ماذا تم بشأنها؟

الجواب: لا شيء!..

في العام 1976 – يقول سعيد كمـال– (استدعاني الأسـتاذ اسمـاعيل فهمـي وكان وزيراً للخارجية في مكتبه وقال لي: "سـيروس فـانس" طلـب إليـه أن يعـرّف السلام، فرد عليه اسماعيل فهمي قائلاً: فلنعرف الحرب أولاً، فقال فانس لقد انتهت الحروب بحرب اكتوبـر 1973، فقـال لـه اسمـاعيل فهمـي: إذن عرفتـه أنـت، فقـال فانس: ومنذ ذلك الحين برزت كلمة التطبيع. فقال له اسماعيل فهمي:

إذا كنت تقصد التطبيع فأنا أرمي لك خمسة مليون مصـري يروحـوا اسـرائيل ويأكلوها في لحظة واحدة. وما أود قوله: إن هناك وجهـة نظـر تـرى كيـف يمكـن للتطبيع ألا يتحول لفائدة اسرائيل على حساب العرب..

إن إعلان كوبنهاغن هو من الناحية النظرية لوقف التدهور الحاصل إزاء برنامج نتينياهو الخطير في السنوات الأربع القادمة، و(التحالف) فيما ذكر هو بداية استمرار في طريق محفوف بالمخاطر) (سعيد كمال)

إن الحوارات، والنقاشات، وردود الفعل، إزاء إعلان كوبنهاغن، هي "مجرد إعادة إنتاج لنقاش عربي طويل بدأ منذ القرار 242" ومنذ ذلك التاريخ "اختلف العرب حول مفهوم السلام وكيف نحقق السلام.. كان هناك من يرى أنه لا يمكن أن يحدث السلام إلاّ بإزالة اسرائيل.. بعد ذلك تحول وانتقل إلى فكرة: أنه قبل أن نتحدث أو نتحاور أو نتفاوض فإن على اسرائيل أن تسلم بالقضايا العربية لأنها واضحة وكان هناك منهج آخر بدأ به بشكل حاد جداً أنور السادات ويقوم على توظيف عملية بها عناصر دبلوماسية وإعلامية ودعائية وشعبية لتحقيق هدف نقل القضية من خطوة إلى خطوة تالية وأخذ الأراضي العربية قطعة قطعة.

فماذا جرى؟ في المنهج الأول:

(اسرائيل) اتسعت أضعاف أضعاف مساحتها في قرار التقسيم الأول!

المنهج الثاني أدى إلى استعادة سيناء، استعادة أجزاء أخرى من الجولان مع بقاء جزء تحت الاحتلال واستعادة أراض أردنية، وأدى إلى أن يكون هناك للمرة الأولى "سلطة وطنية على أرض فلسطين" وليست في تونس أو بيروت أو صنعاء!) (عبد المنعم سعيد) - الذي يضيف:

(وفي هذا الإطار فأنا أوقع وثيقة كوبنهاغن فهي مبادرة تساهم عن طريق تعبئة قوى اسرائيلية والأهمَ أوربية وأمريكية لهذا الاتجاه، قد تفشل أو تنجح..)

الموقعون على هذا الإعلان يعتقدون أنهم جاؤا به في "التوقيت الصحيح" لأن نيتنياهو، يعترض ويعترض..، وهم "يحاولون" توظيف أوراق إضافية بيد الفلسطينيين الذين يواجهون - الآن - ضغوطاً شديدة!.."

الموقعون يؤمنون (بالمرحلية) وبقرارات مؤتمر القمة العربي الذي عقد في القاهرة، بدون العراق، والذي وصل إلى "أن السلام هو خيار استراتيجي والمفاوضات هي السبيل، والحرب لم تعد واردة!".. لذا فهم يحققون - باتصالاتهم

- (دعماً للمفاوض العربي بصفة عامة، والمفاوض الفلسطيني على وجه الخصوص)

(د. محمد رضا محرم)

(لماذا نسلم آخر الأسلحة الممكنة في أيدينا للضغط على اسرائيل)؟

الخلاف هو حول مضمون السلام.. نحن ننشد السلام العادل الشامل الدائم القائم على إعادة الحقوق العربية، من هنا، فإن من يطبع العلاقات يخترق قراراً من قرارات قمة عربية (هي قمة بغداد).. والتساؤل هو مع من أحاور، الخطورة إننا قفزنا من فكرة الحوار مع قوى السلام الاسرائيلية، وهذا قد يكون له جوانب إيجابية، تنعكس على السلام، إلى فكرة التحالف مع أطراف اسرائيلية بها الليكود، وبها "ديفيد قمحي" رجل الموساد الاسرائيلي المعروف بعملياته القذرة، إذاً، التطبيع مع من؟ في وقت كل قضايانا فيه معلقة: من السلام، للأمن، للمستوطنات، للأسلحة النووية، وصولاً إلى ملفات الأسرى المصريين الذين تم اغتيالهم، والايدز الاسرائيلي الذي حقن به أطفال فلسطين...

الحوار مع من؟

مع الذين ثبت ضدهم عبر أجهزة دولية كثيرة بسحب الدماء من المعتقلين الفلسطينيين والذين قتلوا مئات الأسرى أحياء..) (صلاح الدين أحمد)

قال سعد الدين وهبة: "في نهاية الحديث عما جرى في كوبنهاغن، فإن شكسبير كتب (هاملت) منذ عدة قرون، وقال فيها: إن شيئاً متعفنا يحدث في دولة الدانمارك، وقد احتار النقاد فيما هو الشيء المتعفن، الآن فقط، أدركت ما هو العفن الذي في الدانمارك"[24]

■ الاتجاه المعاكس:

المعرفة أولاً، وأخيراً، لا بد أن تكون نوعاً من الملك المشاع..

بهذا المعنى صارت البنية المعرفية، أو بنية المعرفة عمومية.. وصار كل الناس يملكون (المعرفة)، مع فرق أنها لم تكن هي نفسها دائماً، ولا على نفس الدرجة من

---

[24] انظر تفصيلاً اعلان كوبنهاغن: ربيع السلام في قفص الاتهام، نص الندوة التي دعا اليها حمدي قنديل في برنامجه لمحطة راديو ومتلفزيون العرب A. R.T. زالذي نشرت نصه مجلة "المجتمع المدني"، مارس 1997 ، العدد 63، ص 5 - 15.

التشكل والتدقيق، ولكن دون أن يعني هذا وجود الجهال من جهة، والعلماء من جهة أخرى، ان ما يحدث الآن في نقطة المعرفة، أو في نقطة من نقط المعرفة سرعان ما ينعكس، وبمنتهى السرعة، على نقطة أخرى من نقطها.. وفي هذا النطاق صارت المعرفة متخصصة أكثر من أي وقت مضى، في نفس الوقت الذي لم يسبق للمعرفة أن تواصلت مع ذاتها مثلما تفعل اليوم...) (فوكو)

معرفة أوراق، بيانات، حوارات، كرست نقاشاً عن وحول لقاء كوبنهاغن، انها أبقت جانباً خفياً، بدءاً من سرية اللقاءات الأولى، وانتهاءً بتمويل (التحالف)، لكنها كشفت، اجمالاً، عن ذلك الفيض من النقاش الذي بدأ مصاخباً، وقد ينطفيء تماماً كما بدأ النقاش سالفاً عن القرار 242،.. الآن من يتذكر مفرداته عدا الذين يشتغلون عليه في ميادينهم السياسية أو التقنية. انه أصبح مادة (معرفة تخصصية)!ـ لكن ثمة، من جانب آخر، معرفة مشاعرية، تنطلق عفو الخاطر، باندفاعة تلقائية، تحتج أو ترفض، وأحياناً تطلق الشتائم.. ربما هي لا تبني مفهومات، لكنها تؤكد حالة يقين. ونفيه في آن..

هنا تلاوين "أقوال" اجتمعت على ازاحة، أو افتراق، أو تضامن.

نضعها في "الاتجاه المعاكس" بسهميه، معاكس من وإلى، أو إلى ومن.. شمالاً أو ضد شمال، جنوباً أو ضد جنوب، يميناً، يساراً. أو على العكس..

والعنوان، هو لبرنامج تقدمه محطة "الجزيرة" الفضائية يوم الثلاثاء 13 مايس/ مايو 1997 وبعد صدور إعلان كوبنهاغن في 30 يناير 1997 نقيضان لم يكونا كذلك. كانا سوية، ضد خط التطبيع،.. لكن (كوبنهاغن) جعل لطفي الخولي في خندق (التحالف)، وأبقى فخري قعوار في الخندق المضاد..

من هنا، فإن رؤية هذا الطيف، توصل إلى مقدار حقيقة تشبثنا بالمعرفة، بمعناها العميق، لا بمعناها الشعبي المتداول، مرات. لأن المعرفة عميقة ندرك كم نحن نحتاج إلى معارف، معرفية...

ولا مفاجأة.. سنجد أن أغلب "الكتابات" وما قيل، "هي كلام" لا ينتمي إلى المعرفة، بل إلى الاشاعة والاعتياد.. والتبسيط أيضاً..

ذلك، أيضاً، يعطينا "معرفة" أخرى بطبيعة هذا (الطيف) الخطير، الذي لا يتوانى عن (كتابة) هي في الواقع "كلام"

- قال د. عبد العزيز فرسخ: "هذا البيان، بصراحة، محاولة لإظهار نوع من التطبيع الفكري بين المثقفين العرب والاسرائيليين، إنه إظهار إمكانية سلام وتعايش إن لم يكن تعارفاً بين مثقفين من طرفين." (انتهى)

برعاية الموساد... أم خارج رعايته.. ما الفرق؟ ذلك هو خارج السؤال..

هنا تبقى معرفتنا بالآخر – العدو – (معرفة) غائبة!

■ أحمد عبد المعطي حجازي قال: "أنا مستعد أن أحاور أشنع ممثل لليكود في حوار علني/ مناظرة ولكني أرفض كوبنهاغن.. ولطفي الخولي لا يملك التحدث باسم المثقفين..

أنا من واجبي أن أقرأ ما يكتبه الاسرائيليون، لكن من واجبي بنفس القدر ألا أضع يدي في يد أحد منهم.

أنا لا أخون أحداً ولا أطعن في وطنيته.. لكن ما الذي يجعلني أذهب وأعطي لمن أخاطبه نوعاً من الاعتراف بلا مقابل" (الوطن العربي/ العدد 1049/11– 4 – 1997)

وأيضاً نطرح ذات السؤال: هل قرأ حجازي (ما يكتبه الاسرائيليون)؟.. أم أن معرفتنا بالآخر، العدو، تظل (ناقصة!؟)..

■ سليمان عرار: "في هذا المؤتمر سؤال عن سلام بين جانب مدجج بالأسلحة النووية بالإضافة لأعتى الأسلحة، وبين شعب معدود عليه مسدسات رجال شرطته وبنادقهم!) وبتوقيع كوبنهاغن لا يتم السلام.. بل يتم في الممارسة العملية وبالتوقف عن كل مظاهر البطش والقهر والغطرسة وإعادة الحقوق لأصحابها؟!

■ سعد الدين ابراهيم:"كوبنهاغن وجه آخر من أزمة المثقفين" (المجتمع المدني – العدد 63/ مارس 1997) "الإعلان نفسه عادي" و"المسألة في النهاية أن الكل يتحدث باسم الشعب.. ويريد فرض الوصاية على الآخر باسمه.. أي لا حرية ولا اختلاف لأعداء الشعب!)

فما هو الجديد المثير؟

ربما لأنه (مبادرة) علنية من مجموعة ولأول مرة../ ولأن بينهم من كان (يسارياً)، وكان وحزبه ضد التطبيع!/.. هذا التطور صدم البعض!..

لقد سمعنا من البعض اتهام من ذهبوا إلى كوبنهاغن بالخيانة والعمالة. أي الحكم عليهم بالإبادة المعنوية!.. ولاحظنا انقلاب بعضهم على بعض، أو على نفسه: فكيف ينقلب محمد سيد أحمد على عملية هو الذي بشر بها منذ عشرين عاماً حينما كتب: " بعد أن تسكت المدافع"

كيف يتحول من داعية إلى الحوار، إلى ضد ما أثمر عنه هذا الحوار؟

■ هادي العلوي طلب الانتساب إلى اتحاد الكتاب العرب (طامعاً أن ينال شرف العضوية) فيه، لكي "نناضل معاً":

- ضد الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة
- وضد "اسرائيل" كل "اسرائيل"
- وضد التطبيع السياسي أولاً
- وضد التطبيع الثقافي ثانياً (فتح: العدد 336/ 18-3-1995)

■ الرجل الذي جرجر المثقفين للتطبيع/ سقوط المثقفين في فخ الليكود/ هل مهمة المثقفين التفاوض حول صياغات قانونية مطاطية؟ (روز اليوسف: 7-2-1997/ العدد 3582) (الطبخة) تمت (سريعة) و لم يحاول المثقفون المصريون إجراء حوار مصري – مصري قبل الموافقة على السفر..

وفي كل الأحوال: الليكود هو المستفيد الوحيد من كوبنهاغن لأنه جاء في وقت ازداد فيه اصرار الشعوب العربية وإجماعها على رفض التطبيع، وفي وقت جمدت فيه بعض الدول العربية علاقاتها مع اسرائيل.

■ فهد الفاتك: (جاء الوقت للتعامل مع الواقع بغير الشعارات)

■ أحمد عبد العزيز: (سلام كوبنهاغن.. أم سلام تل أبيب.. لا فرق) (فلسطين المسلحة آذار 1997)

■ أحمد المصلح: (أميل إلى الاعتقاد بأن كل اللقاءات والوثائق الصادرة عنها لن تنجح في اخراج اسرائيل من عقلية التحصن التلمودية اليهودية وبالتالي فإن كل محاولات ارساء ثقافة السلام ستذهب دون جدوى.

■ سلطان الحطاب: (إعلان كوبنهاغن مكسب للسلام)

... ...

■ في برنامج " الاتجاه المعاكس"، طالب فخري قعوار بتفكيك المستوطنات بدل ذلك الطرح الخجول في بيان كوبنهاغن الذي (طالب بعدم بناء مستوطنات) والموقعون – حسب قعوار – كانوا أدنى درجة من السياسيين، رغم أن الثقافة، والمثقف غير ملزمين بالتكتيك والمراوغة، ففي هذا خدمة مباشرة للعدو.

تميز قعوار بالهدوء وضبط النفس، في حين علا صوت لطفي الخولي، مما دفع (حسن توفيق) لأن يعلق قائلاً: الصوت العالي وحده لا يقنع الناس. وسمى رحلة كوبنهاغن بالرحلة الزئبقية من الخيانة السرية إلى (البجاحة) العلنية! وأن الخولي الذي كان واحداً من المتظاهرين الذين صعدوا إلى جبل أبو غنيم ليعلنوا استنكارهم، وليهتفوا، لم يصل إلى هناك إلاّ بإذن من سلطات الاحتلال الصهيوني، إذ ليس المهم عند الكيان الصهيوني هذا، من يهتف، وماذا يقول، فقادة الصهيونية يقولون: "إن العرب ظاهرة صوتية!"

في حين دافع لطفي الخولي عن جماعة (التحالف) واعلانهم بتأكيده على (مسألة) وجود (الخلاف الجذري) داخل المجتمع الاسرائيلي، وإن اسرائيل (ليست كتلة واحدة) ومع (انتهاء إدارة الصراع بالطريق العسكري الذي استمر خمسين عاماً، يمكن المرور بالتسوية السياسية) عبر هذا "الخلاف"!

تساءل (حسن توفيق) بتهكم: هل هناك حقاً خلاف صهيوني – صهيوني؟

... ...

هنا "المعرفة" بالآخر، أو ادعاء المعرفة بالآخر، توصلنا إلى "اتجاه معاكس" لأنها "معرفة" متناقضة، وبالتالي، فهي غير واضحة، إن لم نقل إنها ناقصة، فلا الخولي، ولا توفيق، ولا حجازي، من قبل، على معرفة (حقيقية) بالثقافة داخل "الكيان الصهيوني"، ربما اكتفت قراءات بعضهم على المسار التاريخي، وبعض

الأعمال "السياسية"، الآن.. ما هي تشكيلة تلك "الثقافات" التي نقلها اليهود من أحياز اجتماعية متفاوتة حسب البلدان التي بها ولدوا وترعرعوا.. حتى العام 48.. ثم (الثقافة) – إذا افترضنا توحدها في الانتماء والتجذر مع المنهج الصهيوني فكراً وتلموداً وسياقات – التي (أنتجها) المثقفون والأدباء الاسرائيليون منذ الـ 48، صعوداً..؟

وكم مرة (أعيد) إنتاج "ثقافة" أو "ثقافات" في ظل الظروف الموضوعية والصراعات منذ حروب الأربعينات حتى التسوية، وما بعد..

هل يمكن التفريق بين محض (السياسي) ومحض (الأدبي) ومحض (الثقافي) في المنتج من نصوص ومؤلفات طيلة أكثر من خمسين سنة؟ داخل البنية (أو البنيات) التي يتشكل منها (المجتمع) داخل الأرض المحتلة؟

وهل يمكن أن ننظر إلى "الاختلاف" في كوننا فصلنا (السياسي) عن (النظري)، (الأدبي) عن (الإعلامي) على أنه "حالة" يمكن من خلالها اختراق"الصهيوني" أدباً وقناعات ومواقف، وعدائية تاريخية؟

إن اهتمامنا بتلك الإشكالية، ينبع من تناقض الطروحات التي لاحظناها وردود الأفعال المجاورة، كمقاربات فكرية وسياسية و (عاطفية) إزاء حالة واحدة هي حالة لقاء كوبنهاغن وإعلانه.. فكيف إذا نظرنا إلى تضاريس الأطياف السياسية في الوطن العربي على مدى فعالياته الفكرية والتاريخية والعلمية والسياسية التنظيمية، منذ الأربعينات ولغاية راهننا؟

أكيد سنعثر على ذلك (الجهل المتعالم) في معرفة الآخر!

وبالتالي سنتوصل إلى حقيقة مرة، هي أننا لا يقودنا منهج موحد، ولا هدف واضح.. ولا معرفة رصينة..

إذ تصل الحالة حتى عند (الكادر المتقدم) في الثقافة السياسية المعارضة للتطبيع، درجة التشويش، والانقلاب من موقف إلى نقيضه، مع إيجاد سيل من الذرائع والتبريرات "لمنهجة" هذا الانقلاب والارتداد، ومنحه صفة الشمولية، على أساس أن الأصل هو "الموقف الفلسطيني" أي "فعل" الفلسطينيين، على اعتبار أنهم

أصحاب القضية أولاً، وأن الباقين، عرباً وفعاليات، ينظرون إلى (الموقف) بعيون فلسطينية!..

إذ لا مزايدة على ذلك، وليس المطلوب- حسب التطبيعيين - أن يكون المرء ملكياً أكثر من الملك.. وما دام الفلسطينيون اختاروا "التسوية" و"السلام المشروط" فعلى العرب الآخرين الرضوخ لهذا الأمر والتعاطي معه بإيجابية، حيث (السياسي) هنا يغلب على (الفكري) و (الثقافي) والأدبي.. ولندع السياسيين يشتغلون على التسويات، وطريق المفاوضات أمامهم هو الطريق السالك، إذ راحت مع (جيفارا) المرحوم، حالة "الكفاح المسلح" والان تتحدد المطالبة، في إعادة مسار المفاوضات إلى ما كان عليه (بعد) "أوسلو"، وليس "قبل" أوسلو"!

وهكذا مطلوب من المثقفين - حسب التطبيعيين - أن ينشغلوا فقط بأبحاثهم النظرية! و"التأملية"، وعلى الأدباء المعارضين للتطبيع الاكتفاء برسم فلسطين التاريخ والحضارة والطبيعة والانتماء، فقط في كراريسهم ومخطوطات نصوصهم، كجنة غاربة، تماماً، كما على العراقيين أن يكتبوا ما شاءوا على (جنة عدن) و(شجرة آدم) و(خلود كلكامش) أما "جنة" المستقبل على الأرض، فهي محض حلم بعيد، قد لا يستطيع تحقيقه إلى معجز أجيال قادمة، بعد قرن من الزمان!

وذلك هو يقين الوجع الذي يطرح اشكالياته في العقل الابداعي. (انهم): الاسرائيليون والذين يسيرون على درب التسوية، حددوا لنا الخط الأحمر، في الممارسة.. أما العقل، فهم أيضاً يسهمون في إزاحته، ودفعه إلى مساحة فارغة، وإلى فضاء خال.. بعد أن احتلوه عنوة، وقيدوا خلاياه، أو سجنوه..

ولذاً وجدنا في "خواطر" الكتاب السياسيين و"تعليقات" أعمدتهم الواهنة، ذلك "الاستعمال الممكن والواجب" من الكلمات المحدودة...

القائلة بتكريس حالة التداعي العربي السريع. ومحاولة التمسك بقشة إنقاذ، حتى لو كان الذي يمنحها للمفاوضين "البروفسور بنيامين نتينياهو"!

إذاً "إهتمامنا" المطلوب بمشاكل "نظرية ضيقة دقيقة" لايعود إلى "تخلينا" عن السياسة، مثل الفلاسفة والنساك والزهاد، لكنه يعود إلى غياب (وعينا اللحظة)، أو تغييب هذا الوعي، بحيث تشرد "اللحظة" من فضائها التاريخي والكياني، إلى

الوهم،.. بدل أن تتفاعل مع حدثها، في أرض الواقع، وباتجاه صيرورة أغنى لمعطى النضال.

إن ما من شكل من أشكال الممارسة السياسية إلاّ ويتعين (لحمة أوثق لحم) (بتفكير نظري صارم) أيضاً، وليس بمرونة مبدئية تذهب بنا وبقضيتنا إلى عالم اللاعودة، إلى ما وراء شمسنا، وأرضنا، وحقيقتنا.

■ لقد اتخذت من الردود التحريرية المرسلة بالفاكس، والأسئلة التي تضمنتها أو التعليقات، من مواطنين استمعوا إلى المتحاورين في برنامج "الاتجاه المعاكس" الخاص بإعلان "كوبنهاغن" بين السيدين لطفي الخولي (الأمين العام للتحالف من أجل السلام العربي – الاسرائيلي" وفخري قعوار "الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب"..

أقول: لقد اتخذت منها مجموعة عينات. لا تمثل قياس رأي عام، لأنها صدرت بطريقة واعية، وليست عشوائية. وبالتالي لأن مرسليها وإن تميزت أغلب ردود فعلهم بالعاطفية، والتعاطف مع أو ضد، هم من شرائح معرفية متفاوتة.. بينهم أساتذة جامعيون، وكتاب وعسكريون شاركوا – على الأقل – في إحدى الحروب العربية – الاسرائيلية كالعميد المتقاعد من المظلات جمال الدين محمد عبده الشافعي (مصري))، وهم جميعاً من أقطار عربية وسكنة بلدان أجنبية، لكنهم جميعاً من العرب المقيمين في بلدانهم أو من المغتربين..

اتجهت أغلب الرسائل إلى السيد لطفي الخولي، بالأسئلة والاعترافات وبعضها تجاوز اللياقة في المخاطبة لدرجة اطلاق النعوت، والشتائم..

وبين (العقلانية) المبالغ فيها و (التطرف) الديني المبالغ فيه، و(العاطفية) المفرطة، صبت توجهات تلك الردود والأسئلة والتعليقات..

واستنتجت، بأنها تمثل (عينة) حقيقية من حالة التضارب والتفاوت في المشاعر والمعارف وطرائق التفكير وأساليب التعبير..، وهي بمجملها لا تخرج أبداً عن ذات التوجهات المتضاربة ونقص المعرفة، التي مثلتها الكتابات التي صدرت عن "محترفي" كتابة، أو الردود التي صدرت عن محترفي ثقافة، وفكر وسياسة، إزاء (حالة) كوبنهاغن.. بمعنى ان الإستنتاج الذي يصل إليه الناظر بتمعن إلى تلك "العينات"

يتصل تماماً بهذا التفاوت المريع، على امتداد الوطن العربي، والتناقض الحاد في المواقف إزاء "مسألة" واحدة، محددة!..

وهي (عينة) حياتية – ثقافية – معرفية، صادقة، تعبر عن فسيفساء واقعنا الفكري والثقافي والشعبي..

وبمعنى آخر، فإن هذا "التخلخل" و"التباعد" و" اللاتماسك" المعرفي، يسهل، في الحصيلة، مهمة الإختراق، من قبل أي "تحالف" عارف جداً أين يضع كلمته، وفي أي نعش يغرس مسماره!

إذاً.. لقد سهلوا على "الآخر" المعادي لنا، أمةً وشعوباً، وطموحات، وآفاقاً مستقبلية وأجيالاً، مهمة: "احتلال العقل" بعد "احتلال الأرض"...

فهل نطلب المستحيل من المثقفين العرب لإعادة تقويم مفاهيمهم؟

وهل نطلب المستحيل من المواطنين العرب لإعادة تقويم معرفتهم؟

فبين شعار: "دولة فلسطينية إلى جانب دولة يهودية"

وشعار: "خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود"

تتشكل محنة العقل العربي ومأزقها!

وبين قولة أبو عمار: "يد تحمل غصن الزيتون، ويد تحمل البندقية" التي أوردها "الدكتور سمير عوني" في مباركته لآراء لطفي الخولي، وبين مقولته: "إن القمم دائماً وأبداً أقلية"

وبين رسالة "أبو جهاد الحسيني رئيس تحرير صحيفة صوت الانتفاضة" التي يطالب فيها بضرب "عنق" الخولي!.. تكمن أزمة الحوار مع الآخر العربي، وسجال الذات!

وبين سؤال السيد أحمد عبد الباقي من السعودية الموجه إلى الخولي: (لو استمرت عمليات حماس في قلب اسرائيل، ألا تتوقع أن تهز كيان كل الاسرائيليين؟" وبين تلك الرسائل التي بعثها السيد يوسف ياسر من باريس، وأرفق معها صورة تجمع بين نيتنياهو والرئيس المصري حسني مبارك وهو يمسك بيد نتينياهو بود، وقد نقلتها وكالة (أ.ف. ب) لاستقبال مبارك لنتينياهو في مكتبه.. وبين حكاية المواطن محمد فريد من الدوحة الذي "مازالت شظايا الاسرائيليين في

ساقه منذ حرب اكتوبر، يشاهدها أبناؤه كل يوم والذي في إحدى العطلات بأحد فنادق العريش علم بأن أحد الاسرائيليين متواجد في حمام السباحة ذاته الذي كان يسبح فيه أطفاله، فأمرهم بمغادرة المسبح، (وخرج بهم إلى البحر لغسل أبدانهم) وبين سؤال المواطن (أبو جيدان – من فيينا) عن: البديل – في رأي الخولي – "للوصول إلى حل نهائي للصراع العربي الاسرائيلي" وبين رسالة الدكتور ناصر أسعد من السويد، الذي يسأل الخولي: لماذا تسمح للصهاينة بتدنيس أرضنا؟، وسؤاله لفخري قعوار: لماذا لا تضعوا حداً (لمكابرة الرعاع) من أمثال: حسام الدين مصطفى، وأنيس منصور و..؟!..

وبين ذلك الذي يذكر السيد الخولي بأن المبدأ الأول لثورة 23 يوليو 1952 (كان القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين، ويذكره بقوله تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، ولئن اتبعت ملتهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله ولي ولا نصير.."

والذي يذيل رسالة بلعنة التطبيعيين وبعبارة: "ولن أخفي اسمي عنك!" ويضع اسمه وعنوانه كاملاً، وهو العميد المتقاعد من المظلات جمال الدين محمد عبده الشافعي..

وسوى ذلك، العديد...

إن تنوع "الخطابات" العربية ـ العربية، لا ضرر فيه، فهو طبيعي لأنه حصيلة تنوع ثقافات ومعارف ومكتسبات، وتجارب، وطرائق تعبير..

ولكن الأخطر، هذا التضاد الحاد بين المواقف.

في حين معروف هو حال الخطاب الصهيوني، وواضح، ولا لبس فيه...

إنه يعتمد على مفهوم "العودة إلى الأرض الأم" بوحي علاقة مزدوجة مع الأرض، ويتصل بعلاقة ثنائية مع "الشرق" بوصفه مقام الأصول اليهودية ومستقر تطبيق "الغرب".

"إن العودة إلى أصول واقعة في الشرق الأوسط هي فكرة مركزية في الصهيونية" ورغم أن "الخطاب المعادي للسامية صور اليهود كشعب "شرقي" غريب داخل محيط الغرب (إسرائيل) فإن مفارقة إسرائيل تكمن في أنها تفترض

"إنهاء الشتات" كما يشخصه الحنين اليهودي الشعائري إلى الشرق، لا لشيء إلا لكي تقيم دولة ينهض توجهها الأيديولوجي والجيو - سياسي، على الميل التام نحو الغرب.

ولقد عاد هرتزل إلى دولة مصغرة رأسمالية - ديمقراطية غربية الطراز، لا تتاح ولادتها إلا بفضل سادة الإمبريالية أمثال بريطانيا وألمانيا.

أما بن غوريون فقد صاغ يوتوبيا رؤيوية لإسرائيل بوصفها "سويسرا الشرق الأوسط" ورغم أن اليهود الأوروبيين كانوا تاريخياً ضحايا الاستشراق المعادي للسامية فإن إسرائيل الدولة قد أصبحت أداة تنفيذ المواقف والممارسات الاستشراقية التي كان من عواقبها تشريد الفلسطينيين من أرضهم.

ويمكن بذلك اقتفاء الجذور الايديولوجية للصهيونية في الشروط التي هيمنت على أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين. ليس فقط بوصفها رد فعل على نزعة العداء للسامية، بل أيضاً بسبب التوسع المضطرد للرأسمالية والبناء الإمبراطوري الأوربي. وإسرائيل بهذا المعنى، انخرطت في صف مصالح العالم الأول الإمبريالي واتكأت على خطاب مشتق من المركزية الأوربية، ومارست سياسات استعمارية ضد أرض وشعب فلسطين"[25]

"والمسألة تزداد تعقيداً بفعل (المزاعم الاشتراكية)، وأحياناً (الانجازات الاشتراكية) للصهيونية في الخطاب الصهيوني القومي كأن الصراع بين الايديولوجيا الاشتراكية للصهيونية والتطبيقات الفعلية للاستعمار الأوربي - اليهودي في فلسطين قد حُلَّ بوسيلة استدعاء الأطروحة القائلة بأن الجماهير العربية - الخاضعة للاقطاع والمستغلة من قبل أبناء جلدتها - لا يمكن إلا أن تستفيد من ثمرات التطبيقات الصهيونية"[26]

---

[25] ـ من أجل المزيد حول مسألة الشرق والغرب في الخطاب الصهيوني انظر:

Ella Shohat| Israeli Cinema: East/West and the Politics of Reperesentation (Austin: University Of Taxas Press 1989)

[26] ـ نفسه: ص 45 عن: مكسيم رودنسن: Israel: A Colonial - Setter State

هذا الطرح، كان يجسد "الصورة الذاتية، الإيجابية تاريخياً عن الإسرائيليين المنخرطين في (مشروع غير استعماري) وهم بالتالي الأرفع أخلاقاً في طموحاتهم!"

أكثر من ذلك... كان "الخطاب الاشتراكي - الإنساني المهيمن قد أخفى الجدليات السلبية للثراء والفقر بين يهود العالم ويهود العالم الثالث تحت واجهة مضللة من المساواة.

والمهمة الصهيونية المتمثلة في إنهاء المنفى اليهودي بعيداً عن "أرض الميعاد" لم تكن أبداً في صالح المؤسسة التي صورها الخطاب الرسمي. فمنذ العقد الأول من هذا القرن نظر إلى اليهود العرب كمصدر رخيص لليد العاملة يمكن أن يحل محل الفلاحين الفلسطينيين المطرودين من أرضهم"[27] (حصل طرد جماعي - بالفعل - للأيدي العاملة الذين يشتغلون في قطاع البناء والإنشاءات من قبل الحكومة الإسرائيلية / آب 1997/ وكلهم من الفلسطينيين الذين كانوا يعملون داخل الأرض المحتلة نتيجة الحصار الذي فرضته إسرائيل على السلطة الفلسطينية إثر التفجير المزدوج الذي أودى بحياة عدد من الإسرائيليين في القدس).

وهكذا فإن "اليهود في إهاب العرب" يمكن أن يمنعوا أي إعلان فلسطيني بأن الأرض تخص من يشتغل عليها، ويمكن أن يساهموا في تلبية الحاجات اليهودية الديمغرافية ومن جديد يجري ترويج مجاز النجدة الاستشراقي من خلال مركزية أوربية تقدم يهود الشرق الأوسط في صورة القادمين إلى "بلاد الحليب والعسل" من الأصقاع الخلفية. ومن المجتمعات الفلاحية التي تفتقر إلى أية صلة بالحضارة العلمية - التكنولوجية.

لقد نمّى الخطاب الصهيوني الانطباع مثلاً بأن "الثقافة السفاردية" السابقة للصهيونية كانت "ساكنة" و "سلبية" ومثلها، مثل أرض فلسطين المراحة ــ حسب تعبير ادوارد سعيد ــ "راقدة في انتظار سائل الاخصاب الذي تحمله الدينامية الأوربية وفي الوقت الذي قدمت فيه فلسطين "كأرض خلاء" سوف يحولها اليهودي العامل".

---

[27] ـ نفسه/ انظر الهامش (16)

كذلك لجأ "الآباء المؤسسون" للصهيونية إلى تقديم السفارديم (كأوعية سلبية سوف تشكلها الروح الصهيونية البروميثية الباعثة للحياة)!!

وهكذا "فعلت" مع عرب 48 الذين يحملون، الجنسية الإسرائيلية، إنها تعتبرهم "مادة" مختبرها الخارق الذي يحول التراب إلى ذهب!

وإذا كانت الصهيونية قد عممت "مفاهيمها، نتيجة استجابات هستيرية ناظرة إلى أوربا كمؤشر على الفيتو، وأعمال الاضطهاد والهولوكوست ـ كما تعاملت بوضوح مع مسألة الأسرى اليهود، أو يهود ألمانيا في زمن هتلر كمثال أو أمثلة صارخة لابتزاز الغرب الأوربي ولحد الآن - نظرت، من جانب آخر إلى "يهودي الشتات" كجوال منفصل عن الجذور ومنقطع عن الأرض، كأنه يعيش "خارج التاريخ"

و "الصابرا" المؤسطرة أخذت تدلّ على تدمير الكيان اليهودي الشتاتي، وذلك حين وضعت في صيغة من التمييز العنصري الجنسي، وقدمت في صورة الذكر المخلص ليهودي الشتات. واليهودي النمطي الجديد المنبثق في فلسطين - القوي البنية الأشقر الشعر والأزرق العينين، المعافى والمتطهر من كل "عقد النقص اليهودية" زارع الأرض - وضع كنقيض لصورة "يهودي الشتات" كما ابتكرتها الصهيونية على نحو معادٍ للسامية.

ونموذج "الصابرا" المقولب على غرار المثال الرومانتيكي، المتأثر كثيراً بصورة البطل الألماني، (استولد) ثقافة - على غراره - تحتقر أي تعبير عن الضعف، وتصنفه في خانة "الغالوتي" ذلك المنتمي إلى الشتات، بكلمات أخرى، رأت الصهيونية في نفسها تجسيداً للمثل القوموية الأوربية الواجب تحقيقها خارج أوربا، في الشرق، وبالعلاقة مع منبوذي أوربا، أي اليهود!

وهكذا جرى الاحتفاء بـ "الصابرا" كرمز للشباب الخالد المنبت عن الأهل، كأنه ولد من صلب جيل تلقائي للطبيعة كما في رواية موشيه شامير القوموية الرئيسية: "بيمو ياداف" (بيديه هو) والتي تقدم البطل كما يلي: "لقد ولد إيليك من رحم البحر"..

وبهذه الصيغة "الفرويدية" المزاجية الطبعة، وضعت الصهيونية نفسها في موقع "حلقة امتداد" أوربا في الشرق الأوسط، حاملة "راية التنوير اللصيقة بالمهمة التمدينية"!!

نعيد تبويب السؤال: هل هناك خلاف صهيوني - صهيوني؟

يمكن النفاد منه إلى عمق المنهج، والبنية، للاشتغال على تفكيهما؟ أم القبول بالتعايش، بما نملك - كجانب عربي رسمي - من اشكاليات في البنية والتفكير والمنهج؟ هل نحن في زمن إعادة انتاج الأنبياء والرسل والمعجزات؟

وأظن أن الجواب هو فينا وعلينا، من واقع آليات المحيط والسلطة والغياب الكامل لكثير من متطلبات الحياة الكريمة والعصرنة في حياتنا اليومية، أو الوقائع المتشائمة في حياتنا...

إننا - كعرب - نحتاج إلى تجديد ميلاد الإنسان!

إلى براءته الأولى، ونقائه الأول، كي ينشأ داخل فضاء المعرفة التكاملية لا المعرفة الناقصة...

أن يتحرر عبرها، عن استيلاباته.

أن يكون، هو، حضارته وقوته، في المكان والزمان.

والا يغيب جوهره الإنساني داخل قشرة ظاهر عياني مشوه أو هجين.

نحتاج، نحن العرب، أيضاً إلى إنسان إنساني تماماً. لا يتعامل مع أخيه داخل حزمة القوميات والأديان والمذاهب والملل، إلا بشرطها الإنساني، لا بعدائية التناكد والإفتراق والتعالي القطروي الأجوف والتمايز المتعصب.

كي يشهد القرن الحادي والعشرون، فعلاً، إنسان المقاومة الذي ينجز أفعال الثورة، في كل المعطيات، من التكنولوجيا إلى سعادة الإنسان وحريته: وطناً وشعباً

هذه هي الأسطورة، أن نتمكن من الكنز الذي في داخلنا.

ونلغي المحددات التي تصوغ القيود، ولا تصوغ الفضاءات الحرة.

نحن لا نريد أن نجعل الإنسان موضوعاً للمعرفة وحقلاً لتجاربها، بل منتجاً للمعرفة ومطلقاً آفاقها... بذلك يتحرر العقل من سجن احتلاله.

إذاً، نعيد إنتاج ذواتنا، ولكن في أجيالنا القادمة، وللقرن القادم ... وقبل ذلك نخترق "التحالف" ونكسر البعد الخامس في أكواننا، فقد، نحتاج الآن إلى قشط الصدأ المزمن عن طبقات معدننا.

وأن نلغي ذلك الخناق الذي هو عليه عقلنا، وهي عليه أعماقنا. أن نكتشف وعينا كاملاً.. ونعيد إنتاجه وإنتاج الحياة.

■ أيها الحاكمون.. أين أنتم منا؟

نحن غيمة مليئة بالنار

نحلق... ننادي الحالمين... ولا نناديكم.

القسم الثاني:

الحصـــار

- السؤال

- هل الحصار يصنعنا؟

"الكلام من غير كتابة ، كأنه ميت ! "

ابن خلدون

■ الجواب

- قال مواطن عراقي ليس ساذجاً: لو كان فك الحصار قرين الاعتراف بـ "إسرائيل" لقلنا: مرحباً!

وعقب غير نادم: المهم ألا يموت شعبنا غيضاً، أو حزناً أو إذلالاً واستعباداً أو جوعاً!

- وقال مشاكس واعٍ: إن الحصار يجمد التطور ويوقف الابداع، أو يزيح العقل، كي يهاجر إلى متاهٍ بعيدة، أو إلى موت المنافي...

إذاً: فهو تدمير لبنية الإنسان التحتية وتلك أشرس حرب لاحتلال العقل وتفتيته!

هكذا إذاً، ببساطة، إما التطبيع أي الاعتراف بالآخر، العدو... أو "القبول" بالآخر الأخطر: الموت!

وفي حكاية حكاها عراقي يمتلك ذاكرة مشاكسة قال:

أوصلت المخابرات المركزية الأمريكية فيلماً وثائقياً عن دورها في تنظيم مجموعة يسارية بريطانية "متطرفة" ضمن نسيج صغير، ودعمته بصورة (غير مباشرة) بالمال والإعلام (صحيفة).

وكانت "معارضة" هذا الحزب "متطرفة" ضد أمريكا وحلف الأطلسي. والـ C.I.A خلقت هذا التنظيم لغرض الكشف عن المعارضة اليسارية الحقيقية والتوغل

فيها، لتغييرها، ثم السيطرة على أفكارها وتوجيه نشاطاتها بما يخدم مصالحها، وحرفها كلياً عن أصولها وأهدافها..."

- هل وصلت الرسالة؟!

- (... ...)!!

✎ استهلال تنوير:

إن المحنة أكبر من تفعيل الحماسة... وهذا القسم يتابع سؤال المحنة: هل الحصار يصنعنا؟

إزاء مجاز (الآن) الظرفي، في مواجهة الحصار (الواقعي) وأذاه، وفي مواجهة الحصار (الاعتباري) الحبس ودواله...

لا نريد للحصار أن يقودنا إلى المتاه، عبر مفارقةٍ لا تدرك. فنحن نمسك بجمرة المعاناة والكارثة، وأيضاً نمسك بجمرة الشعر مثالاً للمكتوب الأبقى والأغزر في مفارقة (مكتوب) الواقع، وهو مضاده في آن. كحال وضغط تدميري.

ولكننا ندرك، أنْ ليس بالشعر وحده يكافحُ الإنسانُ المثقف جور الحصار وأذاه.

لهذا... فهذا المبحث يتناول الحصار (المسمى) وتنويعاته:

حصار الذات أيضاً، والجسد!

تهميش الإنسان - المثقف بخاصة - وإزاحته وترحيله، بسبب الجوع والمعاناة، ولأسباب تتعلق بحرية إبداعه وأمنه وغده!

الآن... يزداد معنى الحصار قسوةً، لأنه يطال الخبز أيضاً، وأساساً، فيصبح كأنه انتفاء وهو بطبيعته ضرورة حياة بحدها الأدنى، إذ يصبح الخبز أمنية، والأخطر حين يتحول (مادة) دافعة إلى جريمة، أو قتل!...

كان المثقفون الحالمون - الشعراء بخاصة - يأكلون الأزمنة والأزمات،...

الآن، بخاصة العلماء منهم والعلميون - يـأكلهم الزمـن والأزمـة! فيـأكلون - اضطراراً - الورق، والجرائد والكتب وقصائد الشعراء الحالمين، حين يجوعون!

هذا المبحث يتحرى عن عمق الأزمة، عمق المحنة في محاور متداخلة، تبحث:

- المثقف والتعبير (الشعر، النشر، التلقي)
- المثقف والجوع (الموارد والحاجات)
- المثقف والأسرة (المسؤولية والمفقودات)
- المثقف والهجرة (البحث عن فردوس في المنفى)
- المثقف والموت (النهايات غير السعيدة)

هـذا المبحـث معـنيٌّ بـالظروف تمامـاً، وبضمـير الكتابـة، لا شـكلية الكـلام، بالواقعة، الموضوعة، وبالقصيدة المثال تالياً، نموذجاً لفيـض الشـعور وحصـار العقـل والجسد... القصيـدة الـتي تنكتـب وسـط اللجـة، والجـوع، واللوعـة وزفـير القهـر، والإنزياح الأخطر: الانزياح الاضطرار، والإزاحة الجبرية: الإزاحة القسر.. والقهر.

وأولاً، أولاً: بيقظة حرية، ووعي اختلاف ومغايرة، قصيدة لا تفرط بمعاناتهـا ولا بمعاناتنا، تماماً، كما المعلومة، بقدر ما هي جارحة، تعبر عن الحالـة - المحنـة بـلا مبالغـة، حتى لو كانت من حالة حصار حبٍ أوجسدٍ أو ظمأ إلى عطر وردة، أو حنان ثدي.

توصيف:

نص الحصار، كتابة، كناية عن فيوضات تنبع من اليومي وترتفـع بجـدارة سمـو الألم وقيافة قامته من آلية معاناة، ومكابدة إلى رفعة نوع وفن!

من البوح تنبثق، وإلى الانفجار تصير!

من أشكال التصريح، إلى المجاهرة الحزينة، النادبة، المجروحة، كسيدة أحزان!

فالقصـائد، النصـوص، - زمـن الحصـار - هـي ضـد "السـوق" و "اقتصـاده" العائم، المر، ومع كبد المواطن وقلبه المعطوب!

تتقدم على المرحلة، على (الآن) المكبِّل والمكبَّل. وإن أنتج مكتوبها في (الآن) وعنه! صحيح جداً أن الفجيعة - المحنة - أكبر من تفعيل الحماسة: "فـالميت، مـات بعدنا!"..

هذه الاستعارة – من هنريش بول – تدفعنا إلى توصيف الحالة:

أتحدث عن فعل لم يقع، إذ حين يمتدح المرءُ الحياةَ وفقاً لحركة الموت يمتدح الكارثة! والحماسة، لم تكن عمرها، بديلاً عن التاريخ!... فالموجود الأكثر ندماً "شيء" (قبلنا)، (قبل) موتنا، أما (بعدنا) فأية فاعلية تبقى للموت وللآخر؟!

أتحدث عن (حماسة) لم تعوض موتنا، كما لو أنها المستحيل اللامرئي!

ما قيمة تفعيل شيء ميت؟! فالكذابون كثر، حين وقعت الكارثة كانوا، دائماً غائبين تحت أنقاض الوهم، أو تحت ركام أنفسهم!... فالاختباء خلف مكبرات الأذى لا يُلغي النواح!

نكتب عن (نحن) نا..، فالنص الذي لا يحبسه النواح، لا ينكسر، حتى وهو (يتغنى) بالوطن المفجوع، والإنسان المفجوع، والحب المفجوع!

النص لا يستبدل "الضحك" الأسود! ولا يتحرك على مساحة (المسرح) المزيف! بل يشتغل على التعبير الحر، نص مفتوح الأجناس يمتلك حساسيته (شعريته) كموصوف خصالي لغنية المكتوب في المعاش اليومي، وضد أغلاله! يجوهر جمرته، ويتقد بها، حتى لو كان وسط الرماد البارد الكثيف، حيث يصبح المعنى في مآل واقعيته، دالاً ينفتح على أبعد، ويمتلك إحالاته في العمق، في ثراء تواشيح، وأنسجة أبنية، وصراع طبقي داخل بنية الذات!

والشعر الذي يعتمد على فائض القيمة للأذى والأسى والعذاب والقهر الاجتماعي، وسلطة الهيمنة، هو شعر (الآن)، تعبير حر عن محنة المثقف زمن الحصار والحرب، وتحت ظل الظروف القسرية.

إنه جمرة معاناة لوجود (يحلم)، ومكتوب (محلوم به)، ورغم سواد حبره وانسداد الأفق، فهو يدفع بالحركة إلى الانشطار، التمزق، والبعد عن قيود الحالة / الظرف؛

إنه: ظرفي ضد الظرفي... في آن!

لأن كل قصيدة، كل نص، يحلم داخل لغته، منذور ضد التفتت والعنف والعسف والأسلبة، والتغريب..

وهكذا ينطلق النص في ان الحصار، وسط أوجاعنا، مشعاً بحزنه، محلقاً بغيظه، فيأخذ شكل ملاك التوجع، شكل ملاك متوجع، بلاغته في وجعه، حريته في

حبسه، دهشته في خوفه، انفلاته في جاذبيته! إنه ضد انغلاق تناظري، ضد التماثل مع شروط هيمنةٍ، ومع انتشاء ألم، حد الوجد الوصفي أو شبيهه! ليس الحصار، إذاً... هو النص الذي يصنعنا!

ولكن النص هو الصورة الغامضة/ الواضحة، المتفجرة/ الملغومة، وسط رماد الحصار، داخلياً... يكون بفعل إرادة جشع، أو إذلال، أو سحق أو مهانة!

خارجياً، يكون بفعل هشاشة (قوانا) العربية، (عدائنا) العربي – العربي، إباحية ثرواتنا، وفيوضات "كرمنا" في التنازلات، وركضنا اللاهث وراء سراب الخديعة، والإغواء الخانع، الخنوع، فقط كي لا نتهم بالتخلف، بل كي يقدم التخلف استقالته، ظاهريا!

الشعر العراقي، في زمن الحصار، هو "الإنتشاء" الوهمي لوعينا، هو السحر الذي نمارسه ضد شِراك الزمن الدائري المتكرر، هو مرتكزنا أيضاً، ضد سقوطنا في نقطة البدء، أو خارج نقطة التلاشي!

والقصيدة ليست (وحدة مغلقة)، ولا يقبل جسم المعذبين في العراق القسمة على اثنين، أو أكثر... لأن القصيدة (الآن) مخالفة، ومختلفة، مفارقة، وافتراقية، تخرج عنقاء من رماد جسدها ذاته، هي منطقها الخاص، رؤاها، إيقاع حدسها، انفتاحها الدلالي، معنى معناها، استقلالها في الإيجاز وفي الوهج، أو ... امتدادها في التداخل النصي، أو "تنافذها الإجناسي" بين الشعري والسردي، بين الصرخة والبوح، بين البياض والتأويل، المحذوف والظاهر، الحضور والغياب، المباشر والمرموز، الساخر والنادب المسكوت عنه وصياغة المعروف.

لذا فالنصوص الشعرية (الآن) لا تعرف الضحك الأبيض، وإن هي تسخر بمرارة! لا تعرف التلفيق، تلفيق الرضا، ولا مديح الوهم، لأنها تدون أوجاعنا وأمانينا المحاصرة المقموعة، فلا تموت في الكلام، بل تحيا في الكتابة، لأنها إلى أمد أبعد تقول وتكتب، وهي ليست لذة عابرة، ليست (لذة) تكرار الأسى، لكنها، في آنها أيضاً، استحالة المرور عليه وتحيته بسلام عابر، أو باستهانة!

إنها التعبير الحر عن صنوف القهر، من الجسم إلى الروح، من العقل إلى القلب، من الفكرة إلى النشر،... إنها نظام، نسق يعتمد الاستعارة والكنايات، لكنها لا تمجد المديح الكاذب والإعلان.

إذاً فالنصوص المخالفة/ الحرة... شهادات تزوبع كوننا المقهـور وتدفع بـه إلى تدفق ثر مثير! النصوص - الآن - محمولات آلام، لكنها لا تتجمد في الكارثـة وإن هي بين النار والنار، تصنع شعلة ضد ظلام المحنة!

لذا فهي تشتغل على تغيير البنيـان، حتـى بنيانهـا نفسـه، أو بـدءاً مـن بنيانهـا نفسه، إلى أبعد... تخرج من حالتها الوضعية، إلى حالتها الحلمية.

بذلـك (فقـط) تتحـرر مـن (حبـس) الحصـار (الداخلـي) وضغوطـه، وتواجـه الحصار (الخارجي) و مكائده، حتى وهي في مرحلة الهذيـان، أو مقـارب التصـوف في الوجد والإشراق، حتى وهي تفجر الساكن الثابت في النسق، وتطلق لحنجرتهـا العنان، وأجنحتها حرة! فهي تبلغ بلاغتهـا في البسـاطة حينـاً، وفي المباشـرة - دون تردد - والاختزال البليغ، تماماً كالاطلاقة صغـيرة، لكنهـا قاتلـة حـين توجـه فوهـة المسدس إلى العقل، لكنها ضد نوايا الإطلاقة المعادية، ومع العقل:

"الجميع صوتوا على منحي عيداً

وثياباً ونقوداً

ولكن الحزن...

استخدم الفيتو!"

هذا نموذج، نص بحجم المعضلة، مكتـفٍ بذاتـه، وعنوانـه: "حصـار" شـاعره: (عبـد الأمـير جـرص)، أشـاع مـع الشـباب الآخريـن ظـاهرة النـص القصـير جـداً، والمخالف... حيث انتشـرت أيضـاً، ظـاهرة (المطبـوع/ المخطـوط) أو (المستنسـخ) الصغير جداً، جداً (بحجم الكف!) مكتوب على ورق أسمر، أو قصاصات الصحف أو دفاتر المسودات... إنها - إنه - اختزال محنة النشر!

المثقف والتعبير والتلقي: (الشعر، النشر، مثالاً):

وهكذا:

هكذا، تماماً...

ما أن حل العام 1991 حتى توقف النبض. (الثقافة) ماتت بالسكتة الحربية!.. والنشاط لم يستعد عافيته! كانت (صدمة) الحرب، أوجع على النفوس وأشـق علـى عقول المثقفين، وأعمق على جسم الثقافة، ومع ذلك...

وبعد (توقف القصف)، وتدمير (البنى التحتية)، والأبنية والجسور والشواخص، لم يتوقف سيل الخوف والرعب... وأيضاً: لم يتوقف صراخ الرفض والاحتجاج ووعي الضد.

والخطاب (انشطر) - تحت ظل الحصار ومحنته - خطابين، واحد أفقي نازل على الرؤوس هو (خطاب التخريب)، الإزاحة، التغريب، والترحيل تالياً.

والثاني، أرضي، انبثق من قاع المدينة. والريف، والنفس، هو (خطاب المفارقة والتحدي) إنه، أيضا وعي الضد.

لنتأمل (الما قبل) و (الما بعد)!

(رسمياً بدأ الحصار ضد العراق في 2 - 8 - 1990 (كما أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية، حين حجبت الرز، القمح، عنا...)

لكن، قبل ذلك الآن، وبالرغم من سنوات النار بين العراق وإيران... (انتعشت) حركة التأليف والنشر، التي تصاعدت في أواسط السبعينات من قبل، وأعطت ثمارها خلال عقد الثمانينات، - مع التحفظ، طبعاً - على التوجهات والنوع والتمايز والروح "الاعلامي" السائد فيها - فحركة (النشر العلمي) وصلت بطاقتها إلى نسبة 10 - 15 ٪ من مجموع النشر في بلادنا.

و (دار الشؤون الثقافية العامة) - وهي المؤسسة الحكومية التابعة لوزارة الثقافة والإعلام - ذات المسؤولية المباشرة في طبع النتاج الثقافي والمعرفي، إلى جوار مطابع الجامعات والدور المجاورة - بلغت بمعدلات النشر إلى نسبة 1.5 كتاب - يومياً -

وتكاثرت دور النشر الأهلية (القطاع الخاص) من خمس دور إلى ثلاثين، أي إلى ستة أضعاف، (قبل الحصار).

فأتيح بذلك، المجال أمام كاتب من ثلاثة (1: 3) يتمكن من نشر كتبه، وكانت نسبة النشر (1: 20) وانفتحت لأطفال العراق امكانية قراءة واسعة، إذ بلغ إنتاج كتب الأطفال بملايين النسخ وبأسعار زهيدة أو رمزية (مدعومة) فكانت في متناول الأطفال على مساحة عريضة قياساً إلى عدد النفوس، وساعد طبع هذا الكم وانتشاره، الطبع خارج العراق: اليابان/ ايطاليا/لبنان... إلخ... وبجوار ذلك، وبتوازٍ

معه، تم استيراد الكتب والمجلات والصحف الأدبية والعلمية، من أرجاء العالم، وباللغات الحية كلها...

أما في ظل الحصار، وللآن (حتى كتابة هذا البحث 1997) فالصورة معتمة تماماً، فقد تعطلت حركة النشر أو كادت تغلق أبوابها ومطابعها بوجه المبدعين، وتوقفت كلياً دور النشر الخاصة. وانقطعت تماماً، أية إمكانية لتوفير الكتاب العلمي أو المعلومة الجديدة إلى مستفيديها، وانقطعت تماماً، أية إمكانية لتوفير المراجع للجامعات، والدوريات العالمية لكل المبدعين، أيضاً، وارتفعت بشكل غير معقول، اسعار المواد الطباعية والسلع الثقافية المستوردة، كالورق والأحبار والأفلام والصمغ الحراري، والألواح الألمنيوم (البليت) وأجهزة الطباعة وأدواتها الاحتياطية والمستلزمات المدرسية والثقافية الأخرى.

وأثر ذلك أول ما أثر على حركة الثقافة والتعليم بمراحله كافة من الدراسة الابتدائية حتى الجامعية، فعلى سبيل المثال:

- كان سعر قلم الرصاص= 10 فلوس (الدينار = 1000 فلس، حين كان للفلس قوته الشرائية) فأصبح = 25 ديناراً.
- كان سعر الورقة البيضاء قياس A4 = فلساً واحداً فقط (كورق الاستنساخ مثالاً) فأصبح = 25 ديناراً، أيضاً .
- كان سعر الدفتر المدرسي (فئة 30 ورقة و 60 ورقة و 100 ورقة) = مجاناً (لمجانية التعليم) فأصبح = 600 دينار.

وأصبح استنساخ (الملازم) الدراسية لطلبة الجامعات يكلف عشرات أضعاف رواتب آبائهم! وتراجع النشر (الحكومي) إلى نسبة 90٪ عما كان عليه، إذ كانت دار الشؤون الثقافية العامة تطبع، كمثال، ما بين (250 - 500) كتاب سنوياً في أواسط الثمانينات فغدا اصدارها في العام 1996 = 20 كتاباً فقط. وبطباعة متواضعة وإخراج متخلف.

وتراجعت (دار ثقافة الطفل) عن النشر بنسبة 98٪ عن امكاناتها السابقة! أما استيراد الكتب العربية والأجنبية والمصادر البحثية والعلمية والتدريسية فقد توقف تماماً، بسبب العلاقة المتدهورة بين سعر صرف الدولار وسعر الدينار العراقي.

وواجهت بالفعل معارض الكتب أزمة حقيقية حين اعتمدت الدولة مبدأ (المقايضة)، في حين كان سوق الكتاب العربي هو العراق، إذ كان الناشرون العرب يصدرون 60٪ من نسخ كتبهم ومجلاتهم لتباع في العراق بدون مرتجعات..

وبسبب ظروف الاستيراد الصعبة (أو المعدومة تقريباً) توقف كلياً توفير المصادر العلمية والدوريات إلى الجامعات والمعاهد العلمية والفنية والمكتبات، فحرم أساتذتها وطلبتها من فرصة التواصل مع التطور العلمي والتكنولوجي والمعلوماتي المتصاعد في العالم فتوقف كلياً تدفق المعلومات والتقارير في الاختصاصات (تنفيذاً لقرارات مجلس الأمن!)

عام 1991: توقف النشر تماماً. كما لو كانت الحياة قد توقفت وحل الدمار فقط: لا ماء، لا كهرباء. لا طعام. لا مواصلات، لا اتصالات، تقطعت الجسور كما تقطعت السبل، وصلات البشر.

عام 1992: كان الرقم المسجل في مركز ايداع الكتب التابع للمكتبة الوطنية [دار الكتب والوثائق] = 709 عناوين بما فيها أطاريح الجامعيين (رسائل الماجستير والدكتوراه) التي لم ترالنور حتى التي تمت التوصية بطبعها ونشرها لتميزها.

وهذا الرقم هو امتداد لما كانت في المطابع قبل الحرب، وتوقف العمل بها طيلة عام 1991:

حصة الشعر = 25 مجموعة شعرية

1993: تناقص العدد إلى (583) عنواناً منها (31) مجموعة شعرية.

1994: (472) عنواناً منها (12) مجموعة شعرية.

1995: (259) عنواناً منها، (29) مجموعة شعرية.

وأصدرت الدولة لشعرائها مجاميع منفردة منها: (البشير) لعبد الرزاق عبد الواحد (1992) و (يوم لايواء الوقت) لجواد الحطاب (1992) و (الصحف الأولى) لمحمد حسين آل ياسين (1993)، و (أول النار) لعبد المنعم حمندي (1993)

– ومن العرب: (الدم المتوج) لأديب ناصر، و (الكتابة بقدمين) لخيري منصور، و (قراءة في معلقة العراق) لمحمد الشرفي. كما أصدرت (في البدء كان

العراق) لكمال الحديثي (1994) و (يوميات طرفة بن العبد) لمحفوظ داود (1995)[28] .

في هذه الحومة، ووسط المحنة، ظهرت (أصوات شعرية) شابة امتلكت وعي الضد: كالشاعرة دينا ميخائيل التي صدر لها (مزامير الغياب) (1993) و (يوميات موجة خارج البحر) (1993)، وفي العام 1997 بعد هجرتها صدر لها عن دار (نقوش عربية) في تونس، ديوانها الجديد (على وشك الموسيقى).

وطبعت الشاعرة ريم قيس كبه ديوانها الأول (نوارس تقترف التحليق) على نفقتها الخاصة، كذلك فعلت أمل الجبوري حين أصدرت في عمان ديوانها الأول: (اعتقيني أيتها الكلمات)... وآخر من طبع ديوانه على نفقته الخاصة من الشاعرات الشابات هي نجاة عبد الله.

أما سهام جبار فقد صدر ديوانها المعنون (الشاعرة) ضمن إصدارات مجلة (أسفار) المكرسة للشباب، والتي كان يصدرها (منتدى الأدباء الشباب) قبل ضمه، وضم مجلته إلى (اتحاد الأدباء والكتاب في العراق) عام 1996، كذلك طبعت (لهيب عبد الخالق) و (كلاله نوري) دواوينهما على نفقتهما الخاصة!

الستينيون والسبعينيون والثمانتسعينيون، كلهم، أجيالاً وانتماءات، اتفقوا على (شجب الحصار)، لأنه ألحق الأذى بالجميع لكنهم اختلفوا أساليب، وأسباب، ومبررات، وأيضاً اختلفت: الأسئلة و الملامات والادانات.../ ...

وهذا (الاختلاف) امتداد معلن للاختلاف منذ الحرب العراقية - الإيرانية، بخاصة عند الشباب الثمانيني، وقود الحرب وضحاياها في آن، فقد أصدروا عام 1987: (بيان أول للحرب، بيان أول للجيل) حيث وقفت جل نصوصهم ضد مغزى الحرب وآليتها، ثم تالياً ضد مغزى الحصار وآليته، وتميزت أعمالهم بانفتاحها الاجناسي، وأشاعوا (قصيدة النثر) و (النص المفتوح) كطاقة جديدة للتعبير، رافقها ترجمة كتاب سوزان برنار (قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا) كغطاء نظري مساند.

---

[28] البصري، عبد الجبار داود: (من مربد 89 إلى مربد 95: مقدمة عامة) انظر بحوث الحلقة الدراسية لمهرجان المربد الشعري الحادي عشر 2 - 11 /1 - 2 - 1995 (الشعر العربي الآن) - دار الشؤون الثقافية العامة /إعداد: علي الطائي/ ط1 - 1996 ص 11 - 20

وعلى الضد أصدر الشاعر سامي مهدي (أحـد أبـرز جيـل الستينات، وأحـد الموقعين على البيان الشعري مع الشـعراء: فـاضل العـزاوي، خـالد علـي مصطفـى، فوزي كريـم / عـام 1968) كتابـه: "الموجـة الصاخبـة" (1994) عـن دار الشـؤون الثقافية العامة – كأنه ينادد ما كتبه آخرون – خـارج العـراق – حـول السـتينيين، وما تلا ذلك من تجاوز، (وكان فاضل العزاوي وعبد القادر الجنـابي قـد كتبـا عـن الستينات، بما يشبه الوثيقة، من وجهة نظرهما، معـززة بنمـاذج لا تغطـي المرحلـة، لكنها تمثل أكبر عدد من أصواتها...)

سامي مهدي، كان أصدر أيضاً على نفقة دار الشؤون الثقافية ديوانه "حنجرة طرية" (1993). وصدر لزميله حميد سعيد (باتجاه أفق واسع) (1992) ولعبد الأمـير معلـه (حافـات الـبرد) (1992) ولياسـين طـه حـافظ (في الخرائـب حليـة ذهـب) (1993)، ولحسب الشيخ جعفر (كِران البور) (1993) ولخالد علي مصطفى (غزال في الجحيـم) (1993)، وكلهـا صـدرت عـن وزارة الثقافـة والإعـلام، دار الشـؤون الثقافية – بغداد.

هذا (المد) الستيني في التسعينات لم يستطع أن يخنق الصوت الآخر، الذي ظـل متمسكاً بحقه في التعبير، فأصدر: (المشهد الشعري) أو حسب تسميتهم له (المشـهد الجديـد) في (الشـعر العراقـي) (1992) عـن دار "الأمـد" وهـي دار نشـر خاصـة صاحبتها هي السيدة حكمية الجرار أردنية الجنسـية مـن أصـول فلسـطينية، أغلقـت دارها وعادت لتعيش في الأردن، بعد السنوات الأولى من الحصار.. أفادت "الأمـد" من قصاصات ورق المطابع (ما يصطلح عليـه في العـراق: كعـوب الـورق!) لتطبـع عليه مجموعات شعرية وكتيبات بحجم الكـف، علـى نفقتهـا الخاصـة، إذ أصـدرت (بصرياثا) لمحمـد خضـير و (قـلادة الأخطـاء) لمنـذر عبـد الحـر (1992) و (عكـازة رامبو) لخزعل الماجدي (1993)...

في حين صدر عن (أسفار) مجموعة (اليد تكتشف) لعبد الزهرة زكي (1993) و (السائر من الأيام) لمحمد تركي النصار، و (نون) لأديب كمال الديـن (1993) و (لمن أقول وداعاً) لأمين جياد (1993)...

وحين تولى (الشباب) (قيادة) اتحاد الأدباء بعد إزاحة الهيئة السابقة (الستينية)، أصدروا ستة دواوين ومجاميع قصصية ضمن مشروع الـ (64) كتاباً، والذي لم ينفذ منه إلا دفعة العشر، فقد صدر من بين الدواوين (تاريخ الأسى) لطالب عبد العزيز (1993).

أما سلمان داود فأصدر ديوانه الأول (غيوم أرضية) (1995) ثم (علامتي الفارقة) (1996) على نفقته الخاصة مصوراً أولاً (استنساخ دفلوب) ثم مطبوعاً... وكان غلاف ديوانه الثاني أسمر من ورق الأكياس مخطوطاً عليه بخط اليد، وقد صممه الشاعر وأخرجه بنفسه، لكنه طبع (علامتي) بعد ذاك طبعة ذات غلاف أنيق وزهيد في آن. وضمن سلسلة (الآن) – وهي كتب صغيرة جداً بحجم 8×10سم صدرت في الموصل – منها: (ضد الريح) لعبد الأمير جرص و (إجراءات) لحسين علي يونس.

كما أسهمت مجلة نون االتي يصدرها مجموعة من الشباب في الموصل أيضاً وعلى نفقتهم، بسلسلة متواضعة الحجم منها: (غسيل الملائكة) لسعيد محمود و (سراب) لحكمت الحاج– الذي صدر له بعد ذلك وبتنفيذه وطبعه بنفسه كتاب "بغدادات" – نصوص مفتوحة –.. كما صدر عن (نون) أيضاً: (الإعلان عن طيور الحرية) لباسل عبد ا لله.

وهناك مجاميع طبعت على الآلة الكاتبة وسحبت بطريقة (السكرين) من أبرز أمثلتها (المشهد الشعري في ميسان) (وميسان، هي العمارة: محافظة جنوبية تحادد الأهوار).

وإذ عجزت (المؤسسة) الرسمية في ظل الحصار عن تلبية متطلبات النشر، واستيعاب العطاء الشعري للشباب بسبب مشاكلها وندرة الورق والحبر وقلة الموارد المالية، وعدم إدامة الآلات وتحديثها، أو بسبب (توجهات) النصوص الشبابية، فقد صدرت – خارج المؤسسة – سلاسل محددة من بينها "سلسلة ضد الحصار الثقافي التي أفادت أيضاً، من قصاصات الورق الفائضة أو ورق الصحف الأسمر وأجهزة الرونيو (الاستنساخ) اليدوي أو الدفلوب/ أو الطبع زهيد الكلفة، متواضع الإخراج وعدد الصفحات وأبرز ما صدر عنها: "حداداً على ما تبقى"

/لعبد الرزاق الربيعي - الذي هاجر لاحقاً للعمل في اليمن. و "غيمة الصمغ" /لعدنان الصائغ، الذي هاجر لاحقاً إلى أوربا... و "مزامير الغياب" لدنيا ميخائيل التي هاجرت، كما أشرنا سلفاً، إلى أمريكا.

و "يدان تشيران لفكرة الألم" لعلي عبد الأمير، الذي هاجر أيضاً، تالياً، إلى الأردن، ويعمل في صحافتها حتى العام 1997 و "سهول في قفص" لوسام هاشم، الذي هاجر لاحقاً هو الآخر إلى الأردن ويعمل في صحافتها... حتى كتابة هذا المبحث (1997)... حيث ينتظر البعض، فرصهم للهجرة إلى (دول الغرب) بعد أن يتخذوا الأردن محطة انتظار، وهذا يشمل الأدباء الشباب كما عديد المثقفين وأساتذة الجامعة، وبسبب عدم منحهم حق الإقامة وصعوبة العمل والعيش في ظل بطالة واضحة في صفوف الخريجين والخريجات.

في زمن الحصار، شاعت، أيضاً ظاهرة استنساخ الأدباء الشباب لأعمالهم الإبداعية أو كتابتها بخط اليد على وجه ورق مستعمل، وتبادلها فيما بينهم، وبين النقاد، بنسخ محدودة.

وبسبب الحصار والعجز عن إيجاد البدائل والمناورة بها، اتخذت دار الشؤون الثقافية (الرسمية) في ما يشبه (المؤتمر) دعت إليه المؤلفين والكتاب والناشرين وأصحاب المكتبات، وعديد الأساتذة الجامعيين، وخبراءها، وممثلين عن دوائر معلومة، وبعد مناقشات مسهبة حول (الكاتب والكتاب) انتهت إلى قرار تقليص صفحات الكتب البحثية والدراسات إلى حد أقصى هو (250) صفحة (وبقرار وزاري)، وتقلصت عدد نسخ الطبعة الأولى من الكتاب إلى خمسمائة نسخة فقط.. وكانت نسخاً من إصدارات هذه الدار يتلقاها المثقفون والمبدعون هدايا مجانية، قد توقفت أيضاً، وأكتفي بإرسال الإصدارات الجديدة إلى المسؤولين الكبار في دوائر الدولة والحزب... وأغلب هذه الكتب بخاصة (القصص الصغيرة) ومجاميع الشعر، تطبع على مكائن (اللا نيوتيب) القديمة وبنظام "صف الرصاص"...

وتقلص العمل على هذه المطابع إلى ثلاثة أيام بالأسبوع فقط، بدل وجبتي عمل كاملتين على مدار الأسبوع (سابقاً) فصار الإنتاج والإنتاجية على وفق مبدأ "القطعة" بالنسبة لعمال الصف (التنضيد) والطباعة والتصحيف! لأن الرواتب غير

بجزية ولا تغطي حاجة أسر الفنيين، فتسرب أغلبهم من دوائر الدولة، ليمتهنوا أعمالاً حرة، أو ليشتغلوا في المطابع الخاصة.

... ...

■ والتقلص حصل أيضاً في (المجلات الثقافية) شكلاً وحجماً إلى الثلث وفي مواعيد الصدور، بل ان بعضها لم يعاود الصدور نهائياً... أتبعه تقلص جائر في الصحف اليومية إلى أربع صفحات أو ثمان من القطع الصغير (0.5 بطال) سيء الطباعة والبدائي تماماً إخراجاً وتقنية وتحريراً، وبالتبعية تقلصت الصفحات الثقافية، وغابت الدراسات والنصوص إلا المبتسرة وذات التوجه الإعلامي، وتقلص حجم بعض الصفحات الثقافية إلى نصف صفحة فقط وبالحرف الناعم (10 أو 12) الأمر الذي حجب الإمكانية في النشر أمام أغلب المبدعين، وحتى ملاك الصفحة ذاتها!

وحين توقفت المجلات طويلاً، عاودت الصدور على حياء، فتقلصت - عبرها أيضاً - فرص النشر أمام الباحثين والنقاد والشعراء والقصاصين، وباتت المكافآت المالية شحيحة لا تغطي أجور النقل من وإلى المجلة. و لم تعاود الصدور نهائياً مجلتا "فنون" الأسبوعية، و "الطليعة الأدبية" الشهرية... وصارت "الأقلام" تصدر مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر ومثلها مجلة "آفاق عربية" وصارت، "الثقافة الأجنبية" و" التراث الشعبي" فصليتين و"المورد" نصف سنوية... ومرات لا تظهر المجلات بمواعيدها بل تزحم لمدة أطول، أما مجلات اتحاد الأدباء والكتاب "الأديب المعاصر" و "أسفار" و "الكاتب الكردي" والتركمانية والسوريانية... فصارت في الغيب.. إلا لماماً...

وتوقفت كلياً المجلات العلمية، عدا "علوم" التي تصدر شاحبة وهزيلة وبعدد صفحات قلائل، وتوقفت مجلات الجامعات "المستنصرية" و "الموصل" و "البصرة" إلخ... وكانت تشغل حيزاً مهماً، في حين تصدر "سومر" و "كلكامش" و "بغداد" كأنها دوريات متواضعة... وبشكل رمزي لأن سومر تعني بالآثار، وكلكامش وبغداد، بالانكليزية والفرنسية!

... ...

■ من جانب آخر، حاولت هذه المجلات الثقافية التعويض عن تباعد مواعيد صدورها، باظهارها ملفات شعرية فنشرت "الأقلام" – مثلاً – ملفاً تضمن قصائد لعشرة شعراء شباب، وملفين عن الشاعرين المعروفين محمود البريكان ورشدي العامل (1993) – الذي توفي لاحقاً – وملفاً عن (الشعر في مواجهة الحصار) – مختلفون 1995 – كما أصدرت (أسفار) ملفاً بعنوان (الميلاد الشعري لعشرة شعراء جدد) (العدد 13) وأردفته بملف عن (شعراء ميسان/ الشباب) وفي عددها السادس عشر أصدرت ملفاً عن (الشعراء الشباب في محافظة صلاح الدين) ثم اندمجت في اتحاد الأدباء وغابت!

الشعراء الذين يكتبون للأطفال، لم يتخلفوا عن التواصل مع قرائهم من الأطفال، بالرغم من أن بعضهم حاول "تهجير" دواوينه المخطوطة لإيجاد منفذ لطبعها خارج العراق، وإن بصعوبة... أما في الداخل فصدر "أجنحة وبساتين" لفاضل عباس الكعبي (1992) و (100 قصيدة للأطفال) لفاروق سلوم (1993) و (بيت السعادة) لمحمد حبيب مهدي (1995) و (مرحباً يا عراق) لحامد عبد الصمد (1995) و (ماذا تقول الأشياء) لتركي كاظم جودة (1995) و (قوس قزح) لخالد الخزرجي (1995).

وفي مواجهة الحصار وإشكاليات العزلة الثقافية ومحاولة لتعويض التواصل المعرفي والفني مع الخارج، صدرت ترجمات جادة منها: ديوان للشاعرة الروسية (آنا أخماتوفا) (1991) ترجمة حسب الشيخ جعفر وملحمة (المهابهارتا) ترجمها رعد عبّد الجليل (1992)و (مختارات) بعنوان "القمم العالية" ترجمها ياسين طه حافظ (1992) رئيس تحرير مجلة "الثقافة الأجنبية" الذي هاجر للعمل في احدى الدول العربية. ومختارات من الشعر الاسباني من ترجمة سامي مهدي (1992) ومختارات عن الحرب بعنوان "مواسم القتل" ترجمها كاظم سعد الدين (1995) كما نشرت الأقلام خمسة ملفات شعرية ما بين 1992 – 1995 عن الشعر الفرنسي المعاصر /والشعر الروسي/ والألماني/ والتروبادور/ وللجيكي: ميروسلاف هولوب... ونشرت (الثقافة الأجنبية) (1992 – 1995) عشرين ملفاً وديواناً لشعراء عالميين: (آثار على الرمال) لسيمون كرسانوف/ نصوص شعرية من السويد لداك همر

شولد، وأخرى لشـاعرة القطـب (سـيركا توركـا) ومختـارات مـن الشـعر البولونـي /وبيرو/ والكاريبـي/ وملفاً عن شعر البيتكس، وقصائد مختارة لشاعر الجبل الأسود/ وللشاعر الفنلندي: بافمو هافيكو.

....

والنشر، يؤكد خطاب التحدي لدى المثقـف العراقـي، الـذي حـرم مـن حقـه الأول في الاطلاع والتلقي الحر، فحاول أن يمارس حقه في التعبير الحر، ولكن تحـت ظروف ومعوقات تتسم بالقسوة والعسر، وانعكست محنـة المثقـف في ظـل الحصـار على انعدام فـرص النشـر لمؤلفاتـه خـارج الوطـن - بخاصـة أولئـك الشـباب الذيـن مازالوا في أول الطريق، إذ لا تغامر دور النشر عادة بنشـر مؤلفـاتهم، بـل لا تغـامر حتى في نشر مؤلفات نقاد راسخين، فكم شـكا د. علـي جـواد الطـاهر مثـلاً، لأن دور النشر في الأردن ولبنان صدته، قبل وفاته كذلك اضطر د. علـي الـوردي لبيـع مؤلفاته وحقوقها كاملة في الأردن وهو على فراش المرض لتغطية مصاريف علاجـه حتى وافته المنية. بعد ذلك بأشهر، والذين استطاعوا طبع بعـض مؤلفـاتهم بصعوبـة هـم النقاد الذين هاجروا وعملوا في بلدان عربية كليبيا واليمن وأغلبهم دفع للناشـر، بدل أن يقبض منه، إذ طبع حاتم الصكر (رئيس تحرير مجلة الأقلام سابقاً، أحد كتبه واعتذر عن الآخر، كما طبع د. علي العلاق رئيس تحرير الأقلام الأسبق أحد كتبه، كذلك فعل د. عبد الله إبراهيم و د. عبد الإله الصائغ، وفاضل ثامر وياسين النصير و د. علي عبد الرضا، وهم نقاد هاجروا للعمل خارج العراق، في حين لم يطبـع د. صالح هويدي، ولا د. ثابت الآلوسي أياً من كتبهم حتى العام 1997.. كما هـاجر أيضاً رئيس تحرير الأقلام ومدير عام دار الشؤون الثقافية بعد تقاعده أ. طراد الكعبي دون أن يستطيع طبع أي من كتبه حتى العام 1997 وطبع كاتب هذا المبحث ثلاثة من كتبه في الأردن وبيروت ولندن، بشروط اضطراريـة، وعـانت مؤلفـات أسـاتذة الجامعات من صعوبات جمة، بل حظر طبـع مؤلفـاتهم في علـوم الفيزيـاء والكيميـاء والرياضيات بأمر من مجلس الأمن واضطر أسـاتذة آخـرون لبيـع مخطوطـاتهم بثمـن بخس!، وكل الذين طبعوا كتبهم المقررة ممن هم في الخارج دفعوا للناشرين.

■ وأثّرَ فضاء الحصار، بالضرورة، على (طبيعة التجربة) الإبداعية و(الموضوع الشعري) و(المفردة) و(تركيبة الجملة)، فمن عناوين القصائد لدى الشعراء الشباب بخاصة وضمن حالة (وعي الضد) و (المغايرة) نقرأ: (مرثية لنفسي/ عام الفيل/ مطر أسود/ تيفوئيد الوردة/ الأسئلة تثير غباراً محلياً/ الأشجار بين قوسين/ خرجت من الحرب سهواً/ أنا العائد بدأت غيابي للتو/ اثياب الموتى...)

وشاعت المفردات التالية: (الموت/الحزن/ القتل/ الرماد/ التبعثر/ الصمت/ الانكسار/ الطلقة/ الطائرات/ القنابل/ القصف/ جثث/ مخاوف/ وطن...إلخ)

ومن التعابير المتداولة: (الأرض التي أنجبتنا بغير أب /أنا رهينة الفزع /هزيمة المخيلة أمام زحف الواقع/ أقدامي تقاطعني/ الطريق إلى ولادتي/ حجرة تائهة/ أنا المتعطل في الآن وكلاليبي مغروزة في الأبد... أسبق نهاياتي/ أيها الواقف فوق اسمي دعني أبدل قبري ولا أقول موتي/ في صمتي تتجدد اللغة أو يهرم الشكل/ وانثلمت خطوتي العشرون فألقيها في القبو... إلخ)[29]

- وحدها كانت القصائد (العمودية) المناسباتية ذات نبرة مدحية، مشبعة بالحماسة، والروح الخطابي:

---

[29] وراجع ما كتبناه عن الاختلاف والحرية (كتابة مغايرة تحت تأثير الحربين)/صحيفة القادسية - بغداد في 30 - 11 و 10 - 12 و 17 - 12 و 29 - 1992/12 وفي 5 - 4 و3 - 5 و10 -5 و18 - 5 و17 -6 و13 -7 و20 -7 -1993. على التوالي عن: (سهول في قفص: مفارقة الاستفزاز والسردية) / (مسلة الضباب: مفارقة الكتابة)/(هجائية الصعلكة تضاداً) (رابسوديات أيزيل)/ (احتفالات الألم والحكمة)/ (بيننا هذا الفرات)/ (حداداً على ما تبقى)/ (مزامير الغياب)/ (غيمة الصمغ) / (السائر من الأيام) / (من أقصى السحاب يجيء الحزن: يدان تشيران لفكرة الألم)..

وانظر ما نشرناه في صحيفة الثورة/ بغداد في الأعداد 8465 / 8474/ 8488/ 8494/ 8498 بتاريخ: 5 - 18/5 - 5 / 8 - 15/6 - 22/6 - 6 -1994

وبحثنا الذي ألقيناه في الحلقة الدراسية للمؤتمر العام التاسع عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب/ الدار البيضاء - المغرب - كانون الثاني 1995

- وانظر: الكبيسي، طراد: ملاحظات أولية: الشعر والحصار/ مجلة الأقلام - بغداد العدد 4 -5 - 6 نيسان، مايس، حزيران 1995 / ص: 8 - 10 مؤسساً بحثه على ذات المقاربات

- وانظر: البصري: عبد الجبار داو: مصدر سابق.

1 ـــ لا يحـــب الحيـــاة إلا اللئـــامُ فلينـــل مـــا يشـــاء منـــك الحِمـــامُ

يـــا أعاصـــير زمجـــري في دمانـــا واعصفـــي بـــالوجود يـــا أنغـــامُ

... ...

2 ـ نزفنا وطال النزف حتام صبرنـا إلامَ يكـون الصـبر يختزن الصـبرا؟

فلـن يحمـل الإذلال صـبرٌ مكبـلٌ أضالعُهُ بـالقيد أسـرى مـع الأسـرى

... ...

3 ـ يا لاهب الرمل العريـق أجبهُـمُ كيـف الكتيـبُ يـوزعُ الآجـالا

هـذي الديـار عصيـة كثبانهـا إن شـئن صمتـاً أو أردن مقـالا

... ...

أما بعد أن توقف القصف وصمتت أفواه المدافع، وهدأت ضجـة المتفجـرات، سكتت تلك الحماسة وحلت لغة الندب، والألم والإحباط محلها!!

أما في القصيدة الحديثة، فلقـد تكثـف الحـزن أكثر، وسـادت البنـى الدراميـة والسردية:

وقالت لي الكرة الأرضية

يا ولدي المقهور/منذ دهـور / وأنـا أحملكـم في حضـني وأدور / أتعـذب بـين الظلمة والنور/ وأعاني ما في عالمكم من اثم وشـرور/ والآن تعبـتُ/ ويجـدر بـي أن أرتاح من الدوران على نفسي/ بضع سنين/ فاطلب مني قبل سباتي شيئاً يـا ولـدي المسكين/ قلت لها: ماذا يمكن أن أطلب/ إلا أن تبقي يـا أمـاه تدوريـن/حتـى يطلـع صبح المقهورين) (يوسف الصائغ 1995)

(إن جئت فجر العيد تمثال الحسن بن هاني/ فأطرت بين يديه أغربـة التهـاني/ وسألته عما يرى في العالم الدامي القبيح/ فسمعته ملء المسامع قائلاً متحسراً/ أنا لا أرى في الأرض إلا ما ترى / فدع الفصاحـة وامـلأ الكـأس الصفيـح/ خمـراً.. فمـذ صُبَّ النحاس عليّ والتف الحجر/ وتصايحت سحراً على كتفي أطيار السحر/ وأنـا

أمد الكأس فارغة فما .. ينصب فيها غير أوشال المطـر...) (حسـب الشـيخ جعفـر 1995)

....

المثقف والجوع:

أنهكت الحالة الاقتصادية عقل المثقف – الذي هو بطبيعته محدود الدخل، لأن أغلب الشعراء والنقاد والقصاصين والروائيين والباحثين وأساتذة الجامعات والمعلمين والمدرسين والأطباء والصيادلة والمهندسين، إلى آخر السلسلة مـن التخصصـات هـم (موظفون) في مؤسسات الدولة، وان راتبهم الشهري هو المورد الوحيـد والأسـاس لكفالة معيشتهم وأسرهم.

في الحقب الماضية حقق الموظف/ المثقف، والموظفـة المثقفـة، مكانـة اجتماعيـة مرموقة واكتفاء ذاتياً، واستقراراً معيشياً وأسرياً،... بل عـاش المثقـف فيمـا مضـى، رفاهاً نسبياً أتاح له تلبية احتياجاته كاملة، والتوفر على السـفر – خـارج البـلاد – لقضاء إجازاته، واستكمال رغباته في التلقـي والاطـلاع والمشـاهدة والـثراء الذهـني والنفسي والمعالجة.

ان الحصار فرض على المثقف حالاً مختلفاً، فإزاء الغلاء الفاحش، عجز المثقـف تماماً عن تلبية الحد الأدنى من احتياجاته الإنسانية (كالغذاء والدواء) بل الخدمات!

لقد بلغ التضخم في العراق الحالة القصوى قياساً لبلدان العالم أجمع، ففي العام 1996 بلغ التضخم نسبة 4000٪ مقارنة بالقياسات السائدة في العـام 1989 كسـنة قياس، وبات من المفروض كي يصل المثقـف/ المواطـن إلى المسـتوى المعيشـي لسـنة القياس، ألا يقل راتبه الشهري عن 120000 دينار (مائة وعشرين ألف دينـار) كـي يتمكن من سد احتياجاته الأساسية.

فإذا كان متوسط دخل الفرد سنة 1989 يساوي 250 ديناراً شهرياً، و لم يقـع تغيير أساس حتـى سـنة 1991 حيـث وصـل دخـل الفـرد – كمتوسـط – إلى 750 ديناراً شهرياً، ثم تصاعد في العام 1996 ليصل إلى 1000 دينار (ألف دينار) مضافـاً إليه مبلغ (2000) دينار كدعـم (بـدل البطاقـة التموينيـة) والـتي أضيفـت إلى دخـل

الموظف منذ عام 1994، فيبلغ بذلك متوسط الدخل 3000 دينار، لكن هذه الزيادة المتواضعة جداً، في مواجهة ارتفاع الأسعار وتدني قيمة الدينار العراقي لم تحل المشكلة وعلى العكس عقدتها تماماً.

وعندما يتم القياس لمعدل التغيير في دخل الموظف/ المثقف/المواطن من 250 ديناراً سنة 1989 إلى 3000 دينار سنة 1996 – 1997 ولمدة لا تقل عن عشر سنوات، نجد أنها (شكلياً) ازدادت إلى اثني عشر ضعفاً، لكن عند تحليل واقع (الزيادات) نجدها (سلبية) لأن الفرد كان بمستطاعه عام 1989 تلبية حاجياته الأساسية – مع الوفرة – براتب 250 ديناراً، في حين أن الـ 3000 دينار لا تغطي حاجياته ليوم واحد أو يومين في أحسن الأحوال!...

حتى حين بلغت نسبة التضخم 4000٪ مطلع 1996، حسب هذه المعطيات.

غير أن عودة سعر الدولار إلى الإرتفاع أمام قيمة الدينار العراقي إلى سقف 2000 دينار للدولار الواحد، جعل نسبة التضخم تتضاعف إلى 8000٪ وهي أعلى نسبة في العالم لم يعرفها العراق ولا أي بلد منذ الحرب العالمية الأولى.

وكما أشرنا، لأن المثقف يشكل – عملياً – قاعدة القطاعات المهمة: التربية والتعليم العالي والصناعة والزراعة والصحة والري وقطاع الفنون السبعة، فهو المتضرر الأول من حالة التضخم، إذ لم يعد الراتب للمهندس ليعادل ثمن (طبقة بيض بثلاثين بيضة) حيث وصل سعر البيضة الواحدة (100) دينار! وبلغ سعر الكيلو غرام الواحد من الطماطة في 1997/5/21 مبلغ 1000 دينار أي 30٪ من راتب المثقف. وبلغ سعر رغيف الخبز 30 ديناراً.

أي أن عائلة مكونة من أب وأم وطفل واحد، إذا تناول كل منهم رغيفاً واحداً باليوم. دون أية مادة غذائية أخرى، فسيبلغ ثمن التسعين رغيفاً (2700) دينار، أي ما يعادل راتب رب الأسرة كاملاً تقريباً.

فهل يمكن للإنسان أن يحيا برغيف خبز واحد يومياً؟

إذاً: الجوع هو الناتج الجبري لحالة الحصار... الأمر الذي اضطر المثقفين بخاصة الأدباء وأساتذة الجامعات، إلى بيع مكتباتهم، بعد أن باعوا الغالي والنفيس في بيوتهم!

وصار مألوفاً رؤية هؤلاء في سوق السراي (شارع المتنبي) يبيعون كتبهم على تلك الأرصفة، شيئاً، شيئاً، حتى إذا استنفدوا ذلك، راحوا يبيعون مصوغات زوجاتهم، حتى خواتم الزواج، ثم أثاث بيوتهم قطعة قطعة... وبلغ سوء الحال ببعضهم إلى خلع شبابيك غرفهم وأبوابها لبيعها تباعاً، وهدم بعض المواطنين أكثر من غرفة لبيع موادها كالطابوق وحديد التسليح، فقط من أجل أن يوفر الحد الأدنى من الطعام لأسرهم.

وترك بعضهم وظائفهم عنوةً ليمارسوا أعمالاً لم يعتادوها فقد بات (مألوفاً) أن يرى إلى الأدباء والأطباء والمهندسين وحملة الشهادات العليا وهم يعملون كباعة مفرد في الأسواق المجاورة للأسواق المركزية ببغداد والمحافظات، أو يشتغلون سواقاً لسيارات الأجرة، أو باعة للسكائر (المفرد) أو الخضروات! حتى شهدت شوارع بغداد صوراً لا تحصى لأسماء عراقية لامعة تحاول التقاط مورد عيشها من الشارع مباشرة:

اشتغل القاص والروائي موسى كريدي (رئيس تحرير الموسوعة الصغيرة والمدير العام السابق) سائقاً للأجرة بسيارته الخاصة حتى وفاته بالجلطة القلبية عام 1996، وكذلك فعل الناقد المسرحي علي مزاحم عباس. وباع القاص الروائي أحمد خلف (عضو هيئة تحرير مجلة الأقلام) المجلات والكتب القديمة بعد أن باع مكتبته! واضطر الشاعر والباحث التراثي منذر الجبوري (سكرتير تحرير مجلة الأقلام سابقاً) إلى تحويل أوراق كتبه إلى(أكياس) لبيعها على أصحاب الحوانيت ويدفع بأولاده إلى بيع السكائر في الشارع كي يسهموا في توفير الطعام لأنفسهم!

تقول (بيداء إحسان فتحي – 28 سنة) إنها كانت تتقاضى مرتباً جيداً من عملها في قسم العلاقات الخارجية للاتحاد العام لنساء العراق، تضاءل إلى (نصف جنيه استرليني شهرياً) بسبب الزيادة الهائلة في معدل التضخم وارتفاع أسعار المواد الغذائية إلى (370) ضعفاً.

ففي مقابلة نشرتها بمجلة "ماري كلير" النسائية البريطانية تضمنــت تقريراً عـن حالة النساء المثقفات العراقيات في ظل الحصار[30] تحدثت (بيداء) بحسرة عن حياتها السابقة وسفراتها إلى أوربا كل سنة، أما الآن فهي تقاسم أمها وشقيقتها (لينا) غرفة نوم واحدة بعد أن اضطرت العائلة إلى بيع أثاث المنزل ومفروشاته، لأن الدخل الشهري للعائلة لا يتجاوز الـ (16) ألف دينار (يساوي 10 جنيهات إسترلينية)

تقرير (ماري كلير) معزز بالصور، ويعرض شهادات حية أخرى تكشف التحولات العميقة التي طرأت على حياة (فئات) المثقفات والمثقفين، والتي كانت حتى نهاية الثمانينات في رفاه نسبي فأصبحت الآن، تعاني الفقر والجوع، إضافة إلى مشاعر اليأس والإحباط.

....

....

■ معروف أن القرار الرقم (986) الصادر في نيسان – ابريل – 1995 والمعروف بصيغة "النفط مقابل الغذاء والدواء" لا يمكن – عند تطبيقه كاملاً – حل مشكلة الجوع إلا سطحياً! فبالنسبة للغذاء كان العراق يستورد حوالي 75 – 80 ٪ من حاجاته من السعرات الحرارية في العام 1989 وبمبلغ مقداره حوالي بليوني دولار أمريكي سنوياً.

الآن المبلغ المخصص للغذاء حسب القرار، وبعد سبع سنوات من الحصار والزيادة في عدد السكان يقرب إلى حوالي (1.7) بليون دولار سنوياً[31]

ومن المعروف أن الحرب العراقية – الإيرانية قد وضعت قيوداً هائلة على اقتصاد العراق حيث قدرت التكاليف التي تكبدتها بغداد بسبب تلك الحرب بحوالي

---

[30] انظر: صحيفة الحياة – لندن – الأحد 11 آيار – مايو ـ 1997 الموافق 5 محرم 1418 هـ / العدد 12490

[31] انظر: جريدة الحياة – لندن – الأحد 11 أيلول – سبتمبر 1996 الموافق 18 ربيع الآخر 1417 هـ العدد 12242 من دراسة أعدتها "الهيئة الاستشارية العراقية "بعنوان: "قراءة نقدية لقرار النفط مقابل الغذاء".

452.6 دولار أمريكي بما في ذلك الأضرار التي لحقت بالبنية التحتية وخسائر عائدات النفط، وخسائر الدخل القومي العام.

بالإضافة إلى ذلك – بلغت الديون الخارجية وحتى بدء حرب الخليج الثانية حوالي (80) مليار دولار أمريكي، نصفها كان العراق مديناً به لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، أما (الثلاثون) ملياراً المتبقية فكانت ديوناً قصيرة الأجل لأوربا واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، والتي يتعين على العراق تسديدها إذا حصل على مساعدات اقتصادية مستقبلاً.. أما العشرة مليارات دولار الأخرى، فهي الديون التي أضافها الاستمرار في الإنفاق على الأسلحة عالية التقنية بعد الحرب العراقية – الإيرانية.

وقد تضاعفت تلك الخسائر عدة مرات جراء حرب الخليج الثانية، الأقصر عمراً والأكثر تدميراً، علماً بأن العراق بحاجة لإعادة بناء واسعة على كافة المستويات تقدر تكاليفها بمئة مليار دولار 70٪ منها يجب أن تدفع بالعملة الصعبة!

ومع نهايات حرب الخليج، أخبرت الحكومة العراقية، الأمم المتحدة بأن ديونها الخارجية للمؤسسات الغربية وصلت إلى (42.1) مليار دولار، وتضع هذه الديون عبئاً غير عادي على مقدرة العراق لإعادة بناء اقتصاده على مدى العقد المقبل بخاصة على ضوء الالتزام المفروض عليه لدفع 30٪ من دخله النفطي لصندوق التعويضات التابع للأمم المتحدة!

وفي حال اسقاط كافة العقوبات والمطالب بالتعويضات/ الآن (1997) /وهذا احتمال متفائل جداً وغير واقعي،فإن معدل النمو الاقتصادي لعام 1998 سيكون منخفضاً لدرجة أن العراق لن يستعيد حتى العام 2008 مستوى الدخل القومي (الوطني) الحقيقي لعام 1980 كما أنه لن يكون بمقدوره حتى العام 2016 استعادة الدخل الوطني العام للفرد!

وتحت أكثر الظروف "سلبية" فإنه سيتم استعادة عائدات النفط، إذا كُرست نسبة 25٪ من تلك العائدات للمشتريات العسكرية وبعد اقتطاع 30٪ للتعويضات فإن كلاً من الدخل الوطني العام والدخل الفردي سيكونان سلبيين، الأمر الذي يعني أن مستويات عام 1980 لن تعود في المستقبل المنظور، وأنه سيتم تقليص نسبة

التصدير بالنسبة للدخل الوطني العام بصورة أساسية، وأن مستويات المعيشة ستستمر في هذا التدهور!

وعلى ضوء هذه القيود فالاحتمال الأرجح بقاء العراق (أمة محرومة!) نسبياً بالمعايير الاقتصادية وعلى مدى سنوات طويلة قادمة[32]

وبصفته دولة (محرومة!) اقتصادياً، بالنسبة للدول النفطية الأخرى، فإن العراق سيبقى (دولة فقيرة) على مدى العقد المقبل، وسيكون لذلك تأثيره الاقتصادي والنفسي على الصعد كافة وبخاصة على وضع المثقف والثقافة في العراق.

في حال (رفع الحصار) – وهذه أمنية متفائلة أخرى، مرهونة بعوامل ومتغيرات كثيرة داخلية واقليمية ودولية – وفي حال انتهاج العراق سياسات اقتصادية (عقلانية) وأكثر نجاحاً في المستقبل، وفي حال توفر نوايا دولية حسنة، وإعادة اندماج العراق بالمجتمع الدولي، ووجود سياسة (الباب المفتوح) تجاه شركات النفط الأجنبية (للوصول) إلى أقصى حد من الاستثمارات الهادفة زيادة الإنتاج والتصدير لتعويض الأضرار التي لحقت بصناعة النفط على مدى السنوات الماضية، وإعادة تأهيل الزراعة، وإعادة تقييم الدينار ليتمكن العراق من الاندماج في نظام (السوق الحرة) العالمي،..

تحت هذه الشروط (العولمانية) فقط، – حسب راند – سيتحسن اقتصاد العراق، ويكون واحداً من أكثر الاقتصاديات الواعدة بالمنطقة، (إذا) سمحت (السياسة) للعراق بتطوير اقتصاده الواعد بشكل فعال!!

فمن الجدير بالذكر أن آخر التقديرات تضع احتياطي العراق النفطي عند حوالي (312) مليار برميل وهو ما لا يوازيه احتياطي أي بلد نفطي آخر!...

ولهذا تضع بعض التقديرات حجم الاستثمارات اللازمة في قطاع النفط الوطني عندما يصل إلى (30) مليار دولار على مدى عشر سنوات لفرض إصلاح خراب الماضي، ولتصعيد السرعة الإنتاجية إلى (6) ملايين برميل يومياً.

ولكن هل (سيسمحون) للعراق بذلك؟ لنرى إلى وجهة النظر التالية:

---

[32] انظر: دراسة مؤسسة "راند" التابعة لمعهد أبحاث الدفاع الوطني الأمريكي – والمنشورة تباعاً في جريدة (القبس) الكويتية ابتداءً من 1993/5/25 بقلم: (غراهام أي، فوللر)

(يتوقع أن تكون آثار القرار 986 على الصناعة النفطية محدودة نسبياً. صحيح أن القرار سيكسر الطوق الخانق الذي فرضته المقاطعة على صناعة النفط العراقية طوال السنوات الماضية، وسيسمح بالاتصال بالشكل الرسمي والعلني مرة أخرى مع شركات النفط العالمية، ويستطيع العراق أن يستعيد ثانية جزءاً من حصته من الأسواق التي خسرها منذ العام 1990 لكن (المشكلة الكبرى) تبقى في (عدم السماح) بتطوير الصناعة النفطية بشكل طبيعي واعتيادي كي تأخذ محلها المناسب مرة أخرى ضمن الصناعة والسوق النفطية العالمية).

– لماذا؟/ في الدراسة التي أعدتها "الهيئة الاستشارية العراقية" المشار إليها سابقاً – الحياة العدد 12242 –/: (يعزى ذلك لأسباب عديدة، هناك أولاً: القيود والإجراءات العديدة التي فرضتها" لجنة العقوبات التي لا تترك مرونة كافية لمؤسسة تسويق النفط العراقية لتوقيع عقود تنافسية تساعدها على العودة إلى أسواقها التقليدية.

لكن الأهم من هذا، ثانياً: عدم التمكن من تطوير قطاعي الاستكشاف والإنتاج النفطي، أي ان طاقة العراق الإنتاجية ستبقى محدودة ومحصورة بما هو متوافر لها الآن وهو حوالي (2) مليون برميل في اليوم في أحسن الأحوال. وبالتالي ستبقى نتائج المفاوضات والاتفاقات التي جرت خلال السنوات الماضية مع الشركات الأوربية والآسيوية وحتى الأمريكية معلقة وغير قابلة للتنفيذ مادامت الترتيبات والقيود الناجمة عن القرار قائمة ونافذة، وهذا يعني أنه بدلاً من أن تكون طاقة العراق الإنتاجية في حال تنفيذ المشاريع المطروحة والمتفاوض عليها بحدود (5) إلى (6) ملايين برميل يومياً، فإن هذا الهدف لن يتحقق إلا في نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بدلاً من هذا العقد كما كان مقرراً ومخططاً له سابقاً، وسيترتب على ذلك فقدان أسواق متاحة الآن، وخسارتها لمنتجين آخرين، ثانياً، خسارة بلايين الدولارات مما كان سيجنيه العراق من بيع نفطه لو جرى استخدام طاقته الإنتاجية، وثالثاً: إطالة مدة الديون ودفع التعويضات إلى عقود طويلة لمحدودية الأموال المتوافرة من ناحية ولضخامة الالتزامات المفروضة، ورابعاً: يتعذر

توظيف وتشغيل المئات من الفنيين والمهنيين العراقيين الذين يعانون الآن من البطالة مما يدفعهم إلى الهجرة)

المثقف والأسرة (الموت والحياة):

■ أدى الحصار إلى انهيار الاقتصاد المحلي وزعزعة الأركان الأساسية للمجتمع العراقي وإلى فقدان المواطن لأمنه الاقتصادي والاجتماعي.

يشير تقرير لمنظمة الصحة الدولية إلى نقص مقداره (50٪) في معدات المختبرات واحتياجاتها، وانخفاض عدد العمليات الجراحية عن مستواها ما قبل 1990 بنسبة 60٪ وأن 4500 طفل عراقي يموتون شهرياً بسبب نقص الدواء والغذاء، كما تلاشت الرعاية الصحية الأولية التي كانت متوفرة لحوالي 90٪ من الشعب العراقي.

وانخفض الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 75٪ عما كان عليه قبل العام 1990 وأصبح يوازي ما كان عليه في العام 1940، وأن 80٪ من العراقيين باتوا غير قادرين على الحصول على أبسط الاحتياجات الغذائية، إذ أدى التضخم وتدهور قيمة الدينار الحقيقية إلى تدهور الراتب الحكومي والأجور ورواتب المتقاعدين وادخارات المواطنين التي وفروها في السنوات الماضية، فالدينار العراقي الذي كان يساوي 3 دولار ونصف الدولار هبط إلى أكثر من 3000 دينار لكل دولار واحد نهاية العام 1995 ثم ليرتفع بشكل نسبي إلى 1700 دينار دون أن تنخفض أسعار المواد الغذائية والاحتياجات الإنسانية والخدمات.

وانتشرت البطالة والجريمة والتهريب والفساد والبغاء والتشرد... وأصابت هذه الأمور غالبية المواطنين، كانت منهم الطبقة الفقيرة أو المتوسطة، في الوقت ذاته برزت (طبقة) جديدة تعتمد في (ثرائها) على الفساد والامتيازات التي تجنيها من (الخدمات الممنوعة).

إن القرار (986) – وكل قرارات الأمم المتحدة! – عمقت عملياً هذه الظاهرات، ولم تتعامل معها جدياً بل ان القرار (986) الذي يفترض أن (يوفر) الغذاء والمستلزمات الإنسانية، لا يوفر أية ضمانات لمنع التلاعب والفساد من

جانب (الفئات) التي (تحتكر) التجارة الداخلية للبلد، وتجيد (فنون) التحايل على (الأمم المتحدة)، كما تتلاعب على (المنظمات غير الحكومية) وتستحوذ على (المعونات) التي تقدمها للبلد وتدفع بها للسوق السوداء، لتباع لصالح هذه الفئات الجشعة بدلاً من توزيعها بشكل عادل على الشعب المنكوب!

إزاء ذلك... أيضاً، وبالحتم إزدادت معاناة المثقف الذي حتى على سبيل الجدل والنقاش لم يعد يؤمن بالاحتمالات و (الامتيازات) المشروطة بـ (إذا) (صار العراق) و (إذا) وافقت السياسة الدولية و (إذا) فك الحصار! لأنه راح يتعاطى معطيات الواقع المر أكثر من الأرقام والاحصائيات، فالمعلومة الرقمية مهما كانت جارحة وحادة ومؤلمة، لا توازي عمق الواقع وحدته وآلامه فالأرقام باردة، لكن أرض الواقع دامية وجحيم من حيث الأذى الذي لحق بالمجتمع، بخاصة: الجوع.

ومع ذلك..

سنبدأ بهذه المقاربة الرقمية التي لا توازي النظر إلى المستقبل القاتم، وتشير إليه:

بلغت نسبة المتسربين من الطلبة 43.4٪ بينهم طلبة ماجستير ودكتوراه، والسبب هو عجز أسرهم عن تلبية احتياجات تعليمهم ومستلزمات تأهيلهم المعرفي والعلمي لتفاقم حاجة الأسرة إلى مزيد من الأيدي المنتجة حتى لو تحولت إلى (بروليتاريا رثة) أو حتى إذا وصلت إلى مرحلة (ما بعد الرثاثة!) و (الميتا) رثاثة!! كي تأتي بالرغيف الإضافي لسد جوع أحد الأفواه بشكل مؤقت وغير صحي!

وليس سهلاً أبداً على رب الأسرة مهما كانت فئته الطبقية أو الوظيفية أو مستواه الثقافي أن يرى إلى طفله واقفاً الساعات الطوال عند إشارات المرور لبيع السكائر المفرد، أو الصحف أو العلكة أو ورق التنظيف (الكلينكس!) – أو أن يمد يده بالسؤال!...

إن لم تكن الأسرة تحت طائلة الجوع بحيث (تحتاج) فيه إلى (اللقمة) كي تدرأ الموت جوعاً، وتؤجل المعرفة والعلم وحتى تعلم الحرف.

عديد البنات انقطعن عن الدراسة ليشتغلن خادمات في البيوت، أو يتزوجن مبكراً.. كي لا يسقطن بحكم الحاجة في إغراء الانحراف والبغاء.

ولم تعد متطلبات الدراسة، والمدرسة، والجامعة.. يسيرة!. بل هي تثقل كاهل الأسرة.

لقد اشتغل معلمون كُثر، وموظفون متقاعدون في أعمال لا تناسب أعمارهم ووضعهم الصحي، ومكانتهم الإعتبارية الاجتماعية.. لأن القفزة الهائلة في أسعار المواد الغذائية – وحدها – كفيلة بجعلهم يموتون جوعاً، إن لم (يقاتلوا) في العمل حتى لو كانوا يحتضرون!

الضنك المعيشي ترك آثاراً وتداعيات في متوالية لا تنتهي، من الضنك الصحي، النفسي.. لقد مات أدباء كبار، بسبب عجزهم عن تلبية ثمن العلاج أو الدواء.

ماتوا.. لأنهم تركوا وحدهم (يقاومون) الجوع والفقر والمعاناة والمرض!

ازدادت وتائر حالات العجز الأسري..

وانكفأ المثقف وأسرته على أنفسهم، في عزلة اختاروها، لأنهم لم يعودوا يستطيعون فتح أبواب بيوتهم لاستقبال أحد.. والسبب هو العجز في المقتضيات، وعدم الرغبة في أن يطلع الآخرون على بيوت خاوية حتى من الكتب، التي بيعت، بعد أثاث المنزل وأدواته، أو قبلها..

وباتت "العزلة" ظاهرة عامة. وقد لا يلتقي البعض، إلاّ في الفواتح والمآتم وبالكاد.. هؤلاء الذين كانت بيوتهم مفتوحة الأبواب على مصاريعها، باتوا لا يخجلون من الانكماش والشكوى، وبعضهم لا يتحرج من طلب/ أو قبول مساعدة الأشقاء..، أو الأصدقاء، وبخاصة ممن توفر على عمل خارج العراق،..

إن هذا الحال يشكل ضغطاً إنسانياً شديد الوطأة على نفوسهم، وينعكس سلبياً على أسرهم، ويحد من إبداعهم، إن لم يقتله تماماً.

ولا أحد يتفقد أحداً.. كما كان الحال سابقاً، فالحرب باعدت، والحصار باعد أكثر، بين المثقفين، إلاّ ما ندر.. أتحدث هنا عن الغالبية (المسحوقة) من كادحي الفكر وشغيلته، ولا أتحدث عن أولئك الذين يدفعون ثمن (امتيازاتهم) من حصة كرامتهم وكرامة الكلمة وشرفها وصدقها وحريتها.

إنكفأ عديد المثقفين على أنفسهم لأنهم لا يملكون أجرة النقل من محال سكناهم إلى أي منتدى ثقافي كانوا، فيما سبق من رواده، فتعطلت أنشطة الثقافة وانحسرت حماسة حضور الفعاليات بل تدنت الأنشطة نوعاً وكماً.

وبات حصار المثقف في بيته وأسرته موجعاً، ومضاعفاً، للذات أولاً، وبسبب قسوة المشهد الحياتي اليومي المتراجع – أمام ناظريه، وبين أسرته، ثانياً.. فازداد توتر المثقف في بيته، وفلتت أعصابه أو أرهقت، تماماً، كما أرهقته ضغوط الحياة ومتطلباتها، فهو مكبل وعاجز حتى في التعبير عن حاله وحال أسرته ووطنه.

و "الحديث" لم يعد في الهم الثقافي الفكري بين المثقفين، إذا تم اللقاء، وأي لقاء! بل هو في "الشأن العام" في واجهته الاقتصادية، وأولوياته: الشأن المعيشي: الغذاء، الأسعار، الدولار وفنتازيته، و"التصريحات" التي تصعد من الفاجعة، وتعمق في المحنة.

لقد رحل عالم الاجتماع والكاتب المعروف الدكتور علي الوردي، الذي باع حقوق مؤلفاته كلها، مدى الحياة، في محاولة يائسة منه كي ينقذ نفسه من (السرطان) الذي نخر جسده...، إذ كان عاجزاً عن تغطية أجور علاجه في الأردن..

ومات الناقد الكبير والأستاذ الجامعي الدكتور علي جواد الطاهر، بعد أن لاحقه (السرطان) أيضاً، بعد أن انتظر طويلاً السماح له بالسفر والعلاج خارج القطر.. وحين سافر، ففي الوقت الضائع. لأن نقص الدواء والمستلزمات الطبية، حتى مادة التخدير، وتعطل الأجهزة، وعدم توفر الأدوات الاحتياطية، جعلت المستشفيات العراقية في حالة يرثى لها.

ومات العلامة محمد بهجت الأثري، بسبب الوحدة والإهمال بعد أن رحلت زوجته إلى أبديتها قبله.

ومات الروائي والناقد والمترجم المعروف جبرا إبراهيم جبرا، بسبب نقص الدواء..

وكذلك مات عالم الآثار اللامع الدكتور وليد الجادر، والشاعر المتميز رشدي العامل، والكاتب الصحفي فرات الجواهري (النجل الأكبر لشاعر العرب الأستاذ

محمد مهدي الجواهري، الذي مـات هـو الآخـر، بعـد أشـهر، في دمشـق ودفـن في "مقبرة الغرباء" كما أطلقوا على المكان!..

كذلك رحل الروائي محمود جنـداري أحـد مجـددي القصـة والنـص السـردي الحديث، والشاعر الناقد الدكتور محسن أطيمش، الذي رحل شاباً، والروائي محمـد شمسي، والقاص موسى كريدي، والقاص عيسـى اسمـاعيل، والبـاحث أحمـد فيـاض المفرجي، والشاعر رياض إبراهيم، ومات الشاعر خليل الخوري وهو يعاني أيضاً..

كما رحـل فنـانون رواد: حـافظ الدروبـي، عطـا صـبري، أكـرم شـكري،.. ومات بعيداً عن وطنه، في باريس: فائق حسن، كما مات قبله في الغربة د. خـالد الجادر، وبعده الشاعر مصطفى جمال الديـن وبلنـد الحيـدري، ومـات في مستشـفى الخالدي (أواخر آب 1997) الفنان محمد علي شـاكر.. أيضـاً.. وكـان العـراق قـد فقد عديد فنانيه أيضاً: المصور الفوتوغرافي البارع جاسـم الزبيـدي، والرسـام مقبـل جرجيس، والمخرج السينمائي صاحب حـداد، والممثـل المعـروف طعمـة التميمـي، وعبد الجبار كـاظم، وغـازي التكريـتي، وسـليم البصـري (الحـاج راضـي) والفنانـة الموسيقية (البيانيست): بياتريس أوهانسيان.. والرسام البصري محمـد راضـي العبـد الله.. والقائمة تطول..

وهكذا يموت المثقف حـال مرضـه، أويـرى زوجتـه أو ابنـه أو ابنتـه في حـال المرض حتى الموت، وهو عاجز، مهما تشبث وحـاول.. عـن إنقـاذه أو إنقاذهـا.. كما حدث لعديد المبدعين: الشاعر حسب الشيخ جعفر في زوجتـه، وكـاتب هـذه السطور في زوجته أيضاً، والمبدعة لطفية الدليمي في زوجهـا.. مات أبناء،

ورحل أشقاء، وأحبه..

ولا زال آخرون يعانون، فقد أصيب بالشـلل الروائـي – القـاص عبـد الخـالق الركابي، وبات عاجزاً عـن النطـق والحركـة القـاص – الروائـي غـازي العبـادي.. واتسـعت ظـاهرة الأمـراض المزمنـة كارتفـاع ضغـط الـدم وعجـز القلـب والعجـز الكلوي، و لم تسعفهم، حتى تلك المساعدات (الشـخصية) النبيلـة، لأنهـا لا تغطـي الحاجة، ولا تصلح ما أفسده الحصار في النفوس والأبدان.

ومهما جئنا بأمثلة، فإن عشرات غيرها موجودة، حية وصارخة، في الوسط الثقافي/ الأدبي والفني/ وتتسع القائمة لتشمل الآلاف وأكثر في الأوساط الثقافية متنوعة الإختصاصات، ولم تعد "الأرقام" هنا، بجدية.. لأن هذه الظاهرة من الوضوح والاتساع بحيث يمكن تعميمها على الشعب كله، وإنما خصصنا الإشارة لبعض الأعلام المشاهير، استشهاداً وليس حصراً..

■ (تمر المحطات..

....

وتهمس لي:

وطني..

في المحطة (س)

يواجهه المخبرون،

يعتقلون قصائده والفراشات

آماله والحرائق..

أطفاله الجائعين..)

■ "إن أطفال العراق يعيشون بلا طفولة"، كذلك أكدت الفرق الإنسانية التي زارت العراق في ظل الحصار، وعبر "اليونسيف"، وهذا ما يؤدي، في الغد، إلى تراجع المجتمع العراقي.

فبسبب الوضع المعيشي الصعب، وازدياد نسبة التسرب بين الطلبة فإن أطفال بغداد الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة أعوام وأربعة عشر عاماً، والتي تشكل نسبتهم ما بين 30 – 40٪ من أطفال العراق يعملون في ورشات تصليح السيارات، ودباغة الجلود، وصناعة الأثاث، وبيع السكائر، وقطع الحلوى، وهم يلاقون معاملة قاسية للغاية من "الأسطوات" أو ممن هم أكبر سناً منهم، كالضرب والشتائم والألفاظ البذيئة بل يتعرضون، أحياناً، للإعتداء الجنسي والاغتصاب. إلى جانب تدني أجورهم وزيادة عدد ساعات عملهم التي تصل أحياناً إلى 14 ساعة عمل، بله واجباتهم القاسية والخطرة التي تسبب بإعاقتهم مبكراً، إن لم تعقهم نفسياً!

إن غالبية هؤلاء الأطفال أدمنوا التدخين وشرب الخمور وإن طريقهم هذا سيقودهم إلى الانحراف مبكراً على خطى أعداد غير قليلة من أصحاب الورش الذين يمارسون مع هؤلاء الأطفال الأساليب غير الأخلاقية مستغلين ضعفهم وحاجتهم إلى النقود.

فبسبب الحربين والحصار وعوق الكثير من الآباء والأبناء الذين كانوا مسؤولين عن إعالة أسرهم، والوضع الاقتصادي الصعب حيث تحتاج الأسرة إلى عدة مصادر لإعالتها، فإن عدداً من المعلمين أيضاً غادروا المدارس كالأطفال، ووجدوا لهم أعمالاً حرة في المطاعم ومحلات بيع الملابس والمواد الغذائية على الأرصفة، أو سائقي سيارات أجرة - كما أشرنا سابقاً -

إن الخطورة تكمن في نمو ظاهرة العمل المبكر وترك الدراسة، حيث ستظهر (طبقة) من الأميين والمتخلفين اجتماعياً وثقافياً، ولكنهم على قدر من الكفاية المالية والتفوق، كما هو الحال في سيادة هذه (الطبقة) الآن على التجارة والسوق في بغداد بخاصة.

■ وعلى المستوى المعيشي، فطوال الأعوام الماضية تركز اعتماد المواطنين، وبخاصة الموظفين، على البطاقة التموينية.. وتشير تقديرات الاختصاصيين إلى أن البطاقة لم تكن توفر للفرد الواحد سوى 800 سعرة حرارية و17 غراماً من البروتينات لليوم الواحد، وهذه الكميات لا تغطي أكثر من ربع إلى ثلث حاجات الفرد المتوسط إلى السعرات الحرارية والبروتينات المطلوبة. وبسبب ما يوفره تنفيذ القرار 986 من موارد إضافية تقدر عند حدود 933 دولاراً سنوياً لكل أسرة - إذا نفذت كما مقرر لها - فإن صياغة لبطاقة تموينية جديدة تحتوي على كميات إضافية من المواد الأساس كالطحين والسكر، كان أمراً مفروغاً منه، كذلك ينبغي لهذه البطاقة أن تتضمن بعض العناصر الإضافية التي تعتبر مستلزمات اعتيادية للأسرة العراقية كاللحوم الحمراء والدجاج والبيض ومعجون الطماطة والحليب المجفف.. إلى جانب حاجة الأسرة إلى بعض الأدوية الأساسية والمستلزمات الطبية.

إن عجز العراق الغذائي تصاعد بقوة على مدى العقود الثلاثة الماضية حيث تجاوز حافة 75٪ بالنسبة للأغذية الأساس مع حلول عقد التسعينات..

وبخصوص المستقبل، هناك تأثيرات الزيادة المستمرة لعدد السكان وحاجة البلد الهائلة إلى التعمير ولتسديد الديون الخارجية - فضلاً عن الاحتمالات القوية لارتفاع أسعار الغذاء في العالم، أو حتى غياب بعض المواد الغذائية، وحسب التوقعات الجارية، ينتظر أن يصل سكان العراق إلى 46 مليون نسمة في العام 2025/ مما يعني تقدم النمو السكاني بنسبة 120٪ بين عام 1995 وعام 2025..

من هنا فإن العراق مهدد بالمجاعة التامة والقحط إن لم ينجز سلسلة من المشروعات الزراعية ذات الكفاءة، والزراعية - الصناعية، لتحقيق وتائر التنمية بما يحقق التطور التدريجي في مستوى الأمن الغذائي وحاجة المواطنين.

كذلك لا بد أن تتصاعد وتائر التخصيصات الاستثمارية في مجالات الري والبزل واستصلاح الأراضي وخزن المياه والارشاد الزراعي والتثقيف الريفي - الصحي، والتطوير التقني، وإنجاز مسح شامل محدث لأوضاع العراق الزراعية من أجل استكمال استراتيجية إنماء فاعلة لإحياء الزراعة والثروة الحيوانية، لا سيما أن العراق ينعم بإمكانيات هائلة لإنتاج الحبوب والمخضرات والفواكه، فضلاً عن قدراته المشهودة للإنتاج الحيواني - الأسماك بخاصة -

إن الحصار يعطل كل هذه الطموحات التي تنعكس نتائجها على الأسرة مباشرة، وعلى الكفاءات التي ستقع في شباك العطالة، عملاً وتدريباً، وزيادة معارف،..

....

■ أما على مستوى معاناة المرأة الشاملة، واستكمالاً للتقرير الذي نشرته مجلة "ماري كلير" فإن الزواج أصبح حلماً بعيد المنال بالنسبة إلى المرأة العراقية بسبب ارتفاع كلفته، وتؤدي فترات الخطوبة الطويلة إلى ارتفاع حالات الولادة غير المرغوب فيها لكون الإجهاض محظور في العراق، إذ يعاقب الطبيب الذي يجري الإجهاض لمدة ستة أشهر بلا ممارسة مهنته ويحكم بالسجن في حال وفاة المرأة.

وتتضاعف المأساة بالنسبة إلى (900) ألف امرأة من الأرامل اللاتي فقدن أزواجهن في الحرب العراقية الإيرانية، بين هؤلاء (ناديا دانييل - 40 سنة) التي تعيش مع أمها وابنتها "ميسا" (20) سنة ولا يزيد ما تتقاضاه عن عملها كسكرتيرة

على 3 آلاف و600 دينار شهرياً، وقد اضطرت إلى بيع خاتم الزواج مقابل (26) ألف دينار (16 جنيهاً استرلينياً) كي تشتري ملابس لابنتها.

تقول لمجلة "ماري كلير" : "بعت معظم المجوهرات والتحفيات والأثاث لنتجنب المجاعة".

وتعترف سليمة محمد نوري – 39 سنة – التي تعمل في وكالة الطاقة الذرية العراقية أنها كانت تعيش وضعاً أفضل بكثير بالمقارنة مع غيرها من النساء، ولم تتوقف شهرياً عن الذهاب إلى صالون الحلاقة حتى عام 1993. وهي الآن تستخدم وصفات شعبية تقليدية بدلاً عن مستحضرات التجميل المستوردة وبدأت تشكو من تزايد التوتر في حياتها الزوجية بسبب التشاجر على أمور مالية، وهي وزوجها من الفئة المثقفة وحملة الشهادات.

...في الجولة التي أجرتها هذه المجلة، في بغداد، انتهت إلى مشهد أكثر إيلاماً في (مستشفى مدينة صدام في الحبيبية) حيث وقفت (داميا فاضل) – 18 سنة – تبكي بصمت بجوار جهاز حضانة عاطل يرقد فيه طفلها الأول (كارا حيدر) الذي يبلغ من العمر (ستة أيام)، كان جسمه يميل إلى الاصفرار بسبب اليرقان، ويتنفس بصعوبة، هز الدكتور فتاح السوداني رأسه بأسى قائلاً: "الأطفال يموتون بسبب عدم توفر الأدوية!" (كارا لن يعيش)..

هذه المجلة قدمت مشهداً من معاناة (الطبقة الوسطى) في العراق في ظل العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحدة منذ أكثر من سبع سنوات،

ووضعت "ماري كلير" عنوانات صاخبة ومثيرة وموجعة:

- مآسي العقوبات على العراق: 10 جنيهات استرلينية دخل العائلة شهرياً.
- عراقيات يبعن خاتم الزواج وأثاث البيت لتجنب المجاعة.

■ وفي شهادة كتبتها الكاتبة البحرينية فوزية رشيد إثر زيارتها لمهرجان المربد الشعري عام 1996، نشرتها "أخبار الأدب"/ تشرين الثاني – نوفمبر – 1996"، وصفت الطريق إلى بغداد، ثم حين وصلت الفندق مساءً، ووجدت في الصالة بعض الكتاب والأدباء الذين تعرفهم (والذين لا تعرفهم) كان (الحديث الأول حول

وضع الشعب العراقي وما سببه الحصار من ارتفـاع الأسعار وشحة الأدوية ومن عدم وصول الكتب والمجلات..الخ

(إنهم العراقيون – تقول فوزية – إذاً أمامنا ولكنهم هنا: الكتاب والفنانون والشعراء: حزن مكابر على الوجوه، ومحاولة جاهدة لإبعاد انفعالات الكآبة بقدر الإمكان ليحل محلها فرحهم الداخلي بلقاء من يجيء إليهم، ولكنه الهمس الضارب في جذور الخوف.. هناك كآبة قاتلة وحزن دفين ومعه ينبثق الخوف.

تحدث أحد المتحدثين وقد كان شاعراً وتحول إلى (تجارة الكتب) في أزمة الحصار:

– روح الإنسان العراقي باقية كما هي!

قلت:

– أين هي هذه الروح؟ إنني لم أر قط حزناً كهذا الذي أراه على وجوهكم ولا تلامون على ذلك. كان الحديث يدور في مقر اتحاد الأدباء العراقيين:

وجوه الأغلبية يعلوها اصفرار ما، ربما من نقص الغذاء الذي وصل فيه سعر (لفافة البيض) إلى ثلاثمائة دينار فيما كانت الرواتب أقل من نصف ذلك!

قال مثقف آخر (شاعر):

– كل ما يباع بعناه.. لم يبق في البيت إلاّ ملابسنا.. هذا حال أغلب المثقفين اليوم تحت وطأة (الحصار)

حين قل عدد الموجودين قال كاتب معروف وكان صامتاً أغلب الوقت:

– نحن سعيدون بوجودكم معنا.. نتمنى أن تكون رحلتكم سعيدة!

– بل مليئة بالحزن، لم نأت لمجاملة، ولا ننتظر منك ترحيباً مجاملاً، جئنا لأننا شعرنا بواجب وجودنا معكم. ولأننا نريد أن نرى ونعرف ما يحدث حقيقة.

لماذا أنت صامت طوال الوقت؟

قال وكأنه يفضح سراً:

– لأنني خائف.. لا أريد أن أموت بسبب رأي وأنا لا أجد ما آكله؟

أنا غير راض عن أي شيء في العالم! .. العالم كله واقع في مزبلة التاريخ. ماذا يعني أن يموت شعب مكبل ومكمم لينال عقاب ما فعله به.

آه.. أيها الشعب العراقي العظيم.. ما الذي يحدث لك طوال التاريخ وما الذي يحدث لك الآن؟ أعزائي نحن محكومون بالحديد والنار من الداخل والخارج.

في تلك اللحظة شعرنا أن عمق المأساة تحكم حبالها على رقابنا.. فهذا أحد الكتاب والمبدعين يتلوى من الألم، قلت ربما هو في حالة لا تحتمل المزيد من معرفتنا المرفهة بآلامهم.. نحن المثقفين العرب! إنه كمن يحتضر

ومن المؤكد أنه نموذج، مجرد نموذج واحد لآلاف بل مئات الآلاف من المثقفين العراقيين وأولئك لديهم بعض الوعي.. فما حالنا وحال الشعب البسيط من أطفال ونساء وعجائز وهم في هذه المحنة القاتلة؟

إنهم يرون أطفالهم يموتون بين أيديهم كل يوم بسبب نقص الغذاء والدواء، النساء تولول بشجنها الرهيب

والرجال انكسر في داخلهم ما لم يستطع قبل هذا (الحصار) أن يكسره أي شيء!)

(انتهى كلام فوزية..)

......

■ إذاً أوضاع "الحَجر"، التقييد، هي: حالة الحصار. تبدأ بالمأساة وتنتهي بالصعيد نفسه. بات (الخبز) هدفاً نركض وراءه، كأنه ذلك القرص البعيد لشمس خارج الأفق، ينزل القرص إلى البحر أو خلف الأشياء ليختفي، فيعم الظلام

اختناق الثقافة، اختناق المثقف، وجهان للحصار.

يريدون أن يتوقف العقل عن الإبداع.. بل يتوقف كلياً، يموت، يشتغل خارج النص، هل جوهر الحصار يكمن في الترحيل؟ ترحيل الثروة، العقل، الطمأنينة، السلام الروحي، الطفولة، أيضاً وأولاً، خارج الحياة، إلى القبر أو إلى المنفى؟

الإبداع قرين الحرية، الاستقرار، الأمن، الديمقراطية..

والحصار نقيض ذلك.. إنه يعزل، يحبط، يفرط بالحزن، يفجع، يزيد من فردية الرؤى، ثم يخرب السلوك..

لأنه يشيع الخوف من الغد، يوتر العلاقة بين المثقف ومحيطه.

يزيد من وفي معاناة المثقف وأسرته.

يشيع أيضاً المنـاخ اللامبـالي، فتصير التنظيمـات الأدبيـة، الجمعيـات العلميـة، المنتديات الفنية، إلى الشلل، الضعف، التفكك، فالزوال.

الحصار خلق بمهارة (عدو) ذلك الضعف التام في ساعد التآلف، فطرد مفهـوم (الفاعلية) مـن المنظمـات والاتحـادات، كمـا الأشـخاص، فـأصبحت غـير منظـورة عملياً، لأنها معطلة، غير فاعلة، غير متطورة..

الحصار، بامتيازاته (السود)، ونظرته (السوداء) هو حصار لحرية المثقف وأمنـه وغده، لأنه حرمه من الحد الأدنى في العيش الكريـم، منعـه - بـاصرار - مـن حـق التفكير الحر والكتابة الحرة والإبداع الحر..

وهكذا دفعه إلى الهجرة:

أولاً خارج نفسه!

وثانياً خارج وطنه!

....

■ بل جعل حتى (الكنوز) الثقافية (تهاجر!)

إذ لا يزال مسلسل سرقة الآثار العراقية - مثلاً - وبيعهـا في الأسـواق العالميـة مستمراً، وما تزال جريمة الأبناء في حق الأجـداد ترتكـب يوميـاً علـى أرضنـا. فقـد أعلن رجال شرطة الآثـار في بريطانيـا عـن ظهـور آلاف القطـع الآثاريـة السـومرية والبابلية والآشورية المنهوبة في أسواق العاصمة البريطانية..

ولا يكاد مزاد للتحف الفنية، هذه الأيام، يخلو من قطع بابلية أصبحت مهددة بالضياع إلى الأبد، تماماً كالعقول.

إذ لا يتورع المهربون من لصوص الآثار عن تكسير التماثيل التي لا تقدر بثمن إلى قطع صغيرة حتى يتمكنوا من تهريبها بسهولة إلى خارج البلاد. وازدادت عملية استنزاف بقايا حضارتنا القديمة حتـى قـدر الخبراء عـدد القطـع الأثاريـة الـتي تمـت سرقتها من مواقع الحفر والتنقيب ومـن المتـاحف العراقيـة والمعروضـة الآن للبيـع في أوروبا بأربعة آلاف قطعة، من بينها عدد كبير من الأختام السومرية، اختفت داخـل بيوت هواة جمع التحف، وفقدت قيمتها الأثرية إلى الأبـد، لأن القطعـة الأثريـة إذا

عزلت عن موقعها و لم يعرف تاريخها فقدت قيمتها وأصبحت غير ذات قيمة للباحثين..

واستطاع الآثاريون التعرف على أجزاء من لوح مرمي (جدارية) محفورة من بقايا قصر الملك سنحاريب الذي حكم بلاد آشور في بداية القرن السابع ق.م، تم تقطيعها إلى أجزاء صغيرة.

كان دارسو التاريخ القديم للعراق لا يجدون أمامهم سوى ما جاء ذكره عن هذه البلاد في الكتب التوراتية، وما كتبه الرحالة القدامى، كهيرودت، وديو دورس الصقلي، واسترابو وبليني الأكبر.. إلاّ أن الوضع تغير بعد ذلك تماماً عندما بدأت محاولة ترجمة النصوص الآشورية عام 1802 على يد (جورج فردريك غروتفند) بجامعة (غوتنغن) الألمانية، و لم يتم حل رموز هذه اللغة إلاّ بعد ذلك بنصف قرن.

وعندما تمكن اللغويون من ترجمة كتابات الألواح الآشورية القديمة ازداد الاهتمام بأعمالنا كما تبحر الباحثون في التعرف على أسرار تاريخ أرض الرافدين القديم، وبدأت أعمال الكشف الأثاري على يد أول من عملوا في العراق (بول أميل بوتا) قنصل فرنسا في الموصل، الذي عثر على بقايا مدينة نينوى القديمة – عاصمة الآشوريين – بالقرب من البصرة وبها قصر الملك سنحاريب.

ومنذ منتصف القرن الماضي حتى نشوب حرب الخليج 1990 انتشرت بعثات التنقيب عن الآثار في كل جزء من العراق، تعمل في حوالي خمسمائة موقع للكشف عن أسرار الحضارة القيمة.

وبدلاً من أن نحافظ على بقايانا القديمة، ونعيد دراسة أجدادنا.. تم تهريب الآثار ومئات المخطوطات والأعمال النادرة واللوحات، في الحقائب الدبلوماسية!..
إنه جوع الجشع و(أثرياء) الأزمات والمحن.

الهجرة: المعاناة المضاعفة:

■ (وأما الذي ضاعَ منا
فقد ضاعَ في لحظة من نعاس..)
....

■ "إن الصابرين في الصحراء" يناشدون..

هذه العبارة وردت في "الإعلان" – المناشدة – النداء – الذي أطلقه المهندس عدي طعمة الفيصل (مدير مركز الرافدين المهني في مخيم "رفحاء" بلوك 14/ب/38 – السعودية!) والذي ناشد فيه (المهاجرين في الخارج) من أصحاب الإختصاصات وحملة الشهادات لدعم هذا المركز المهني، وتزويده بالمصادر والمناهج الدراسية ووسائل الإيضاح، كي يتمكن من تأهيل (الصابرين في الصحراء) بمخيم (رفحاء) في ميادين الالكترون – الكهرباء – تأسيسات ولف محركات – والنجارة والتبريد والتكييف واللحام والميكانيك العام، وميكانيك وكهرباء السيارات والتأسيسات الصحية، وقسم تشغيل وبرمجة الحاسب الآلي، والتفصيل والخياطة والإنتاج الحيواني والزراعي!

هذا النداء كفيل بتقديم حالة الإهمال التي يعاني منها (اللاجئون العراقيون) في تلك المخيمات، وأيضاً، يخلق انطباعاً إيجابياً عن روح العزيمة والرغبة العارمة في التأهيل والتطور المعرفي كي يكون – أولئك – ذوي مهارات تعينهم في الحياة، وتساعدهم في الاندماج بالمجتمعات التي سيرحلون إليها، وكي لا يكونوا عالة عليها!..

لكن.. لِمَ يهاجر المثقفون المؤهلون أصلاً، والعلماء والتخصصيون ذوو الكفاءات العالية، أو ما يطلق عليهم "العقول" المهاجرة!؟

حين تشتد معاناة المثقفين وأسرهم داخل أوطانهم، يبحثون، في العادة، عن منافذ عمل يديمون بها المستوى الحياتي اللائق، أو الذي كانوا قد اعتادوه..

المثقفون العراقيون، غادروا بلدهم بسبب الحصار، آثاره ومسبباته ونتائجه،.. وهي معاناة مركبة، تطال (المهاجر) وأسرته في آن، إذ ترك أغلب المهاجرين أسرهم في أشد حالات الضنك.

انعكست الحالة: كان المثقفون العراقيون في الداخل يقدمون العون لمن هم في الخارج من ذويهم وأصدقائهم..

الآن، انقلب الحال، إذ تجلت ظاهرة إرسال المساعدات الفردية حتى إلى المبدعين، بحيث لا يستطيع أي واحد منهم أن يضمن استمرار حياة أبنائه وأسرته

إلاّ من خلال تلك المعونات، مما ألقى عبئاً مضاعفاً على عاتق المهاجرين أو الباحثين عن فرص عمل

فالضغوط التي يعاني منها المثقف في الداخل، بسبب الحصار، وانعدام فرص الإبداع المجزي الذي يكفل له عيشاً كريماً وحراً، أُضطرت أعداداً كبيرة من العقول والكفاءات إلى الهجرة المضنية.

إذ ليس من السهل أن يهاجر المثقف وهو معوز أصلاً، بخاصة وأن متطلبات خروجه من العراق، من رسوم السفر إلى الكفالات النقدية، تقتضي صرف مبالغ طائلة وإجراءات معقدة، حد أن تفشت ظاهرة السفر بجوازات مزيفة. وبتغيير عنوان العمل أو التخصص. وكثيراً ما يضطر الأستاذ الجامعي أو الطبيب أو المهندس من تثبيت عنوان عمله "كاسباً" أو "أعمالاً حرة" الأمر الذي يعقد عليه عمله أو اشتغاله في التخصص في البلد الذي يلجأ إليه.

واشتدت معاناة المثقفين – المهاجرين، أكثر حين لم يجدوا العون خارج بلادهم وازداد إحباطهم داخل البلدان العربية حين حرم أكثرهم من حق الإقامة القانونية، وحق العمل بالاختصاص، بل إن بعض الدول العربية تمنع دخولهم إلى أراضيها حتى لو كانوا يحملون إذن الدخول (الفيزا) من سفارات تلك الدول! مما اضطر العديد منهم إلى (اللجوء الإنساني) لبلدان لا يرغبون العيش فيها إلاّ اضطراراً.

لقد بلغ عدد المهاجرين العراقيين، بسبب الحصار، إلى نيوزيلندة وحدها من حملة شهادة البكالوريوس فما فوق 80 ألف عراقي حتى العام 1997.

وتفخر دولة كالسويد بأن (عمال الخدمات) لديها هم من حملة الشهادات العليا وأغلبهم من (اللاجئين) العراقيين..

لقد فقد العراقيون الكثير من معالم الحياة بعد الحرب، وازداد ذلك في ظل الحصار، فبدأت موجات من الهجرة نحو مناطق لم تخطر على بالهم يوماً، وفي مغامرة محفوفة بالمخاطر حد الموت..

وتشير بعض المصادر الصحفية إلى تزايد عدد المهاجرين بحيث تجاوز الثلاثة ملايين، وإن نسبة غير قليلة منهم تحمل الشهادات العليا من أساتذة الجامعات

والمدرسين والمهندسين والأطباء وبخاصة أولئك الخريجين المتفوقين الشباب الذين لم يجدوا أية فرصة لعملهم داخل البلاد، بعد تخرجهم من الجامعات العراقية، وليس بإمكانهم – مادياً – إكمال دراساتهم العليا.. بل إن بعض المصادر تعتقد أن عدد المهاجرين تجاوز الستة ملايين حتى العام 1997.

لقد بلغ عدد الصحفيين والأدباء والفنانين الذين تركوا العمل وهاجروا منذ العام 1995 أكثر من سبعمائة وخمسين مبدعاً.. كانوا يعملون في الصحافة العراقية إلى جانب أفواج من ذوي الخبرة.

لقد لفت نظر أحد المعلقين، حين التحق الناقد طراد الكبيسي (رئيس تحرير مجلة الأقلام والمدير العام السابق لدائرة الشؤون الثقافية العامة) برهط المهاجرين، بعد استقالته من رئاسة تحرير "الأقلام" التي كان يتقاضى فيها راتباً – حسب عقد عمل – مقداره (10 آلاف دينار عراقي) ويساوي (5) دولارات فقط.

وأصبح "ثالث" رئيس تحرير لنفس المجلة يغادر العراق بسبب ضغط المعيشة، بعد د. علي العلاق، وحاتم الصكر..، والمفارقة أنهم الثلاثة نقاد لهم باعهم الطويل، فالتحقوا مع رهط النقاد من أصدقائهم وزملائهم: د. عبد الله إبراهيم/ ود. علي عبد الرضا/ و د. عبد الإله الصائغ/ و د. صالح هويدي/ و د. ثابت الآلوسي/ وفاضل ثامر، وياسين النصير، وعواد علي، وسعيد الغانمي، والجيل اللاحق عمراً وتجربة من شعراء ونقاد فن وموسيقى وأدب.. إلى جانب كتاب ومؤلفين لامعين في تخصصاتهم الأخرى، فالتحقوا بتلك القاعدة الواسعة من الأدباء والفنانين – في الحقول الإبداعية كلها والأساتذة، الذين هاجروا في فترات مختلفة منذ الحرب العراقية الإيرانية، وبعدها..

إلى جانب رهط العلماء وذوي الخبرة الذين أداروا المشاريع الانتاجية في حقول التكنولوجيا والتخطيط والطاقة والصحة والبناء، والفيزياء النووية، وسواها في السبعينات وما قبل وما بعد..

إن هجرة (العقول) وقذفها في الشتات، بعيداً عن أسرهم وملاذهم الاجتماعي الوطني، سبب لهم و لأسرهم مشاكل جمة، بل لقد مات بعضهم في الطريق إلى ذلك (الفردوس – الوهم) المنفى، والمحاولات دائبة ومستمرة لدفع أعداد وراء أعداد

لمغادرة الوطن. لتفريغه من مبدعيه، كي يظل (تحت السيطرة) وخارج (الوزن النوعي) للحضارة والقدرات والثروات، موارد بشرية وخبرات من البناة، بحيث بات العراق – الآن – يحتل المرتبة الرابعة من حيث عدد اللاجئين المهاجرين.. ففي إيران وحدها يوجد (613) ألف لاجيء (مسجل)، عدا من هم خارج قوائم الأمم المتحدة وجداولها، إذ من المعروف أن (جداول) الأمم المتحدة لا تأخذ في (احصائياتها) كل رقم يقل عن الألف! و إن مكتب (مفوضية الأمم المتحدة للاجئين" يضع كلمة "لاجيء" فقط تحت تعريف: "المشمول فقط بالحماية الدولية" من قبله!

وهكذا وضعت هذه (المفوضية) في مخيم (الهول) بسوريا 36 ألف لاجيء عراقي، و8 آلاف في مخيم "رفحاء" بالسعودية و 1200 في الباكستان.. الخ، الخ.

لكن هذه المفوضية اعتبرت عدد اللاجئين (700) فقط، لأنهم مسجلون في جداولها!!

....

■ ربما يفكر بعض (المهاجرين) بالفرص النادرة، ليصبحوا مثل أولئك المرموقين الذين نالوا مكانة علمية أو نالوا الجوائز..

ربما يضعون أمثال ذلك العالم العراقي (فخري البزاز): (العراقي الأصل) ستكون له جنسية أخرى، وربما انتماء آخر، ووطن آخر – يضعونه نموذجاً.

"البزاز" الذي نال جائزة "هامبولد" الألمانية عن أبحاثه الخاصة بتأثير زيادة غاز ثاني أوكسيد الكاربون في الجو على نمو النباتات والزراعة! وهذه الجائزة سنوياً لعلماء (غير ألمان). العالم الألماني البارز (بيرتهولد وبلر) قال عن البزاز وانجازه بأنه: يمثل أسمى اعتراف يقدمه المجتمع العلمي الألماني للانجازات العلمية البارزة!

و(البزاز) مثل زميله (العراقي) الآخر: د. صالح الوكيل، أستاذ الكيمياء الحيوية في كلية (بايلور) للطب في هيوستن، والذي اشتهر هو الآخر باكتشافاته في ميدان الأنزيمات والذي ذكر عنه في بيان انتخابه عضواً في الأكاديمية الأمريكية، من أن أعماله أحدثت "ثورة" في علوم الطب.

البزاز والوكيل هما اثنان من ستة علماء عرب أعضاء في أكاديمية العلوم الأمريكية تماماً كما كان العالم العراقي الكبير الدكتور عبد الجبار عبد الله.

ذلك ينعش آمالنا وأذهاننا في أن (المهاجرين) أو الذين (سيهاجرون) أيضاً، باحثين عن ذلك (الفردوس) بعد (الطريبيل).. قد يحققون المكانة المرموقة، وإن كانوا تحت سطوة (مانحي) الجنسية لهم، تماماً كالخمسة الآف عالم ذرة عربي، الذين نالوا الجنسية الأمريكية!

أو ربما يتشبث بعضهم بالمهندسة (زهاء حديد) نموذجاً.. ابنة السياسي المخضرم وزير المالية الأشهر في حكومة عبد الكريم قاسم، الأستاذ محمد حديد.. الذي هو، أيضاً، مهاجر خارج بلده الآن..

(زهاء) "تدين بتقدمها ونجاحاتها إلى (عناد) العراقيين، المشهورين بجرأتهم في اختراق الموانع والخطوط الحمر المفروضة عليهم من القوى الكبرى" حسب تعليق المحرر العلمي لجريدة الحياة والذي هو الآخر مهاجر مثقف، قاص سابقاً والصحفي اللامع: محمد كامل عارف.

هذه السيدة حصدت الجوائز الكبرى في المسابقات المعمارية، واحتلت أغلفة المجلات المعمارية الدولية نموذجاً خلاقاً لإبداع العراقيين من المهاجرين.

ولكن تلك النماذج الإيجابية لا تمنع القول بأن المشكلة تكمن (هناك) في العقل أولاً، وفي الداخل المحاصر، حيث يجوع المثقفون علانية، وجهاراً..

في بلد يطوف على بحر من الثروات.. لكنه يعيش (دولة/ أو أمة محرومة!) على حافة الفقر!

نقول، إذاً، مشكلتنا تكمن في الأسلوب قبل الأشخاص.

ومع أن الكرة الأرضية تبدو كأنها تتوقف - هنا - عن الدوران.

نقول: "ومع ذلك.. فإنها تدور!"

حتى لو بدا المشهد بهذا الاختصار: "لا شمس في الصحون،

والخبز في العدم"

أو حسب سؤال بدر شاكر السياب، العتيق الجديد:

(مَن ماتَ،

مَن يبكي

مَن يقتل؟

مَن يصلب الخبزَ الذي نأكلُ؟"

....

7 مقطعات (نماذج من الداخل)[33]

✎ – "..إن كان الأمر كذلك

فالحزن سيأتيك

من السجنِ الكامن فيك"

(يوسف الصائغ/ من: السجن (1995))

....

✍ – ".. ودخلتُ بعدَ المدِ في جزر الزمنْ

من يكتب التاريخ، إنْ

أيوب غادرني وأبحر في الضباب

أيوب كان دريئتي ووسادة الأحلام

في العمر المعمد بالعذاب

فعلام غافلني وغاب

وشمعة في الليل ذاب؟

....

وألوب، لكن ليس من أيوب

أو ظلٍ لأيوب الذي هجر القطار، وغاب

أوغل في الغياب

---

[33] انظر: مجلة "الأقلام"/ قصائد في مواجهة الحصار/ العدد 4 – 5 – 6 نيسان، مايس، حزيران 1995 ص10 والتالية .

وصار تاريخ الغياب..."

(خليل الخوري/ من:الفراغ)

....

- ".. والآن،
وقد هدأ كل شيء
لا أرى غير صبيةٍ يتكئون على ما تبقى من السياج
وينظرون إليّ بإشفاق،
وأنا أحاول الإتكاء على عمودي الفقري
وأهدهد قلباً من قش..."

(سامي مهدي/ من: الشوك والعسل)

....

- "كانوا ينتظرون تكاثر المقابر
فتكاثرت المخابز
هل زاد عددنا؟
أما شممت رائحة التراب هذه الأيام
إنها تلمع في مساماتنا كندى الحقل.."

(علي الطائي/ من: نحن محتاجون إلى أسلحة أخرى)

....

- ".. كما تتراكم فوق الصحونِ الصحونُ
وتركن مرمية للغبار
أكوّمُ في النفسِ، في حفرةٍ أو قرار
قصائد قد حَفزتها الغضون
وأنبشُ آناً فآن
أضابيرها البالية
كما ينبش الديكُ في كومةٍ خالية
فلا حبة من زؤان

ولا شيء غير الحطام الهشيم!
أباطيلُ قشٍ، قديم
ويصدح في سُحرةٍ، في اهتياج:
هو القمحُ ملء الثرى والفضاء
هو القمحُ فاغتنمي يا دجاج..."

(حسب الشيخ جعفر/ من: القحط (أتربة وأغربة))

....

- "يومَ أقفرَ وجهُ المدينةِ
والجوع باعَ بها،
واشترى..
هب صوبَ المدينةِ،
خلق عجيبونَ،
مثقلةٌ بالنقود حقائبهم
وجرى،
ما جرى.."

(معد الجبوري/ من: خلق وخلق)

....

- "ها أنذا..
يا زمان السُرى..
بالحريق الذي شبَّ فيَّ
أبدأ عتمة ليلي الطويل،
مرحباً، بالعواصف تجتاحني..
وتزج بطوفانها.. ما تكوّم في قاع روحي،
من قرفٍ، أو عويل..."

(نفسه..)

....

✆ - "نفسه التي انكسرت كزجاجةٍ
يجمع شظاياها كلَ يومٍ كسرةً كسرةً
يعيد كل واحدةٍ إلى مكانها بعناية
ويلصقها بالصمغ اللاصق
تسقط منها أجزاءٌ، فيفطن إليها بعض المارةِ،
يدهشون. ويضحكون، وقد يغضبون.
إلاّ إنه - كل ليلةٍ، بعيداً عن الناس،
يسهرُ، يجمعُ بصبرٍ، ما تساقط من شظايا
يغطي ما هو مكسور، ويظهر ما هو متماسك
ليقدمه غداً كوحدةٍ واحدة،
يعود فيستذكر: كيف لعب دوره؟
هل أخطأ؟ هل أصاب؟
وفي كل صباح يرسمُ على وجههِ الابتسامةَ ويخرج
إلاّ أنها ابتسامة تذوب رويداً
ويتناثر فجأة قلبه جميعه على الأرض
ويرن كقيثار مهجور
ينكفيء على نفسه، فيلملم شظاياه من جديد
تشجع.. تشجع.. وواجه الدنيا بعزيمة
من جـديدا!"

(أكرم الوتري/ الزجاجة 2 - 7 - 1992)

....

✆ - "سبعون ألف وجهٍ ولا ترى غير تمنيك
وتسأل عن ناي التوادع رفقاً بمن يرهف
أماناً سراب الأماني
لحظة حدادٍ واحدة تكفي لتمسخ كل الاذاعات
وترخيك بجدولاً على حائط غربتك

مستبيحاً بقاياك وطفولة شيبك.."

(ريم قيس كبة/ من "الفنارات تحزم أوردتها)[34]

....

📖 - "بابٌ علينا من دمٍ يُقفلُ

ونحن في ظلمائنا نسألُ

من مات، من يبكيه، من يقتلُ؟

من يصلب الخبزَ الذي نأكلُ..؟"

(بدر شاكر السياب: كتب موتنا قبل موتنا والحصار!!)

---

(34) انظر مجلة "ألف باء" /العدد 1405 / 30 آب 1995 ص 38.

■ .. ونعيد السؤال: هل الحصار يصنعنا؟

هنا.. عشرة نماذج مغايرة، أنتجها شعراء من أجيال عدة، أعطت نفسها تعبيراً صارخاً وجهيراً وغطت على حالة الحصار، ظرفيته، وعن النفس بالتياع تحدثت.. وأحالت المتلقي إلى (كتابة ثانية) في ذاكرته،.. مبكرة ومستقبلية أيضاً في المغايرة والتغيير – الضرورة.

نص السياب، الذي استلفناه من ماضٍ سبق الحروب وسبق الحصار، وسبق موته وموتنا، يشي بأن ما كان ليس مقطوعاً عن الحاضر، فذات اليد أغفلت علينا باب الدم وصلبت خبزنا..

هـذه النصوص تحرض، تحث، تحرك.. وعلى الآخر – غير الشاعر – أن يستشعرها في ضميره، في تفعيل (الفعل الاجتماعي) أولاً، الرافض أولاً أيضاً.. كي تكتمل دورة الأداء، والأفعال، والتغيير.

إنها تلتقي مع النصوص التي كتبها – مبكراً – الشعراء الثمانتسعينيون قبل آن الحصار – تحت تأثير الحربين – قبلاً، وتالياً عن ناتج فائض قيمة أذى الحرب، ناتج فائض الألم.

حالة تعبيرية، مخالفة، يائسة، ضاجة، هي :نزعة

(بعضهم)[35] يخشاها، ويخشى "أن تعبرْ نزعة التدمير هـذه إلى الواقع، حيث الكارثة"

---

[35] انظر: الأقلام/ المصدر السابق/ "بيان الكتابة في زمن الحصار" بقلم رئيس التحرير ص:7

لأن قصيدة الاختلاف - المغايرة - والحرية، موضوعياً وفنياً، تتجاوز التحقيب، وإن انتمت نماذجها الصارخة إلى واقع محنة.

هذا النص، عادةً، يتحدى التماثل مع (شروط) المحنة، وآليتها.. لذا، فهو يرفض (الحصار) واقعاً وتكريساً وذرائع..

ولكن.. إلى متى؟

....

إن ما ينفي ضيق أفق التحقيب أن المحنة طالت الجميع فغزت الأسلوب، هنا، قبل الأشخاص. كأن الكرة الأرضية (توقفت) بالفعل عن الدوران بالعراق.

لذا.. فإن مزدوج الحرية والاختلاف يتجه بسهمه ضد الرماد البارد، إنه مقارب التمني الشعبي، تجلى عن حساسية المضمون المعبر عنه بشكل آني، حداثوي، منفتح، وغير معقد، ومقيد.. بغض النظر عن (غنائية) النص، أو سرديته، أو تنافذه إجناسياً، أو (نثريته) السائدة، أو إهماله نظام التفعيلة، أو إلتزامه بها، أو "تحقيق العبور من الجملة إلى الدلالة إلى الايحاء إلى الامتداد بالمعنى إلى خارج مساحته النصية":

"الانفتاح الدلالي"[36] ..

فالنصوص المحاثية للحرب والحصار في جلها، والمعبرة عنها، تقترح - أو أنها تنطوي على - إحالات ثقافية، تتمسك بالمعيارية الإنسانية، وبنية الأصول والجذور الأسطورية و الشعبية، وبقيافة إنسانية النص وتعميق حساسيته وجدله وخلخلة نظام الكلام والواقع والأدلجة الجمودية (الدوغما)

نصوص تجرب، وتحث، إذاً.. لكنها لا تهمل دراما المأساة، وميتافيزيقيا المحنة.

---

[36] انظر: الجزائري، محمد: "الايجاز" ومفارقة الفنتازيا - ثلاثة أقسام عن: محمود البريكان ويوسف الصائغ وكاظم الحجاج - جريدة القادسية 20 و28 شباط و6 آذار 1989، و"انتماءات الأحادوي" عن البريكان - ثلاثة أقسام/ جريدة القادسية 22 و29 آذار و5 نيسان 1993

وانظر: عبد جاسم، عباس: (البحث عن أفق شعري جديد) / جريدة الجمهورية 18 - 9 - 1995 ص:7

وتالياً.. نتناول ثلاثة نصوص بالتحليل.. كي نوصل دائـرة بحثنـا، عـن الشـعر وبه بدأنا، وإليه ننتهي، كي لا نلوذ بالحصار فيصنعنا، بـل نلـوذ بالشـعر، والإبـداع للنضال ضد الرماد البارد، أبداً:

8 ثلاثة نماذج (تحليلية) عن الحصار:

1 (هذا خبز): عبد الزهرة زكي[37]

هذا نـص متعطـش وظـاميء وراوٍ في آن. يصـرخ ضـد الاسـتقرار الثـابت أو النهائي لمجتمع (الحاجة) و(السـوق)، يديـن النـزوع نحـو تلاشـي روح معارِضـة، لا يؤدلج الحالة، لكنه ضد زوال النضال وزوال المجسات الداخلية للشعب (ممثلاً – هنـا – بالمرأة/ والآخر/ والأُخريـات.. حيـث الإنسـان، هنـا، ذو أبعـاد، وليـس ذا بعـد واحد.)

هنا، "سعادة" نص تكمن في "حزنه" و"وجعه"، نص يقترح منازلةً ضد الجوع والحصار، وثقافةً لا تتحدد بتنافذ السردي/ الشعري/ الحكائي/ الغرائبي/ الواقعي.. بواقعيةٍ جد خشنة وناصعة في آن.

نص يهتـم بالغايات والقيم، ولا يبني حكمه الذاتي خـارج صومعـة عزلـة، إنـه نص صراع طبقي من داخله وفي داخله، إلى خارج أبعد وأمضى.. غور في الطبقـة، وغور في تثوير النزعة الضدية، الرفضية للحال السائد، حد "الشفاعة" السلبية!

---

[37] نشرت هذه القصيدة في جريدة الجمهورية – بغداد – السبت 20 آيار 1995 ص:7 وهي تدخـل ضمن النصوص التي تتوافر على "الحساسية" الشعرية الجديدة والتي اشتغلت في مرحلة الحصار على وفق نسقين (يحددهما عباس عبد جاسم) بـ:

أ – (النسق الشعري) وتندرج ضمنه نماذج منها: (سومر) (أنا حديث العالم) (أطلـس شـرقي) لخزعـل الماجدي، و(جوائز السنة الكبيسة 1993) لرعد عبد القادر و (شـاحنة البطيـخ) و (مسـاء كافـاني) و (الأب في مسائه الأخير) لزاهر الجيزاني و (السائر من الأيام) لمحمد تركي نصار و (اليد تكتشف) لعبـد الزهرة زكي...

ب – (نسـق: الجملـة الشـعرية): وتنـدرج ضمنـه: (قصـائد) لرعـد عبـد القـادر، و(أقـوال) لنصيـــف الناصري، و (المحذوف قبل أن يتكرر) لمحمد مظلوم و (خريف التـاج) لعبـد العظيـم فنجـان و (تـأويل البياض) لرياض إبراهيم انظر: المصدر السابق(هـ : 9)

هو مع الإيمـان الـذي يجوهـر الحالـة في الوعـي، ويحيـل الفعـل الإعـتراضي إلى أنضج: لهيب (الثورة) حد (قتل) الأميرة، وإلغاء "ماهية" الدرهم/القاتل!

نص يرسم نفسه بتناص انساق، لكنه يتفرد بتمـاهي الكلـي في الجزئـي، العـام بالخاص .. انه إمكانية كتابة مضاعفة خارج الكلام الميت وضده... كتابة تتمدد في السرد والحكاية وتتكشف فيها أيضاً ولا تنسينا القيم والصور الانتمائيـة إلى وطـن، إلى إنسان.

نص يلتاع ويلوع... يلوب، يثيب، ويحرض...

(هذا خبز) مهارته في بلاغته، وبساطته وفي (تعقيده) الداخلي في آن: هندسـة بنيانه، وتناغمات مقاماته قراراً وجواباً...

نص، بالرغم من طوله النسبي، موضوع بإيجاز بسبب الإبداع الـذي أخضعنـا لسحره و (جعل) المرئي انكشافاً للا مرئي وكشـفاً لـه ولمضامينـه... وعـبر هـذا الـ (جعل) يتجاوز النص ثنائية الإنسان والظرف، إلى الإنسان والعالم، عبر إلغاء المسافة الفاصلة بين الروح والمادة، ومن خلال شرارة اللامرئي، الذي تمرأى في (هذا خـبز) يضاء الداخل المهموم، الموهوم، الجوعـان ويعـاش حلمـاً خاطفـاً أو "عيـد" ذهـول، ولكنه متفجر... ولهذا... (هذا شعر)!

في قيام عالم الحبس/الحصار/ يقوم الشعر كمقاوم ذاتي لفطنة وشعور، بـترميم كيانيته وكيانيتنا و صيانة استقلاله عن الحصر فيتوغل في اليومي والتفصيلـي مـرة، وينأى عنـه مـرات، وكأنـه في عـالم مسـتقل عـن الأشـياء وبذلـك (يتجـاوز) عـالم المألوف، فيستحيل إلى فضاء حرية:

"وبهذا وحده تنطلق الإمكانيات الاحتياطية للروح، فتتحول إلى نشاط..."

والمعجم الشعري/ أي معجم متجاوز، كي يتوفر على الحساسية، يفترع بكارة الكائنات والأشياء ليس بالعزلة – لكن بهذا الرحيل النبيـل المثـابر، الدائـم، صـوب الحرية، كي يمسك (بالمحجوب) ويشعله، من تحت الرماد البارد للواقع.

إن شعرية النص، في حيازة حرية ودافعيتها، تثابر على صيانة بياض عذريتها.. و "ليس على البصيرة اليقظة إلا أن تذوب نفسها" للابتكـار وتدمـير حبـس الجسـد كما الروح بإزاحة "الحجب" عن المرئيات واللامرئيات في آن.

هنا "المرئي" مثل "الخبز" يأخذ أشكالاً لا مرئية في (هذا خبز)، المادي يتحول إلى حجاب ورؤيا، الشيء ومضاده كمقاوم، بخاصة حين يكون المخاطب /الآخر/ هو "سيدة" حاملة الأحزان ونذور وشفاعات (هنا يلتقي بنص أمل الجبوري، حيث استذكار الشفاعات أيضاً، والمرجعية هي نصوص عشتار الشفيعة. لأن السيدة هي وريثة الهو، الآخر، في الشدائد...)

ومنذ البدء، يدور الشاعر المعنى ويربطه في التكرار كي ينتج إيقاعاً، هو في حركته، خلاص من حصر، موت، هذيان:

■ (خذي يا سيدة شفاعتك
وارمِ بدرهمك الذي تحسدك عليه الأميرة
الذي تخطفك
من أجله الأميرة، الذي تقتلك من أجله
الأميرة...
خذي.. وهاتي
خذي... وهاتي)

أفعال المضارعة: تحسد/تخطف / تقتل/... تتراكم صعوداً لحجب الوصول إلى "الشفاعة" / المخلص/ عن "سيدة الشفاعة".

هنا اشتغال على هندسة إيقاع تداخلي، كأن الجملة حين تتداخل بأخرى، موسيقى تتواشج ببعضها في هارموني آلات وأنغام..

ثم يغذي هذه التداخلية الموسيقية، ويصعد الوتيرة في تكرار متوالية الـ "يا" الندائية لـ: حبيبة، عانس، أرملة، مسكينة.. وكأنه يقيس اقتصاد العنف الدائري عليهن، ومعاً، كي يكشف لهن السر، يكشف محجوبه (المعروف) واللامرئي في ظرفيته: "عندي خبز" ويؤكد هذا الوهج: "عندي كثير منه" وليعمق التأثير أكثر: (كثير جداً/جداً/جداً...) وليضع "الكنز" في موضع اليقين ويحيله إلى ما يشبه "معجزة حضور" بعد أن طمسه الغياب، يقول النص "عندي خبز" وبذلك يجعل "آلية" التكرار، سند مصداقية، ودنو حلم، وتأكيد (حقيقة) هي في زمن الحصار – الحبس، أصبحت غيباً: عندي خبز، كثير منه، كثير جداً..إلخ

هنا ترميم لكيانيته، لكيانية الإنسان أساساً، النص يحول اللا مألوف مألوفاً، حين كان (الخبز) لا مرئياً، أصبح "مرئياً" والآن: "عندي" تماماً: حاضر موضوعي:

■ (هذا ليس بسحر.. هذا خبز
لستِ تتذكرينه: فلتتهجينه إذن: خاء باء زاي.. أو هذا أكسيرك
(أو هكذا افترضيه): شميه
ترى روائحه بين يديك
طيبي عينيك بمرآه،
واملأي سريرك بنعماه
زيني عنقك بصدفه...)

هنا، أصبحت احالات الخبز، عوالم اكتناز وإثراء روحي، جسدي معاً...

هنا. افتضاض بكارات لم تفض، آفاق مرئية من لا مرئي... بذلك يوسع النص من مديات مادية الخبز إلى أبعد، وأغنى؟ أكسير حياة/ نعمى سرير/ زينة عنق/ ومعصم .. رفاه، إذاً.. قابل للحسد، لذا" "خبئيه عن عين الحسود" - الخبز هذا، المشاع الذي كان، بات مادة حسد، وسيكون مادة قتل! في حين كان "الخبز" رديف" (الحرية) في المطالب الجماهيرية النضالية: (نريد خبزاً لا رصاص): الخبز والحرية، تكييف الشعارات، دون نقلها، جوهرها حسب، في هذا النص، مادة نضال، مادة حرية،... بذلك يخترق النص جدار آلية العسف حصاراً، تجويعاً...

(الخبز عندي): في حيازة إنسانية، فعل لديمومة بياض الروح، بدل السواد، كرامة حياة هو، ورفاه معانيها في الرحيل العميق للحرية:

■ (قولي لهن، لصاحباتك الجائعات:
يا أُخيه / ياجارة/ يابنية/ يا عدوة... هذا مسكي، ونقاض وردي
وشفاعة قلبي...
هذا خبز
هذا خبز...)

ولتعميق الأثر أيضاً، يمنح النص ذلك الغموض إلى المصدر، الغموض السحري، والإيماني:

(جيء إليّ به من سنة الخاتم المخفي، وقد حملته الطير من ذهب ريشها والتي من ضوء أجنحتها

والتي من نايات مسحورات أغاريدها)

التكرار ثانية، يزيد من رنين الموسيقى داخل مدورة الأفعال ومتواليتها: (التي من...)، ثم يأتي الابهار في تقديم الجار والمجرور، المضاف والمضاف إليه: "ذهب ريشها، ضوء أجنحتها، من نايات مسحورات، أغاريدها...)

لأن "سيدة الشفاعة" المخاطبة، ذهن متفتح، وروح "لكمال" الإيمان بالمخلص، و "الخبز" هو العطاء، يحيل إلى ملاذات يمتزج فيها الصوفي، الجمالي القدري، المتمنى، تعميقاً لبكارة "اللامرئي" في الأشياء، والمكنون في جوهرها، والتكرار أيضاً في المخاطبة من: (الأخية) إلى "العدوة" /من "البنية" إلى "العانس" /من "الصبية" إلى "الأرملة"/ من "المسكينة" إلى "الحسود" إلى "الساهية" "اللاهية" "التعبانة" تالياً!

إذاً هو نذر يتحقق.. وهنا، أيضاً، يقدم لنا النص إحالة مضمرة "لخبز العباس" الشفيع/ الذي حين تطلب النساء منه، ويتحقق النذر يوزعن "الخبز والجبنة والريحان" يوسع مديات الاحالات والدوال المنفتحة إلى أبعد، فهو: "حناء" تخضب به "سيدة" الشفاعة اليدين والقدمين والقلب ونهار البيت... يتحول "الخبز" إلى "حناء" المجازي والواقعي والمادي والروحي حيث يمتد المعنى ويتمدد إلى احتفالات النذور والأعراس (نهار البيت).

والتكرار لازمة موسيقية ولازمة موسيقى النص ومفتاح مدورته الموسيقية من حركة إلى أخرى تتصاعد الموسيقى، تتصاعد سيمفونية الخبز بتلك الغنائية عالية الرنين، ثرية الصور والإحالات والكنايات والدوال، حيث يمتزج الواقعي: الخبز/ الشاي/ السكر/... بالحلمي: (الصباح الأزرق)، وبتحولات الظرف ومعاناته:

(وما أنا بجائعة، ما أنتَ بحزنان)!

حيث يدخل (الآخر) هنا، في صلب ثنائية الحوار والمخاطبة كي يشع بالمعنى إلى "بيت" /أسرة/ مجتمع/ مسؤولية/...

ويأتي التصعيد بتلك الدعوة في المشهد الجميل، البهي، حين يدعو "السارد" تلك السيدة بأن تنفق دراهمها على صرتها، ولتملأ بها حوش الأميرة بنت الأمير بنت الأميرة أخت الأمير أخت الأميرة، لتوهمها بدرهمها الذي لم يعد من فضة، حتى تنام.

لننتبه لإيقاع التحول: (حتى تنام)، ثم لفعل تحويلي خارق، وسحري وغرائبي تتجه أعنة النص إلى التضاد المطلوب: الحريق! (الثورة) بعد الحبس (حين تنام) الأميرة، بنت الأمير أخت الأمير... إلخ، (فتدس) سيدة الشفاعة "الخبز"/ ورقة الماء / تحت مخدتها فيمتلئ حوش الأميرة بنت الأمير... (بدراهمنا) و لم يقل بدراهمي، لتصبح (الدراهم) لهباً، وليكن (الحوش) نهباً للهب الدراهم حيث أشجار الحوش ثمارها من لهب (هنا إحالة موحية إلى رواية أرض ثمارها من غضب) وكأن الثورة حلت بالفعل!

وهكذا يرتد (الخبز) إلى أولوية البشر، فالجوع يؤدي إلى الثورة! (اللهب) الذي، هو بسبب الدراهم، يكون ، و"الخبز" مادة انتقام السيدات، الحزينات، الكسيرات، حيث تحشيد النساء بالحث يؤدي إلى انتفاض: ألم يحدث مقارب ذلك في الثورة على الباستيل ولويس وماري أنطوانيت التي لم تأبه بمطالبة الناس بالخبز، و لم تفهم ذلك... فالنص غني بالإحالات من المأثور الشعبي (هذا الكلام من فضة/ هذه الحنطة من ذهب)إلى الإحالة(الكلام من فضة والصمت من ذهب!) إلى الإحالة الأهم (هذا الشهر حنطة)، التي بشرت بثورة 14 تموز 1958[38] حيث تعطي الحنطة ثلاثة الاضعاف غلةً وثورة: و"مبارك كل الذي يجيء باسم الشعب!"

(هذا خبز) يتجوهر، كنص، في الشعب أيضاً، ولكن ببوح آخر وبنقل فائض الواقعي الى رؤى،

- إذاً، يشتغل النص الى تصعيد درامي، مستخدماً مرة تكراراً لياء النداء: "يا" حاثاً، ومرة التحشيد، ومرة تكون المخاطبة من المفرد الى الجمع، من الهي الى الآخر، البنائي وكأنها مدورة، متداخلة المعاني والموحيات:

---

[38] انظر: الصايغ، يوسف: (قصائد)/ دار الشؤون الثقافية العامة بغداد/ ط1 1992 ص: 244 (قصيدة تسجيلية: هذا الشهر حنطة) المكتوبة كقصيدة طويلة عام 1973

■ (يامنسية في أمنية مرمرية في قنينة، مرمية في بحر مرمي في حبة قمح!)
ـ والاحالات الى تراث: ريشة الهدهد (هدهد سليمان)/ كلام من فضة .. الخ
ـ والموحي الأبعد : (لأضعت خاتمك في السوق) حيث (الضياع) هو بيع الخاتم من أجل سد الحاجة، فالخاتم رمز الرباط الاسري، وحين يضيع، تضيع الاسرة، وغداً : ماذا تبيع، أو كيف تضيع؟
ـ والاشتغال على مولدات التداخل، ومد الاسطر، افق المعنى المديد: (الذي تخطفك من أجله الأميرة، الذي تقتلك من أجله الأميرة)
ـ والمعنى الجمعي: ياجاراتي، يااخواتي، وياخالاتي، ويابناتي...
ـ والمسمي: رجاء / جميلة / زينب / سجى / كرموز الى أخريات
ـ وأفق الجذور: (استنجدن بحكمة آبائنا/ واستقوين بالماء والتمر واللبن والهواء)
– والإحالات إلى واقعية واقع بكنائية دالة: (حزينات/ كسيرات/ غريبة/ حبيبة /ملهمة /نائمة/ منسية... إلخ) ويا من (أضعت) خاتمك في السوق، ويا من (نسيت) مساءك في كيس الطحين ويا من (أحرقت) أنوثتك في التنور.
– وأخيراً هذه التبادلية: (كوني أنت أنا... سأكون حينها أنا أنتِ) فماذا يترك لها بعد تلك الشفاعة وتلك الأوهام... (هذا لكِ (ما بين يديك وطوع بنانك، هذا الملح وهذا التراب) فماذا تفعل (الجارات)؟
(يستجرن) بالتراب؟: (هذه سنة التراب المخلص الرؤوم): الأرض، الوطن...
وهكذا...يشتغل هذا النص على دوال عدة، وإحالات، وطبقات من الموحيات.. واعتماده، هنا، مثالاً، يعزز الكلام النظري والمعلوماتي، في الفصول السابقة، وهو، والنصان التاليان، يعطيان الصورة الأخرى من مضاد الحصار في الوعي الثقافي ومقاومته، بالنص المحرض، الثائر،
وهكذا..
هكذا تماماً... كما قلنا في البدء: (هذا خبز) نص متفجر، ومحرض، (هذا خبز)... هذا شعر حر، يلغي الرماد البارد من حياتنا.
....

(طحين تحت الصفر): كريم شغيدل:

هذا نص يتعلق أيضاً بالخبز كأنه رجع صدى من حيث الهم لـ "هـذا خبز" يرحل إلى منطقة انشغاله، ولكن على وفق ترتيل وتـأثيث أكثر مباشرة، ساخر وموجع، نفس خشونة الألم وصراحته الفاجعة، وبمشهدية تبدأ من النفي: (لا شمس في الصحون) ـ نفاد، بدء هروب العافية كاستعارة، حتى (البنات) بعد الخبز، ثم السكر والشاي والسكائر والحليب، ولا ماء ولا هواء، حيث تنفدُ الشوارع وحتى الرصاص من المسدس:

في هذا النص، التقريرية تتواشج مع الرمزية في تعبير حر متدفق وصادح وبمدورة دراما مؤذية، يعيد النص عبر السارد إلى المخاطب الهو/ الفردي مرة/ والنحن الجمعي، والحوار: السؤال والجواب، بين الزوج والزوجة، تراجيديا وضمناً فكاهة سوداء.

الأسئلة هنا نفاد صبر وعنوان الأذى والأسى والمحنة في آن.

راح زمن الرومانس، فهنا، "خبز" في العدم تماماً، "طحين تحت الصفر" كما يعتمد النص كنايات واستعارات تنفتح على تأويل أيضاً:

– لا شمس في الصحون: افتقاد العافية

– ولا ظلال : افتقاد الراحة – الطمأنينة

– ولا زيت/ يسكبه القمر، خلسة من السماء

هذي حصتك من (ريش النعام): فنتازيا السخرية

شمس، ظلال، زيت، قمر، ريشِ نعام. منصات أبنية، دلالاتها مفتوحة تفوح برائحة الحصار، المأساة، محبوسة أيضاً بـ "لا" التي وحدها جدار ضد العيش وضد الحرية مع نفاد كل شيء، يأتي الإيعاز الحزين، المر: "كلوا البطاطة"! ترتفع السخرية السوداء حتى تبلغ مرحلة الإيذاء بالجوهر الآخر: "انشغلي إذاً... بمراقبة النجوم

أو هاتي الماء

نعجن به هذه الكتب والجرائد

بقايا الخبز ارفعيها عن الأرض

ضعيها فوق القمر...
للقمر ضياء صامت ثرثري معه
فقد ينفد كل شيء
وينفد اللا شيء..."

ويشهر النص حالة الخطر، تماماً كما "لهب" (هذا خبز) هنا: العالم مسدس /اللصوص في خطر/ الخبز في خطر / الأمهات شرقن من دموعهن/ قولي للأطفال: ناموا قبل مجيء اللصوص/ وانهضوا بعد مجيء الخبز...)

النص لا يتشاغل عن المحنة بالتزويق، بل يضاعف التفاصيل، ففي تراكمها المنظور تتفاعل الحالات، الجزئيات تتشكل تتبلور الظاهرة ويتحول الفعل الإنساني في مرحلة الجوع والحبس إلى قوة مادية للتغيير، كي يطيح بالجوع أو يبعث طائر الجوع من الرماد ثانية: "فاللصوص الآخرون
لم يبقوا على شيء...
سرقوا خاتم جارتنا العجوز..."

إذاً "الخاتم" الرمز، ضاع هنا أيضاً كما ضاع في "هذا خبز" لعبد الزهرة زكي، وكما ضاع في حياة مواطنينا ومواطناتنا، ليفجعنا في فجيعته فيعمق جرحنا معنى الكارثة:

"إذا سألوكِ عن الخاتم
تشاغلي عنهم بتمشيط شعرك
أو... انشغلي بالدعاء
هؤلاء أطفالنا
لهم حصة من الأكاذيب
وحصة من الكعك والأساور
والأراجيح... لهم حروب يندحرون بها
وحروب بها ينتصرون
أطفالنا هؤلاء أكلوا من العاصفة نصيبهم وما شبعوا
ومن الحروب لهم إرث يقتسمونه

بينما أنا وأنت نغادر
وإذا تنفد أضحياتنا
تطالبين بحصة من الرثاء وأنا أطالب بحصتي من الشتائم..."

هذا نص غير قابل للبلس، فهو أيضاً، بوضوح "هذا خبز" وبوضوح الحصار، لكنه يصرخ في مواجهة الحالة عبر سردية ساخرة تصل بالسارد المتكلم في الأخير، إلى المطالبة بحصته، ولكن "من الشتائم"! فحتى "اللاشيء" نفد!... والغيمة أيضاً، إذ لا وجود لها: "لا غيمة لنحلبها".

يقدم هذا النص حالة (الضحية) كاملة، عبر عنونة المأساة، "طحين تحت الصفر" بوحي: إنسان تحت خط الفقر.

ليس مخبوءاً ولا مضمراً، أو ليس مخبوء معلومات فالنص يطلق إشاراته، موجهات خطابه ليصيب العين ثم القلب، بالرجة الحقائقية الساخرة والمريرة.

هذا النص بيان ضد التدمير بمفردات مستلة من التدمير نفسه وهو يحرك بصراحة، عند المتلقي: المقارنة الحتمية بين ما كان فوق خط الصفر وما بين هذا المصير، وتلك أبرز خصاله في الموضوعي والفني، حيث المباشر والظرفي يتحولان إلى فن، نص مرحلة، نص الحصر وإشكالياته وبالتالي فهو أيضاً نص يحرض إلى حرية تؤخذ، هي مضاد هذا الجوع الأسود المفروض قهراً علينا.

3 (وريثة قلبك في الشدائد): أمل الجبوري[39]

الصوت الإناثي (المرأوي) وليس (النسوي) يستدعي هنا بحنين جارف عشتار وكلكامش، ويستدعي الشفاعات يخلق قوة توليدية بنبرة خافتة حزينة مرة ويعلو بفيوضات وجد وكأنها صلوات، تراتيل، أدعية مثل كورس ختامي/ كورال!

---

[39] أعد هذا النص كسيناريو على ثلاثية: (شرائح ملونة عن عشتار/ من آثارنا، ورجع صدى لقارئته ثانية يرافق ويتتالى مع الشاعرة – كسارد مباشر – أمام جمهور التلقي...) مؤسسة شومان – عمان – لكون النص ينصاع إلى تجسيد أبنيته المتداخلة وأصواته المضمرة، وان كانت الساردة العليمة داخل النص هي (الشاعرة) كرمز وحقيقة متماهية بمؤلفة النص أيضاً/... كما ألقي في مهرجان المربد الشعري الحادي عشر- بغداد...

مزيج من (أنا) الشاعرة، الساردة، ولمعان موسيقى ووجد صوفي: الصوت قلق بالرغم من اطمئنان في ظاهره، و (ثقة) بعشاق مشردين في (الوحشة) تعويضاً - كلامياً - عن (وحشة) في العشق.

إنه أيضاً، وأساساً يعاني (حصار الذات)/ (حصار الجسد)/ و (سرير الوحشة) رمزاً.

حاول النص أن يخرج ببطلته إلى فضاء حرية، ولكن أيضاً من تحت ركام ذلك الرماد البارد... فهذا النص هو نص القهر الجسدي والفكري والإنساني للمرأة (أولاً) وللوطن من خلالها، للأرض والحياة (المؤنثة) (المستلبة) إنه نص القهر الأنائي وأقانيم العجز (المرأوي) و (العام) وأقانيم الشدائد، مليء بالأحزان والإحالات إذ يكاد (التناص) أن يكون هوى نتلمس فيه - أيضاً - حصاراً منذ بكارة حب أول إلى قسوة قاتل أخير. (هل هو الأخير.. أم أن متوالية القتل تبدأ باغتيال عذرية أول عذراء كأنه اغتيال كل العذارى، تماماً كشهريار القاتل، والعاجز جنسياً ربما، الذي يعوض نقص الحب بالاغتصاب، وعدم الاعتراف بالضحايا الأبناء - البنات - لأنهن لسن، ولن يجئن من ولادات حب، بل غصب... كذلك يتماهى حصار الجسد، وحصار العاطفة، والحياة...)

صوت وتركيبة أبنية تمنح المتلقي (ويمنح) سلطة متعة ضد الفناء: (جسد النص) يتوارى في (نص الجسد) ويتحرك ويتناسق ويتوتر ويتصاعد ليتيح قراءةً ومراقبةً متفاعلة لذلك الوضع الإنساني المقهور في مقابل وضع لا إنساني (قاهر).

وتماماً كشهرزاد، تروي بطلة هذا النص... كأن الجسد يحكي آلامه وعذاباته بحضور يتوجب عليك استقباله والاصغاء إليه من داخله، وإلى تأوهات إمرأة عذبها الحجر (الهجر) أو الإفتراق أو (سرير الوحشة) لذا فهي تناشد الماء - كبدء للخلق - لأن يكون رفيقها... وهو "الخصب" الذاتي، هنا، ماء المرأة من داخلها، وليس نهراً جميلاً من عافية جنس وحب ينهمر على جسدها...

لذا فهي تفتق وعياً، هنا، لا هذياناً... لأنه (وعي حرية) منشودة ومطالب بها، في مواجهة حصار، إلغاء، استعباد، وفي مواجهة (الخراب الذي تربع على الرأس)...

كتابة تبتدع (صمود) الجسد ضد حبسه وقهره وتدميره،

هنا (مكتوب الجسد) متجسد نصاً، يختلف، يتخلص من معاناته بالتعبير الحر عنها[40] وبالوجد الصوفي الذي تتلبسه كحالة حماية ذاتية، وليس (تماهياً) مع الغياب، بل حضوراً في الغياب الذاتي واشكالياته[41]

يبدأ النص بنداء المخاطبة – الرجاء (للماء) المسمى والمرموز:

■ (أيها .. الماء
يا خضرة الناس
كن رفيقي في مجسات القلب)

يظل (الماء) هاجس النص والجسد معاً على مستوى الدلالة والإيحاء، ومفتاح إحالات منذ (قصة الخلق البابلية) إلى الموروث الشعبي في (الشفاعات) إذ تتوجه إلى (الخضر) وشموع النذر ودجلة بالآس والشموع، إلى المعنى الإيحائي: (الماء حياة)، والماء نبع الجسد ورؤاه، فالماء مجاور للشموع والطقوسية، للنور المتمنى والمنظور، والشفاعة والرجاء:

■ (أيها الماء.. يا خضرة الناس.. كن رفيقي في مجسات القلب
وأنت أيتها الشموع المنقوعة في شفاعات النهر
أدخلي محراب القناعة
إطلعي من ضلوعي

---

(40) اشتغلت أمل الجبوري على ثيمة "سرير الوحشة" كنص جسد انظر: "اعتقيني أيتها الكلمات" ديوانها الذي صدر عن دار الشروق – عمان – ط1 – 1994 بـ (64) صفحة قطعاً متوسطاً تضمن (14) نصاً ومدخلين.

وانظر دراستنا عن سرير الوحشة داخل نص الجسد تحت عنوان " وجداً وحرية" (ج1،ج2: جريدة الثورة – بغداد العدد 8682 (9–3– 1995) و8722 (4–5– 1995) و(ج3 جريدة القادسية العدد 4744 (17–6– 1995) بعنوان: "سجال الذات".

(41) كمحاولة تعويض عن حصار الجسد ووحشة سريره تتوجه الجبوري إلى العشق والعشق الصوفي والوجد، كاهتمام يتماهى ويتناص مع قصائدها ـ نصوصها حتى أواسط التسعينات ثم تتجه إلى "الشتات" بحكم الشتات الروحي والجسدي، والهجرة والحصار معاً... لذا قامت بترجمة" موت الحلاج حكاية مسرحية" لمؤلفها هربرت مايسن ضمن هذا التوجه (صدر عن دار أزمنة للنشر/عمان ط1 /1995).

من عيون الخضر..)

لمـــاذا؟

وتتوالى مخاطبات النص بـ "أيها": حيث يأتي "العمر المثقوب بمشيب الخريـف" لأن المخاطب (هي) هنا "سيدة جميع الأحزان" تحيلنـا بهـذه التوصيفيـة الكنائيـة إلى عنوان أول نص كتبته إمرأة شـاعرة، أمـيرة وكاهنـة وإبنـة ملـك، هـي "إنخيدوانـا" بعنوان "إنانا والنواميس" ومستهلة:

".. سيدة جميع النواميس الإلهية

الضيـــاء اللامـــع

المرأة التقية التي تتسلح بالإجلال

محبوبة الأرض والسماء.."[42]

و"وريثة الشدائد" تشتغل على متوالية أن تكون المحبوبة أيضاً خـارج الوحشـة وخارج العمر المثقوب وخارج الخراب والحرب والحصار، لتتزوج، لتحمل القحـط والليل العليل.

وفي هذه المنطقة حين زوجها الأرواح للموت، تصـاعدت كفايـات الحرمـان، لأن المحمول هو القحط والليل العليل فالزواج من "الموت" غربة، انه – هنـا – مجـاز كما (اللازواج) حيث غربة الجسد ووحشة السرير، في ذلك الليل وذلـك القحـط، بل هو إلى العدم أقرب.

---

[42] أنظر: عقراوي، ثلما ستيان: المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، سلسلة دراسات، وزارة الثقافة والفنون، بغداد – ط1 – 1978.

وانخيدوانا (En - He - Du - An - Ne) هي ابنة الملك سرجون الأكدي (2270 - 2316ق.م) اشتهرت كأول أميرة تشغل مركز الكاهنة العليـا للإلـه (نانـا – سـن)، ولأنهـا بـرزت في مجـالات الأدب وبـالذات في قصيدتها (سيدة جميع النواميس الإلهية) (Min - Me - Sai - Ra) التي نظمتها في مديح الآلهة انانـا (عشـتار) حيث تتجلى أهمية هذه القصيدة بتلك المزاوجة الذكية بين الديني والسياسي عبر مديح (انانا/ عشتار) وكـأن سرجون الأكدي قد نصب إبنته (إنخيدوانا) لتعمل في معبد إله القمر في أور وأعطاها أيضاً سلطات دينية على مدينة الوركاء و(أوروك) لبسط نفوذه الأكدي على أهم المـدن السـومرية آنـذاك (أور/ الوركـاء).. وستأتي إحالة أخرى في نص أمل الجبوري يتداخل مع زمن أوروك وكلكاش وعشتار السومرية (الشفيعة).

شاعرة النص (اناه) تشد على الكاهن (كاهن أوجاعنا) مخبرة إياه بصفتها: (انا وريثة قلبك في الشدائد)، وكأن (الكاهن) هنا هو الإله، الملك، الحاكم، كلكامش الذي يبحث عن خلوده ويزيل عذرية عذارى أوروك جميعاً، وكأنها (هي) عشتار.. فهو، إذاً، وريثها في البقاء..

وهنا إحالة أيضاً إلى أسطورة كلكامش حيث تقترب عشتار من كلكامش وتطلب وده والزواج منه، فيرفض، لأنه بسطوته لا يريد أن يخضع رجولته لسطوة إمرآة فيرفض إلى آخر ما جاء بالملحمة الشهيرة. وتطارد عشتار تموز الراعي الجميل فتتزوجه ثم تنزل به إلى العالم السفلي، كأن نص "وريثة الشدائد" يستمد مثاله وقوة يقينه من تناحين "ملحمة كلكامش" و"نزول تموز إلى العالم السفلي" كأن (الشاعرة داخل النص) عشتار، تستمد يقينها من قوة المثال ضد الحبس والقهر ومن أجل حرية جسدها، حريتها الكاملة من ثم.. متناصة بالموروث الحضاري، أشخاصاً وأحداثاً واستعارات، وبالنفي العكسي كأنه توكيد:

(لست بكلكامش مش أنتَ
وأنـا لست بعشتار
كن طريدي لأغسل بالفراتين ثوب البعد
وأرميك للوعد والشهقات ... ...)

والمخاطب الثاني: المرموز، والحامل للإحالة والدلالة الموروثية هو: (الآس) بعد (الماء)، وهو مكمل طقوسي كما نعلم، لتقاليد النسوة البغداديات – بخاصة– والعراقيات عامة في نذورهن للخضر.

والمخاطب الثالث: المرموز، أيضاً، والحاصل لإحالاته، هو "الجنائن": (يا جنات معلقة على روحي) فالنص يفيد من زهو الجنائن المعلقة كأعجوبة في العمق الحضاري لبابل بناها الملك لحبيبته، بناها العاشق لمعشوقته، فالمطابقة الإناثية تأتي في نص (وريثة الشدائد..) بتلك الفرادة لإمرأة زئبقية تجمع العشاق وتلقيهم للوعود والشهقات وأسيرّة الوحشة تماماً كعشتار، لكن هناك – أيضاً – كلكامش – رجلاً واحداً– رفضها، هي المعشوقة المتمناة المطلوبة التي تضع (الحناء والتعاويذ فوق جفونها والقمر ناموساً خلف عرسها) ومع ذلك يبقى ثمة من يرفضها وهي تنتمي

إليه، لأنها (وريثته) في (الشدائد)، فهي (عروسه) بالتالي خلل الاحالة (الحناء) وهـو (حاميها) بدال: (التعاويذ):

فالمرموز الأول: بمـا يحمـل مـن دلالات مـوروث العـرس وتقـاليده في بلادنـا، يوازيه ويجـاوره مرمـوز ثـان: كمعـادل موضوعـي لحقيقـة (انـا) السـاردة الشـاعرة المعشوقة ينفتح على دال الحماية والأمانة وبدلاً من "الجفون" يقلـب النـص المفهـوم إلى "جنـون": (جنونـي)، لأن العاشـقة (الشـاعرة) المعشـوقة، هـي هنـا (المتباهيـــة) والمحاصرة بالموت والزوال خلال الإهمال والوحشة. أما الحالـة والإحالـة الاخـرى، الـتي تتبـدى في المرمـوز، (القمـر) فـإلى (انانـا) ينتمـي وناموسـها، كمـا أوضحـت (انخيدوانا) الكاهنة، الأميرة، في قصيدتها (سيدة النواميس) – كما أشرنا –

ولكن عرس (عشتار) الشدائد هنا، هو حبس من نوع الحصار لأن:

(.. لاشيء يشبه مغفرة عروسٍ مرصعةٍ بفيروز الأسى) حيث يجر الزوج الغـائب المخاطب عن بعـد: (ثوبهـا العنيـد) الـذي يطير ولا يصـل أبـداً إلى مـا خرجتـه يـداه (اغتصاب) هو (عرس) إكراهي يخلق بالتالي منفى الجسد ووحشة السرير والروح.

■ ... ماذا يعطي (نص الجسد) في ظرفية الحصار، إذا؟

انه نمط من "كتابة متحررة" تحاول "تغطية الجسد الفردي والاجتمـاعي والثقـافي بأصناف الخطابات التي تحجبه وتنفيه إلى مجـال المصمـوت عنـه واللامفكـر بـه.. هـذا الجسد يقـدم نصـه "حيـث المنفـى والسـعادة لا يجتمعـان"[43] التداخـل بيـد عذابـات الساردة – الشاعرة – في (نص: الشدائد) يتجلى في ثنايـا لغـة تحـاول التقصـي، لغـة تتقصى لغة أخرى (لغة جسد/ لغة نص) و"كأن الذاكرة خداعة وخوانة بينما الجســد لا ينسى" – حسب فرويد –[44]

الإحسـاس بـالمنفى الداخلـي، هنـا: (الحصـار: الجنـس – الجسـد – الـروح)، يتجلى حين يجد الإنسان نفسه محاصراً بعلاقات يومية تذكـره بغربتـه وهامشـيته في الزمان والمكان.

---

[43] هذا هو عنوان دراسة (معجب الزهراني) /بجلة (نزوى) – عُمان – العدد 1995/3 ص: 20–32 (قراءة في مذكرات أميرة عربية).

[44] المصدر نفسه ص:23.

وأي نص يحكي تجربة الاغتراب يجسد التوتر الشديد والمؤلم، لذا يندمج صوت (أنا) الساردة و(أنا) الشاعرة حين يترجم النص عالم الرغبة والصراع، الطموح والحلم، الألم والحب، النشدان والتعلق، والكره والخوف.

والجسد المحاصر المغترب، لا يعيش عادة، في سياق شروط ووضعيات (جديدة)، لا يمكن الاندماج فيها بعمق واطمئنان حتى وإن تلبَّس الأقنعة ومَثَّلَ الأدوار، وصدَّق الظنون والتوهمات، إنه خروج مبهم أحياناً، من (نسيج الحقيقة) أو (الطمأنينة) أو (الوهم) في آن.. فالنص (فضاء بديل) (فضاء تمنّي) هو "وحده القادر على إسهام منتجه بإمكانية "السكن" في عالمين متباعدين مختلفين ومتقاطعين، وقد يكونان معاً متناقضين" كالحبس والحرية!

سوسيولوجياً، وبُعداً ميثولوجياً، بعد تخييلية طقسية: (ماء/ نذور/ آس/شموع/ عرس/ حناء)، تولّدت في هذا النص (محاولة لإعادة تأويل المعنى والواقع بمفارقة ضدية) هي (ضدية الواقع) و(ضدية النص) في آن، (مفارقته الضاجّة)، حيث اللاتماثل في العلاقة بين إثنين هو نمط من (حصار) حياتي:

■ (لأني منهارة جداً في هذا العماء
سلمت الجنائن لكف المطر
مطر للغياب
مطر للناس
يتساقط المطران
مطر يجثو على الأوراق
أوراق تمسك بنا
ثم..
ننكفىء كخطين متوازيين على وجه الزمن)

حالة المطر، في هذا النص، كأنشودة المطر لبدر شاكر السياب، لا تعني المطر الواقعي بل الحلول الميتافيزيقية، أو الحل الميتافيزيقي الذي يقابل ظمأ الجسد وأحزانه وافتراقه وغربته، هذا (الظمأ) و(اللاتلاقي) يجعل النص - بالضرورة - يطلق حكمياته أو أوامره في جمل، ولمرات:

- (الكأس يمتليء بالهذيان)
و - (الأقداح فارغة من العزلة)
- فتمن، وتمن: "فعُد" بوشاح أصفر أيها الشفيع
لأمني الحقول بقمح يحمل فوهة الفجر..
سيطلع عما بعيد.."

أو "سيطلع" الخبز هناك، و"القمح" هنا.. مقارباً نصياً.

و"فوهة" تحيل إلى "بندقية" ، "ثورة" تحرر من حبس أو خروج من حصار أو ظلام.. الخ

فالقمح، هنا، سيحمل فوهة الفجر الذي سيطلع عما بعيد.. ويترك النص مفتوحاً، أو سيطلع البعد، البعاد، البعدية، في نص "الشدائد" يشتمل على المرأة والأرض، الارتواء أيضاً بعد وجوب، الشبع بعد جوع حيث:

"تعود الحمرةُ إلى خدود العيد" هذه الخدود التي استعادت ألوانها بعد شكل الخوف، حيث:

"لا شيء يكتبني الآن غير بهاء العري المكفن بنذور الانتظار وأدعية الحرقة":

"كل الأفكار مغمطة.."
"لا شيء غير المكان يعمدني" (بالركض والنسيان)
"يطلق أغلال شَعري وشِعري.."

هو "الماء" -.بمدياته التأويلية وداله الواقعي في آن، وحده الذي يطلق (أنا) المحبوسة ويحررها من أغلال شَعرها (أنوثتها) وإبداعها (شِعرها)، فماذا يتبقى لها كي تمسك بالحرية وتنطلق في ساحتها الرحبة؟

"الجسد سجن ملامة!
و"الماء" هو "المخلص"، إذاً:
"مُدَّ صهيلك أيها الماء إلى محرابي
إكشف مخبوء ملامة أضناها الجسد
وسلطها الشعر عليّ..."

الصهيل ← المحراب← الملامة← الضنـى← الجسـد ← السـلطة ← الشـعر ←:
(موحيات) الأسماء والحالات، والاستحالة - معاً - هـي إذاً "سيدة جميع السـواد"
(من كربـلاء - كإحالـة - إلى الخديعـة الأولى، لأنهـا "وريثتـه" منـذ عهـد الخليقـة
(الخديعة) الأولى، وهو "وريثها" حد الكربلاءات.

وتتصاعد تنويعات التقابلات الثنائية في النص، كأنهـا حـوار بـين اثنـين، همـا يعرفان من هما، حيث الحزن ذاكرة، و(هي) (انا النص): "ذاكرة الذيـن مضـوا و لم يسرقوني"

- "بعد الحزن صلاة
وانا تراتيل مسافرة على ورق مهجور
الحزن جمال الخيبة ... ..."

....

ويتحول النص إلى السردي في الروي حيث: "كلكامش فارس خانته الذاكـرة فمنحها بهاءً وجمالاً موشومين بأوروك /سيظل لصق روحها أبد الآبديـن/ فيمـوت الجوع أبد الدهر/" هـل يمـوت (هـذا) الجـوع حقـاً؟ لأنـه ينـأى بـين اللـذة وهيبـة عشتار، في مركب قلق لا عهد لها بـه قبـل رحيلـه، وشـط مكـابر، وشمـوع تبكـي الجفوة، والمكائد بعد (قيامة) عشتار المحتارة؟ مع ذلك،.. حيث هللت الحيرة لجنـازة عرسها المرفوعة على أكف الحروف والخواء والصمت:

"وحيث المدينة
الجسد،
الأرض،
الحياة،
ممدودة على السرير، القبر المفتوح علـى السـواد والأحـزان
لعشاق متناثرين في الوحشة.."

وحيث تنتقل - في المقطع ما قبل الأخير - كعروس مفجوعـة، إلى تـراب مـا كانت عليه: (وهي تحلم: أو أيد بهية الطلعة، تجر الأحياء والجبال والأشجار وقلاع البيوت والضيـاع، في أُفـقِ نهـرٍ صديـق. وبعـد أن تغـوص في جسـد المـارة، تمضـي

ويقومون على وجه الماء، رافعين، ضاربين الكفوف، يبحثون في عرس عشتار/ غياب الخضر/ رأس المعمدان/ وَهْم كلكامش/ عن موسم للخلاص) وهكذا:

(تقف عشتار، لتطلب من الناس، في النداء الأخير، أن يمطروها كل يوم بالحب، لأن شفاعتها، مؤجلة، ولأنهم لم يولدوا بعد، وهي لم تمت بعد كذلك، فتطلق الصلوات والأدعية والشفاعات المؤجلة، وتدعو الأرض ألا تسرق جسدها وتتمنى أن تحمل اليمّ ليبقى).

وتستطرد في التمنيات الختامية، كأنها كورال غناء واعترافات، مسلة احزان:

■ (ليته يأتي ليغني جمالها في الوعد
ليته يلملم الحسرات بشجاعته، ويحملها لتزول
ليته يمضي لتعمّ الراحة على التعب
ليته يمنيها بالأبدية لتدخل قارورة السماء
وليته يفرِّغ قلبه من حقده الإلهي
لتتوب على عينيه وقيامة الشعوب
ليته يتوب.. ليتني أتوب)

وهكذا تتمازج عشتار بأنا الشاعرة، بالتمني، وبالتوبة، كما يتمازج (هو) الذي تزوجها في مأتم عرسها! مع (كلكامش)، و(الماء)، ليكون شفيعها، لأنها وريثته في الشدائد...

هنا، الجسد مستلب، والجوع الجسدي شكل من أشكال الإباحة والإغتصاب، "الحب" المهجور، اللامُعلن، والذي لا يمكن أن يعلن، لأن المجاهرة به تعني (خيانة) علنية (القامع)، لذا يتخفى داخل النص تحت قناع الـ (هو) الذي (ليته يتوب). و(هي) النص (مقموعة) أخذت إلى فراش، إلى سرير في عرس موتها، ظل سرير الوحشة تماماً، كما لو كان قبرها.

نص الجسد هو المكتوب الأول لنص الشاعرة. و(الجوع) يشتغل برمزيته وأبعاده الاخرى، جوع إلى الحب الحقيقي، إلى الارتواء الجسدي، إلى الزواج الحقيقي، لا محض المأتم، انه إدانة (الآخر) الذي حرم الجسد من حقّه في الإنتماء إلى

لذة عرسه، وعدم حرمانه علانية أُنثويته وفرحه وحريته، بل يحاط بحصار الندم، واللوم، والحقد، والتعب.. ولا يتأتى الجمال في الوعد..

إذاً (هو) الحاكم، الظالم في النص

و(هي) الرعية، الضحية

هو الغاصب وهي المغتَصبة

هو المتعالي وهي المطية

لذا، أبداً يظل المهيمن أكبر من الحالة، والأسلوب أكبر من الأشخاص، والجسد المسلوب، هو كالأرض المسلوبة، التي تظل سجينة الجدب والإهمال،.. مع أنها، من شدّة حبّها له، وتعلّقها بوهم عودته يأتيها ليغني في الوعد جمالها..، تبقى وريثته في الشدائد بالرغم.. وبالرغم.. وهو أشقى أنواع حصار الجسد في إنسانيته وحريته، خارج قهره وأغلاله.

القسم الثالث

٩ - فصل الختام:

■ الصراع.. غدا!

■ التعاسة هي فقدان التوازن، حين لا نرى إلى عقرب الساعة يدور..

وعلى الضد من الخوف، والتخلف..، الغربة والحصار، ومحاولة "الانتحار" المشترك، على العرب ان ينظروا إلى فلسطين، كما نظر الصينيون إلى هونغ كونغ فاستعادوها بعد 156 سنة من الانتظار.. حيث أصبح التاريخ صديقاً لهم ثانية..

(وإذا كانت (اسرائيل) (القزم) بحجمها وإمكاناتها المتطورة ووجودها غير الشرعي، لم تضيّع الوقت و لم تنتظر، بل سارعت إلى التقارب والتودد للصين، مرة ببيع التكنولوجيا المسروقة، وأخرى كجسر لتوثيق علاقات الصين مع الغرب ومع أمريكا بشكل خاص، حيث نجحت في إقامة علاقات دبلوماسية ظلت الصين ترفضها سنوات طويلة، نجحت في زيادة التعاون التكنولوجي والاقتصادي معها إلى أضعاف ما كان عليه. وبعودة هونغ كونغ إلى الصين، تكسب (اسرائيل) مدخلاً جديداً لتوثيق العلاقات معها من خلال الجالية اليهودية في الجزيرة العائدة لامها. حيث تتمتع تلك الجالية بنفوذ مالي واقتصادي كبير رغم أن عدد أفرادها لا يتجاوز ثلاثة آلاف يهودي.

وبغض النظر عن (أحلام) السلام و(التعايش) العربي – الاسرائيلي، يظل هذا الكيان المعادي منافساً قوياً وخطراً على مصالح العرب السياسية والإقتصادية والثقافية.. فهل يأخذ العرب زمام المبادرة، ولومرة، ويفكروا بمنطق العصر ومتطلباته واحتياجاته الملحة) ويجعلوا من الصين حليفهم الحقيقي لصراع الغد، صراع القرن الحادي والعشرين.. قبل أن يفوتهم القطار وجسور التواصل الممكن، إلى ثغور للمواجهة والصدام فتصلحنهم عاصفة الصين وتنينه الزاحف على القرن الواحد والعشرين، وعلى الكرة الأرضية!

إن الصين أفشلت مقولة أمريكا عن "نهاية التاريخ" وأسقطت العولمة الأوربية، والأمريكية في شباك الشك والترقب.. وبإمكان العرب أن يفشلوا المقولة ذاتها، حين يستعيدون طموحاتهم لاحتلال موقع متقدم في سلطة اقتصاد العالم، بفعل تغييرات سياسية جذرية في المنطقة، و:

تعليم ال 65 مليون أمي عربي

وإيجاد وظائف ل 40 مليون عربي عاطل.

وأنصاف 250 مليون مقهور من الظلم من المحيط إلى الخليج.

إذ يمكن النهوض بالمنطقة العربية، التي فيها من المليونيرات ما يكفي لإسعاد الكرة الأرضية!! فالتطبيع.. في موجهاته المعادية لاسرائيل، خطر على (هويتها) في المحصلة..، ولكن مقاومته تزيد من الصراع داخل هذا الكيان المعادي، وتخنقه!..

ان نتنفس بحرية وعينا، أولاً،

وبوعي حريتنا، أولاً أيضاً..

كي نطلق أجنحتنا العربية في سماوات حرة لغد العالم.. ونبتكر قيامتنا الجديدة..

ونلقي (بالعجز) الذي وضعوه - عنوة - في أعناقنا، كأنه النير.. نلقيه في سلتهم..

آنذاك، يمكن بالفعل، أن تكون لأجنحة حريتنا، قوة الانطلاق، حرة، سعيدة.

... ...

وأولاً، أولاً..

نحتاج إلى دراسة الغد، ومعطياته المفتوحة المقترحة..

ندرس الخوف

وندرس التخلف..

وليقدما.. استقالتهما من عقولنا.

إذاً.. السؤال هو:

إستقالة الخوف؟

أم إستقالة التخلف؟

- صراع الحضارات،

أم صراع الثقافات؟
ماذا يخبيء لنا الغد، والفرد فقد خصوصيته بفعل التكنولوجية، بحيث يمكن معرفة مكانه وتحركه من خلال "بطاقة الائتمان المصرفي" لمجرد أن يضعها في أي "جهاز" ليسحب نقوداً!
أو من خلال "تعري" الكائن /الآخر/ عبر شاشة الكومبيوتر، من خلال المخاطبة بالانترنيت!! وكل الذين وضعوا هواجس السياسة ومطامح الاقتصاد في حدقة أفكارهم، لأن هونغ كونغ عادت إلى الصين يركبهم خطأ الغد.. كما يركب خطأ الغد كل الذين يعتقدون أن العرب ماتوا قبل أن يولدوا في القرن العشرين دولاً ودويلات..، فكيف وهم سيظلون في سجن القرن العشرين، حتى وان دخل العالم الأول القرن الجديد قلقاً على مصيره نتيجة الصراع، من ذلك التنين القادم من الصين (الشعبية) فعلاً..
البعض يعتقد أن الدخل السنوي الذي بلغته هونغ كونغ - كمتوسط - 11 ألف دولار للفرد، في حين لا يزيد في الصين عن 1200 دولار سنوياً.. (أي بفارق عشرة أضعاف) سبباً لتلك الهواجس.. أو بقياس الناتج القومي الذي بلغته هونغ كونغ (47 مليار دولار) ولتحتل المركز العاشر على مستوى في تجارة الخدمات، والسابع في تجارة السلع، يجعل هذا القلق يتزايد.. بالرغم من علمهم أن اجمالي الاستثمارات الصينية من الجزيرة بلغ 23 مليار دولار (أي بنسبة 30٪ من مجموع الاستثمارات) كما بلغ اجمالي مدخرات هونغ كونغ في البنك المركزي الصيني حوالي 20٪ من مجموع المدخرات في البنك. في حين قفزت الصادرات من الجزيرة إلى الصين (84 - 1994) من 4.9 إلى 8.2 مليار دولار، وتسيطر هونغ كونغ على 75٪ من المشروعات الكبرى في الصين، وفي المقابل تقوم شركات صينية بحوالي 80٪ من المشروعات الصناعية الحديثة في هونغ كونغ.
ان ذلك يعني أن التداخل بين الاقتصادين قائم بالفعل.
فمتى يدرك العرب، أن التداخل بين (اقتصاداتهم)، يشكل أول مساحة حقيقية للوقوف بثبات في مواجهة (الغول) الصهيوني أولاً، وفي مواجهة (التنين) الأصفر، كي لا يبتلعه. ومتى تلغى الحدود (الكمركية) بين البضائع العربية - العربية.

متى تنشأ سوق حرة عربية لكل الدول العربية مجتمعة..

متى.. متى.. كي يدرك العرب حجم قوتهم الحقيقية، إن أرادوا أن يفعلوا شيئاً لصالح بقائهم أحياء نشطين في القرن الواحد والعشرين..

جزيرة تعود إلى أمها.. مثل طفلة، ولكنها، مدللة، ثرية، وذات منهج ونظام يبدو مختلفاً، لكنه لا يختلف، أبداً، في جوهر صينيته.

"القوى المشتركة" بين الجزيرة وبكين ومكاو، وتايوان، مستقبلاً.. ستجعل شعب الـ 1.3 مليار نسمة هو "سيد العالم".

ونحن نبخس قوتنا كعرب، مالياً، واقتصادياً، واستثمارات.

إذاً.. حين تظل "ثغر العطور" (كما هي ترجمة هونغ كونغ)، ثغراً للصين، أفلا يمكن أن تكون "الثغور" العربية كلها ثغراً للأمة، التي لا تتجاهل التوقعات، ولا معطيات الاقتصاد والسياسة، للاستعداد للقرن الواحد والعشرين...

وإذا كانت عودة هونغ كونغ إلى الوطن الأم مفصلاً حقيقياً بين "العولمة" والمصالح القومية، كون الصين قادرة ذاتياً على صياغة كيانها الاقتصادي الاجتماعي المستقل خارج "النظام العالمي " أو "العولمة"

أفلا "نحلم" بأن تكون أوطاننا، وطناً بلا نأي ولا تباعد، حتى لو اختلفت تضاريس اقتصاداته؟ و.. لكننا "نحلم" أو "ينبغي أن نحلم". وان صبرنا على البلوى طويلاً.

■ كي لا تأخذنا الحماسة مآخذ بعيدة، وكي نكون أمينين مع ما نشعر به، حتى في تأكيد نفينا، أو مضاده..

وكي لا نبدو عاطفيين في تمجيد الفجيعة. والاكتفاء باستعراض استلاباتنا وآلامنا، خسائرنا، أو هزائم جيلنا.. نريد أن نعبر عن رغبتنا في الانتصار على الكيفية التي وجدنا فيها العقل العربي محتلاً، أو يكاد، بخاصة حين تتخذ الازاحة شكل الهجرة للعقول. أو الحصار على ما تبقى.

ولأن المثقفين العرب يجيدون المبارزة بالكلام، وإن بسيوف من خشب، كوننا نجيد صناعة الكلام، ونعتبر للآن، الشاعر صوت القبيلة، والشعر ديوان العرب، تتركنا التكنولوجيا بعيداً، في الحيز الخانق الذي وضعتنا فيه الإمبريالية والصهيونية

على مدى الخمسين عاماً الماضية.. حتى جعلت أكثر الراكضين في سباق التسوية، هم من المثقفين، بعد الساسة، طبعاً.

نبرر عجزنا التاريخي حين نقدم "تفوق" الآخر طرفاً في معادلة الوجود. ولا نتوانى عن ملء صحون موائدنا بالضجيج الإعلامي، والشعارات، وبالتالي نغادر مائدة عصرنا ونحن جياع.

هكذا يريدوننا. أن نعيش في قرن ما قبل الصناعة! كي تتوغل عربتنا في وحل التخلف.

ولأننا، أصلاً، لم نطرح على أنفسنا السؤال: ماذا نريد؟

فقد جعلوا حناجرنا محبوسة، مع أننا نعرف في دواخلنا جيداً تلك الإجابة الساحرة: أن نكون كما ينبغي.

يريدوننا أن "نتطبع" على ما نريده، ليس ممكناً.

لقد سلبونا الأرض،المال، الثقافة، والحرية.

في حين، نحن ننظر بعيون مركبة أحياناً إلى ما يدور حولنا من صراع الحضارات، وندرك أنهم سلبونا حقنا كأمة أن ندير ساعة الحضارة تالياً.. وأن نكون بما نمتلك من ثروات وموارد بشرية ومادية، وجغرافيا، وتاريخ، مياه ونفوط، ومعادن، وزراعة، لغة مشتركة، ودين وتقاليد.. سادة الوضوح، وأن ندير عجلة الحضارة القادمة، أو نكون ربابنة الدورة الحضارية.. لكنهم منذ بداية القرن العشرين، وضعوا المخططات لنتمزق. ولنستلب، حين قرروا استثمار فائض طاقاتنا وثرواتنا في الحروب! وإدارة اتجاه السهم المسدد إلى قلوبنا.

في حين يقوم صراع الحضارات الآن على رسم مسار المستقبل، والنتائج تكاد ترى: فالعولمة التي تحاول ابتلاع الجميع وكل شيء، تواجهها (حالة) آسيوية، قد لا تبدو صارخة، لكنها واضحة..

فصراع القرن الحادي والعشرين بدأ منذ سقوط العالم في حروب ما بعد الحرب الباردة، فالعولمة، لم تعد تحارب، بل تهيمن..، وهي، مع ذلك، تدرك، بعد أن مزقت الأثنيات، والأقوام. والاقتصادات، ستكون في مواجهة التنين الصيني، الذي ينظر بعين ولا ينام، إلى ما يجري حول سور الصين، وخارجه!

(الخطر الآسيوي) – كما يسميه الغرب – قادم لا محالة.. ولكنه ليس من منطقتنا بل من هناك.. لا اليابان، ولا اليابانات الصغرى، على خطورتها، توازي عملقة الصين. التي ربما هي وحدها، تشتغل لصالحها. حاضراً ومستقبلاً، ولكن بأناة وصمت.. دون أن تستعمل "الفيتو" لصالح أحد، إلاّ بحسابات مستقبلية دقيقة..

مرة، دعا، ليوشاوتشي، العقل الستراتيجي في قيادة ماوتسي تونغ، كل الصينيين في الخارج لدعم بلادهم، بتحويل مبلغ لا يقل عن عشرة دولارات، لحساب الصين في بنوك معلومة..

"ومن لا يدفع سوف يحرم من الدفن في أرض الأجداد"

هكذا كان النداء.. وكانت الاستجابة جماعية.. بحيث أصبح بإمكان الصين بعدئذٍ، أن "تقرض" الدول، عملات صعبة.

لا أحد يضحي من أجل غيره في صراعِ الحضارات وقادم السنين.. الصين، الآن، تستقبل خمسة آلاف شخص، سنوياً، ليدرسوا اللغة الصينية، والآداب الصينية، لمدة سنتين، على حساب الدولة...[45]

إنها تخطط للمستقبل حين توفر جيشاً من المناصرين لها، باللغة على الأقل لخدمة توجهاتها القادمة، وسنأتي تفصيلاً على هذا التوجه الصيني، "والنمور" والاستعداد للغد.

نحن نعرف أن (التطبيع) أمر محسوم، منتهٍ، حتى إشكالياته قابلة للحل. وما نقدمه في مقابل ذلك النظر فقط إلى سريره يتسع لينام عليه الجميع بخدر! فقط لا نريد أن نقول لضميرنا أننا عاجزون، ونعترف.. بل، نحاوره بيقين ونجابه سؤال القرن الحادي والعشرين: ما العمل، ماذا نفعل، في صراع الحضارات؟

مع إيماننا أن أول البدايات هو رفض هذا العجز العام، في مقاومة احتلال العقل، واحتلالنا لاحقاً..

---

[45] ـ هذه الطروحات وتالياً كانت موضوع سجال بين الكاتب والصديقة المبدعة لطفية الدليمي لطرح البديل في المواجهة.. وليس الاكتفاء بفرش الحالة.

صحيح أننا، الآن، لا نملك نظرية موحدة، ولا رؤية موحدة، ولا قوة موحدة.. لكن الجذوة لا زالت تتقد في أعماق شعبنا العربي، والمقاومة موجودة لحد، ولكن تفعيل آلية المقاومة، وتعميمها، بدءاً من الذات، وانتهاء بالجميع، سيجعل بحثنا عما نريد، واضحاً.. ولا تسقط مشاريعنا القومية النهضوية في السراب.

وصحيح أننا الأغنى في العالم، ثروات وموارد، لكننا الأفقر - عملياً - لأن كل شيء ابتلعته الحروب، أو راح لحسابات خاصة في مصارف الغرب.

ظلت الشعوب تعاني، وهي، وقد وصلت حالة خرافية من الجوع، وتمشي على سراط "خط الفقر" تنتظرها الهاوية السحيقة، إن لم نستعد شباب ثرواتها. وشباب وعيها.. وتطلق عنقاءها من الرماد حتى لو بدا بارداً.

ندرك، أن المال قوة، والحرية قوة، والديمقراطية قوة، والموارد البشرية قوة، والإيمان، قوة.. واللغة والدين والعمق الحضاري، وإرثنا.. لكن أيضاً، ندرك أن المستقبل يشتغل على تقنيات العصر، والاتصالات، والمعلوماتية، وتكنولوجيا الإزدهار العلمي. وهي بأيدينا، ان نحن استرجعنا مجموعة "قوتنا" في المال، والثروات، والأرض، والموارد البشرية، و.. وفعلناها.

العولمة بدأت زحفها الساحق.. وستتغلب إلاّ إذا تصدت لها الصين، التي تمتلك أرضها موحدة، ومواردها البشرية والمادية الضخمة، وتماسك مجتمعها، وكينونتها المتحصنة،.. وإلا إذا خلقت مناطق صراع.. وإن لصالحها.. لأنها إذ تستعد للمواجهة، ستزحف هي الأخرى، ليس فقط نحو العالم الرأسمالي، ولكن أيضاً نحو العالم كله، ولكن بوسائلها العقلانية وحكمتها القديمة، العريقة.

وعلى الضد. فالغرب الإمبريالي سيد الدورة الحضارية الراهنة، الذي برغم العولمة "الأمريكية"، فهو متآكل أو يكاد من الداخل، إنه يعاني من صراع التفكك، والبطالة، والكساد الاقتصادي، والتضخم، أيضاً..

في القرن القادم، الصين هي التي ستتحرك نحو الغرب لتبتلعه، إنها الأتي - عولمة.. وستستخدم ذلك الجيش الذي تعلم تحت رعايتها، ليكون متاريسها السائدة في أرجاء المعمورة.

إنها الآن تمتلك نظامين، ولكن تحت رعاية الدولة الأم: هونغ كونـغ، حـاضراً وتـايوان، لاحقـاً.. وهمـا ثنـائي خطـير التأثـير في اقتصــاد العــالم وتكنولوجياتــه. سيكونان ذراعي الصـين، اللذيـن يضربـان، ولكـن بـذات أسـلحة اقتصـاد السـوق وحريته! الذراعان اللذان يمتدان إلى جيوب الغرب وبنوكه، باقتدار..

نحن البلدان العربية، سنداس تحت سنابك الغرب والشرق، معاً، بين "وحـش" العولمة، وأذرع التنين. ولا ناصر لنا إلاّ تفعيل قدراتنا باسترجاع: قوة المال، وحريـة القرار. وإطلاق طاقة الإنسان..

وإذا: توحدنا. أصبحنا (كتلة صلدة) في وجه الآخر، الخـارجي، مـن أي لـون كان. والسؤال، يلح ثانية: متى وكيف؟

أكيـد حـين تنقـرض تمامـاً تلـك الأغطيـة الـتي تلتـف حـول عقولنــا وقلوبنــا وأجسادنا ووجوهنا من عثرات "الدشداشة" إلى ظلام "اللحى" والعمائم المسيسة.

ولا بد، كي لا نطرد من جنتنا، أن نكتشف هذه الجنة، ونعيــد انتاجهـا علـى الأرض! لا بد، أن نـرى إلى العـالم وصـراع الحضـارات بعيـون مركبـة وعقـل حـر منفتح وطليق، كي ندرك، أولاً، أن من "علامات الساعة" حقـاً: ليـس "الخرافـات" والوهـم، بـل ذلـك الغـزو الـذي سـنكون أول ضحايـا فكيـه: الغربـي، والآسـيوي لاحقاً..

ماذا نعمل؟

إنهم يسعون لتطبيعنا ليس مع "اسرائيل"، حسب، كعدو صهيوني، تقليـدي.. ولكن، أيضاً، لتطبيعنــا عالميـاً، لنكـون تحـت أنيـاب العولمـة، تـأكل جسـدنا المـالي، الاقتصادي، بعد أن أكلت أرضنا، وهي تأتي على عقلنا.

"كنـا خـير أمـة أخرجـت للنـاس.." ونريـد أن نكـون الآن كذلـك، لا تمـايزاً قوموياً، متعصباً، ولكن بفرادة إبداع.

إذاً: هـل هـو طمـوح الحـالمين أن يكـون لنـا مشـروعنا النهضـوي الحضــاري المعاصر؟ في مواجهة، مشروع الغرب (العولمة)، ومشروع الشرق (الصيني) القادم؟

إذاً، ما هو المشروع العربي، في المواجهة؟

الذي، لا بد أن يبدأ في مواجهة (التطبيـع) بكـل أشـكاله وألوانـه، أولاً.. وفي مواجهة محاولات (احتلال العقل).. أساساً.

ما هــو النمـط الســتراتيجي مـن التفكـير والمعرفـة، الـذي نحتـاج، ليقودنـا إلى اكتشاف ذواتنا، وتحقيق ما نريد بكفاءة اقتدار؟

هل نطرح أفكاراً طوباويــة حـين نقـول بأننـا، ببسـاطة، نحتـاج إلى "الثـورة"؟ الثورة في النفوس وعلى ترسباتها، أو سباتها.. وفي العقـول وعلـى الصـدأ والتـآكل الذي نال منها، لنجلوها جيداً.. وفي الثروات والموارد، كـي نسـتثمرها في اللحـاق بعصر التكنولوجيا المتقدمة، وعصر الحاسوب والانترنيت والاتصالات المذهلة.

من سيفعل ذلك؟

الشعوب، المغلوبة على أمرها، أم الحكومات المستلبة، أيضاً؟

ها نحن عدنا إلى الطريق المغلقة!

جيلنا (المهمش) (المستلب) (المنخور) (المخترق) (الراكض وراء لقمـة العيـش) والهارب المطارد من غول الجوع والعوز والإحباط واليأس، والمستأنس بجلد الذات، ومعاقبتها، أو العاجز حتى عن مساءلة نفسه؟

أم أجيالنا القادمة، التي، هي ستكون في المواجهة الحادة أصلاً؟

من يربيها على تعلم فن قيادة الصراع واسترجاع الثروات وتفعيل الموارد؟ هل تخرج على الجميع، متمردة، غير مسيطر عليها في حاسوب، أو برمجة؟

من يدري؟ (إنه جواب ناقص!) و(تشاؤمي)..

إذاً، لا بد أن نقول انها تدري، تلك الأجيال، إن لم تجزب مسبقاً!

يمكـن أن تعــود الطيــور المهــاجرة إلى أوكارهــا، محصنــة بــالعلم والثقافــة والتكنولوجيا، حتى لو غمر الأبيض شعور رؤوسها!

أما الكفاءات العالية، التي هاجرت، فربما لن تلحق بقطار العودة.. لأن عمرها آنذاك، سيكون قد توقف في محطة الأبدية والغياب.

أملنا، إذاً، في الشباب..، لو استكملوا عدتهم للغد، حتى لو كانوا موزعين في المنافي،.. حين يجعلون – بإرادتهم – من المنافي، أيضاً، ســاحات تحـدٍ لهـم، لإثبـات الوجـود، وتـأصيل الكينونـة والهويـة والخصوصيـة في الإنتمـاء إلى وطــن يبقــى في الوجدان ولن تغيب شمسه عن قلوبهم وعقولهم.

....

■ هذا الكتاب بدأ بأسئلة وجودية، ضمن ميتافيزيقيا المأساة، والألم.. قد تكون الأسئلة مشوبة بالعاطفة، ومنغمسة بالأدب!

وإن كادت أن تنغمس بالمغلق المستقبلي، الذي يحاولون طمسنا في ظلامه! صحيح أننا لن نعيش أطول مما بالمستطاع.. لنرى إلى تلك الدورة الحضارية الجديدة.. التي ستنتصر على "العولمة" المهيمنة الآن!

لكننا، على الأقل، نستشرف أفق المستقبل بشيء من حماسة التفاؤل، فقط لأنهم، بعد، لم يستطيعوا إخماد الجذوة في داخل إيماننا، بالشعب وبالأمة، وبالأجيال القادمة.

كنا نتمنى أن نكون نحن، في وهج ما ينبغي أن نحلم ونحقق.

وأن نرى إلى هذه "الكتلة" العربية دون تفتيت أو تفكيك..

مالكة ثرواتها وزمام قرارها المستقل وحريتها ووعيها الحضاري والعصري. مستندة على عمقها الحضاري وإرثها ومواردها.

لكن (العدو) العولمة الامبريالية – و(العدو) الأقليمي.. حاولا سلب كل شيء، البعض، أو الكثير، يراهن على (الاسلام) بدلاً من (القومية).. فهو (العدو) الذي تراه الامبريالية والصهيونية (خطر) الحاضر والمستقبل، بعد موت الحرب الباردة.

لكن الحاضر، الآن، هوليس صراع آيديولوجيات على النمط التقليدي، ولا صراع مصالح اقتصادية، كما في الظاهر، حسب، بل أولاً وأساساً صراع ثقافات. و(الدين) بعض حصانة الثقافة العربية..، دون سقوط في وهم الأصولية وشباك الطقوسية، المتخلفة،.. أتحدث هنا، عن قوة لا يستهان بها. وأنا واع إلى خطورة تسيس "الدين".

صراع الحضارات، هو صراع الثقافات. والصين التي نرشح كمواجه للعولمة الغربية سيدة ثقافتها المتماسكة. ثقافتها التي لم تخترق ولم تغيب ولم تحتل.

سينضب نفطنا، تالياً.. إن لم تكن آبارنا تحت السيطرة منذ الآن! أو منذ زمن. وقراءة عميقة لمجريات راهننا، في المنطقة، ومحيطنا الاقليمي تشير إلى جملة أمور لم تستو بعد..

ومثالنا العراق:

فالعراق الوعاء: الدولة والشعب، (يجب) أن (ينتظر) "فترة طويلة" - كما قالت مادلين أولبرايت - "قبل أن يكون ممكناً النظر إليهم - العراقيين - من جديد ومعاملتهم إنسانياً كشأن الأمم والدول الأخرى"

هذا "الانتظار" الذي توجبه (أولبرايت) بمثابة تكميم المارد، الذي، في حالة وضعه بالسكون، تجري الأمور الأخرى في المحيط الأقليمي بتسوية الأرض والكيانات من كل "عائق" لتنفيذ المخططات الإمبريالية - الصهيونية كاملة. فالعراق، يقع الآن (وبشكل غير متوقع ومنتظر في إطار ما يمكن تسميته بالفرصة الامبريالية، في سجل سجال طويل ما بين فترة استعمارية ماضية وأخرى جديدة بثياب "قانونية" - كمهمة رالف أكيوس التي تعتبر خارج حدود المعقول القانوني والسياسي، هذا الأكيوس، الذي قام بمهمة غير مسبوقة، بل ان مهمة كهذه كانت قبل سنوات تعتبر خارج حدود المعقول لأنها تشكل خرقاً فاضحاً لمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة ولأنها تعمل في "حيز لا تحكمه أي من الأصول والقوانين الدولية المتعارف عليها"

- كما يعترف السياسي البريطاني العريق: سيريل تاونسند عضو مجلس العموم سابقاً - (جريدة الحياة 13 تموز 1997) - بعد أن خرج أكيوس غاضباً، وهو الذي أنجز ما لم ينجزه قصف منهجي بأحدث وأخطر وأشرس وأشد أنواع القصف الجوي الصاروخي والبحري طيلة أكثر من أربعين يوماً!

اليوم، ومع تسلم "بتلر (ريتشارد بتلر) من ذات غرب أكيوس، مهمته المستحيلة!، برمي الكرة في ملعب العراقيين كلهم: شعباً ودولة، عندما قال: " إن التقدم الرئيس المطلوب يتطلب جهوداً جديدة من الطرف العراقي لجهة التصميم والتعاون الفعلي!!"

وهو ذات الكلام الذي كان يردده (أكيوس) عندما كان يطالب العراق بقرار سياسي يقرر فيه العراقيون "تصميمهم على التعاون من أجل إنهاء عمل اللجنة" ومع أنه، كلام (أكيوس) هذا قد أصبح تاريخاً، إلاّ "أن التاريخ له مكانة" - كما يقول بتلر رئيس فريق تدمير ماضي وحاضر ومستقبل العراق"

إنها "الملهاة الكبرى"!

وهي "ملهاة" تشمل العالم كله الذي يسير "لجهة التصميم والتعاون الفعلي"!

وهنا..

هنا تماماً.. تكمن خطورة المعادلة العالمية في صراع الحضارات.

من يخرج على طوق العولمة، إذاً، في طوق نجاته الذاتي، هو المنتصر!

... ...

سأستمر بالحديث عن بلدي (العراق) نموذجاً في الاستشهاد[46]

العراق - كما تمت الاشارة - "يقع الآن، وبشكل غير متوقع ومنتظر، في اطار "الفرصة الامبريالية" وفي حيز تلك "الثياب" (القانونية!!) التي لا تحكمها أي من الأصول والقوانين الدولية المتعارف عليها: تلك (القوانين الاستثنائية) لمرحلة إنتقالية هي ولادة وقرار وتنفيذ النظام الاستعماري العالمي الجديد (العولمة).."

وتقضي هذه الفرصة الامبريالية باستغلال أو تدمير - في حال عدم تحقق إمكان استغلالي - "الدول المحورية" - والعراق من أهمها إطلاقاً-

(وفي هذه الحالة (العراق)، فإن شوطاً كبيراً قد تم تحقيقه، وشوطاً آخر، ربما هو الأطول، ينتظر الإعلان عن تحقيقه، فقد تم تدمير البنية التحتية المادية، ويبقى في سلم الأولويات تدمير البنية التحتية الإنسانية)

- والحصار الذي تحدثنا عنه هو إمكان تطبيقي صارخ لهذا التدمير -

حيث يمكن الامتلاء بالاحساس الحضاري والتميز الحضاري والأعباء الايجابية لماضٍ عريق متنوع ولكنه ثابت في أرض بابل والرشيد والخلافة الطويلة، لا الطائرة، على أرض تنقل حضارة وتراث أجدادها لأبنائها مسؤوليةً وأمانة. وإذا كان هذا الجانب الداخلي (للمسألة) العراقية في الذهن الأمبريالي، وما يستتبع هذا من تفكيك بنية الدولة ذاتها حتى لو تم الحلف بأغلظ الأيمان وترديد ذات الكذبة مرات ومرات من "أهمية الحفاظ على وحدة الأرض العراقية وصيانة تراب العراق وعدم السعي إلى تقسيمه" لأن المعنى دائماً في قلب القائل (القاتل)، ولا أحد يعرف ماذا يقال، وماذا يريد بالقول، وكيف يتم تفسيره، ومتى؟ هذا داخلياً..

---

[46] ـ مستعيناً بالإنارة المبدعة في التحليل، التي قدمها الكاتب د. سليمان الصالحي. بعنوان: مع ذهاب ايكيوس وتسلم بتلر مهام فرقة التفتيش: العراق.. خطوط ومعادلات وفرص متقابلة. انظر: جريدة "السبيل" - العدد 191 السنة الرابعة - الثلاثاء 5 - 10 آب 1997. عمان.

خارجياً: فإن هناك وضعاً بل أوضاعاً، خارج العراق ولكنهـا محكومـة بتطـور ومسار خطة إنهائه أو إنهاء وضعه، فهناك في الأفق ترسم ملامـح اسـتراتيجية قويـة محكمة الربط والتداخل، يمكن أن يطلق عليهـا: (المعادلـة العراقيـة) مـن حيـث هـي (توازن) و(تساوي) أطرافه مرتبطـة ببعضهـا بقـوة. فـإذا كـان (الداخـل العراقـي) محكوماً وفي تطوره ودرجـة تسـخينه، بالوسـط (الخـارجي)، خصوصـاً ذاك المحيـط بالعراق، لاحتمال امتداد آثار وتداعيات ذلك (الداخل) إلى المحيط العراقـي "المحيـط بالعراق، بما يحمل من مضاعفات لا تستطيع أية قوة مـن هضمهـا والتكيـف معهـا، فإن (الخارج) سواء (المحيط بالعراق) أو (الأبعد) منـه، ليتـأثر ويؤثـر بوضـع العـراق وتطور أوضاعه كذلك.

فهناك العديد من "المسائل".. وهي (مسائل) و(اشكالات) بالفعل،

تنتظر الحل والقرار النهائي، في مستويات (ثنائية) وأخرى (دولية) و (إقليميـة) قبل حسم "مسألة العراق" أو البدء بحسمها.

فالعراق (ينتظر) غلق ملفات وملفات تمتد بعيداً عـن حـدوده، ومـا قـد يبـدو ليس من شأنه وشؤونه، فمن السودان (البعيد) عن العراق حـدوداً، وموريتانيـا، إلى صياغة وترتيب (علاقة ما) بإيران، طرفـه الخليـج الآخـر، وحسـماً بطيئـاً لخيـارات تركيا الحضارية والجغرافية – وهي هنا ليست فقـط كركـوك والموصـل بـل حـدود سوريا أيضاً– مروراً بوضع دول الخليج التطبيعي مع "اسـرائيل" بملـف أحـداث مـا قبـل (يـوم القيامـة): ملـف فلسـطين أو "اسـرائيل" بكـل تعقيداتـه واسـتحالاته ومستحيلاته، ومتعلقاته بدول يشكل العراق جوارها وعمقهـا السـتراتيجي ومداهـا وحاضنتها الحيوية، فقط في (غياب) العراق التقليدي، قـوةً وثـروةً وشـروط دولـة، يمكن للولايات المتحدة أن (تنجز) كل هذه الملفات وتنتهي منهـا في عمليـة (إعـادة تفكيك) و(تركيب) هذه المنطقة المستحيلة!

– في غمرة لهيب الحرب العراقية الإيرانية، يوم تبـددت الآمـال بوقـف سـريع لها، انطلق تحليل هادىء يوماً ما من أيام ذلك العقد الثمانيني الحزين، يقول ان هـذه الحرب ستتوقف يوم أن يستكمل بناء شبكة هائلة من القواعد العسكرية الأمريكيـة الحديثة والمتقدمة في طول الخليج وعرضه، وقدر ذلـك التحليـل عـام 1987 موعـداً لإنجاز تلك القواعد.

عام 1988 توقفت الحرب (الأقليمية)، لتبدأ الحرب (الدولية) أول ما تبدأ بتوجيه وبرمجة صواريخ كروز "توماهوك" بالكومبيوتر، لضرب (أهداف منتخبة) داخل العراق - حسب تلفزيون بي بي سي يوم 10 - 8 -1990.

في تلك الحرب المعروفة، ولو بعد توجيهها بثلاثة أعوام أو تزيد، قفز (سؤال أخير) إلى ذهن كل مخلص: هذا شأن العدو، فما هو شأن المستهدفين بهذا المكر الخبيث؟ وماذا هم فاعلون للخروج من هذه الحرب الطويلة؟ وما هو المخرج؟ وإذا كان العدو يريد تدمير بنية الإنسان العراقي التحتية، فلم لا تبنى وتعزز (هذه البنية) بسلاح الإيمان المجرب والوحيد والمستحيل اختراقه؟ هنري كيسنجر، عصارة الخبث والدهاء، يقول في مسلمة تاريخية وسياسية: "إذا ما وضع مصير دولة على بساط البحث فإن قناعات حكامها هي التي تؤمن طريق الخلاص".

....

■ وإذا كان مثال "المسألة العراقية" حاداً، فلأنني أطرحه كعراقي عربي، يتحمل مسؤولية مايرى ويقول:

فهل هي "مسألة عراقية" محض؟

أم انها "مسألة عالمية"، تتعلق - بالفعل - بصراع الحضارات، الذي بدأ باحتلال الأرض، وإقامة القواعد العسكرية، والهيمنة على الثروات،.. و..؟! فإذا كان الحصار وجهاً آخر لتلك الحرب المستديمة. فإن احتلال العقل والتطبيع وهجرة العقول هي الوجه الآخر لذات العملة، لأن ذلك بمجمله يستهدف هدم البنية التحتية للإنسان، من ثم افراغ المنطقة العربية من عوامل تقدمها ونهضتها، والابقاء عليها تابعة.

فالهجرة الخطيرة للعقول العربية، للخارج، احتلت صدارة الاهتمام داخل المراكز العربية والبحثية، في مصر، وعديد البلدان.. فلا أقل من 500 عالم ذرة عربي - مثلاً- حصلوا على الجنسية الأمريكية، وأن المكاسب التي حققتها أمريكا وأوربا من استثمار العقول العربية بلغ 40 مليار دولار خلال عشر سنوات فقط (1961 - 1972)..

فعوامل (الجذب) الخارجية، وسياسات (الطرد) الداخلية التي دفعت بصفوة العلماء العرب إلى الهجرة، فتحت أبواب المناقشات، إذ حذر خبراء الاقتصاد

وعلماء مراكز البحث العلمي من أن استمرار نزيف الطاقات والقدرات العلمية العربية يؤدي حتماً إلى نضوب الابتكار، وبالتالي حرمان الأمة العربية من موارد حقيقية يمكن أن تساعدها في التنمية.

وحذر (رئيس أكاديمية البحث العلمي في مصر/ الدكتور علي جيش) من أن ما يحدث للعقول العربية يسير على وفق مخطط مدروس ويجري تنفيذه بدقة وإتقان، دون الإتعاظ من تجارب الماضي وأخطاء السياسات الخانقة لحرية البحث والباحث[47]

إن (سياسات) الجامعات وإداراتها، ووزارات التعليم العالي وقوانينها، واهمالها المعلن والمخفي للكفاءات والعقول، وغياب حرية البحث والتعبير، والبحث الموضوعي، وضمانات العيش الكريم، والحصار، كانت بعض أسباب تلك الهجرة، إلى جانب أمور تقنية، كعدم حصول الباحث على حقوقه، والقصور في الإمكانات المختبرية والعلمية، وصعوبة الحصول على الأبحاث المتقدمة أو المعلومات التخصصية، إلى جانب (الاغراءات) التي توفرها دول الجذب (أوربا والولايات المتحدة الأمريكية بخاصة) لسحب تلك العقول إلى مناطق اشتغالها، وخططها..

في بلد كمصر – الأوسع قاعدة بحثية، والأكثر عدداً من حيث النمو السكاني، والتي كانت بلد المواجهة الأول مع الكيان الصهيوني، والأعرق والأوسع جامعات وعلماء وباحثين وفنيين، قياساً إلى بلدان الوطن العربي الأخرى، يصرف 0.25٪ فقط من الدخل القومي على البحوث، وفي مجمل الوطن العربي فإن "التمويل" المخصص للباحثين العرب لا يتعدى عشر ما يصرف في (اسرائيل) أو (أوربا) أو (أمريكا) في حين تصل النسبة في الدول المتقدمة إلى 3٪ من الدخل القومي، عدا (اليابان والصين) فإن النسبة أعلى.

يشير تقرير (لجنة الشؤون الخارجية الأمريكية). الذي تعود معطياته المسموح بتداولها إلى ربع قرن مضى، بأن الولايات المتحدة حققت مكاسب تصل إلى 1.8

---

[47] ـ انظر: خطّاب، فتحي: هجرة العقول العربية للخارج/جريدة "العرب اليوم" عمان /الأربعاء 1997/8/13 ص 41.

مليار دولار نتيجة هجرة العقول العربية لمدة عام واحد (1971- 1972) في حين خسرت الأمة العربية 10.7 مليار دولار.

وقدر التقرير ذاته بأن مكاسب (رأس المال البشري المحمول) إلى الدول الأوروبية المتقدمة تزيد على (40) مليار دولار للسنوات 1961 - 1972، وكما أشرنا يوجد في الولايات المتحدة وحدها لغاية ذلك التاريخ (500) عالم ذرة من (المهاجرين) العرب حصلوا على الجنسية الأمريكية.

كما تؤكد احصائيات (الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء في مصر) بأن نحو 822 عالماً مصرياً في (الفيزياء النووية) هاجروا إلى (دول الشمال) وأن (187) رجل أعمال مصرياً ثرياً تقدر أموالهم بالمليارات، يفيد منها الغرب الأمبريالي مباشرة. وأن مصر تفقد (5) آلاف عقل متميز، سنوياً، سواء من حاملي شهادات الماجستير والدكتوراه، أو الفنيين المهرة، الذين يتعرضون لنزيف (الجذب) الخارجي، بفعل (الاغراءات) المادية والبحثية.

ومعروف أن تلك العقول المهاجرة، يمنع عليها توظيف أبحاثها فيما يخدم العرب وقضاياهم، بل توظف مباشرة لخدمة (الأهداف) التي تحددها الدول المانحة للجنسية والإيواء، والمستثمرة هذه العقول وطاقاتها.

إن ذلك بالطبع يجعل الفجوة شاسعة بين العالم (الصناعي) - دول الشمال ـ وتدخل ضمنها (اسرائيل) - الدولة العبرية! ـ وبين الدول العربية..

وهناك الآن أكثر من مليوني عالم عربي في الخارج، لأن مادة (العلم) أصبحت (مادة استثمار) وأن أمريكا وفرنسا بدأتا نزيف العقول العربية واستدارجها منذ الستينات، وتصاعدت معدلات الهجرة عاماً بعد عام، بخاصة علماء الفيزياء والذرة والكيمياء والطب. (مصرياً)، و(عربياً) و ازدادت بشكل فاضح، عراقياً، بعد الحروب والكوارث والحصار الذي مر به العراق ولا زال، ومن جميع التخصصات،..

و(الغرب) المستقبل، المستفيد، والمستثمر لتلك العقول وفر لهم أجوراً عالية ومكافآت كبيرة، وميزهم عن باقي أفراد المجتمع - كعلماء - ووفر لهم المختبرات والمعامل البحثية والمواد والأجهزة والمعلومات وفرق العمل، والإمكانات والأجواء اللازمة لتطوير بحوثهم واختراعاتهم، كما يسر لهم الخدمات والاجراءات التي

تبعدهم عن كل روتين واختناقات مهما كانت درجتها. وهكذا لم يعد (العالم) الأول يستغني عن العقل العربي، وإن كان يقدمنا في إعلامه بمجرد بدو أو شيوخ نفط جهلة وفاسقين!..

بل المفارقة، أيضاً، أن هذا (العالم) الأول، المتقدم، ليسخر منا حتى في الكتابة والاستعارة. فقد أطلق لقب (البدوي): (نوماد) على المركبة ذات الأربع عجلات التي أتمت رحلة استغرقت أربعة أسابيع، قطعت خلالها (133) ميلاً من (صحراء: إرتاكاما) الوعرة في (تشيلي) استعداداً لرحلات قادمة تجوب فيها المنطقة القطبية على سطح الأرض، ثم القمر والمريخ!. "البدوي"، إذاً، يغزو المريخ! (بعد مركبات: مون بيفي، وسوجورنر)!

و "العربي" القادم من (مدن الملح) و(صحراء العرب) يقود استثمارات العقل والعلم والبورصات برصيده العقلي/ أو المالي/ أو ثروات بلاده، في الغرب المستثمر، والمحتكر في آن!

ويقول المتفائلون: لو سحب "الأثرياء" العرب، أرصدتهم وايداعاتهم، وجمدوا سنداتهم و.. ليوم واحد فقط، فسيسقط الغرب منهاراً، ويرفع (الراية البيضاء) إلى العرب مستسلماً بدون حرب ساخنة!..

لكن هل يفعل "الأثرياء" ذلك؟ وهل "يتسامح" الناب الذري، الغربي، إزاء هذه "الإهانة"؟.. أم ينفذ وعيده – فوراً – بحرق منابع البترول، لو رفع (المعنيون) أنملاً، لإحتجاج صامت!؟..

■ وثانية، نعود، إلى سؤال الأسئلة. في فصل الختام: ماذا هيأنا للغد؟ كيف نواجه المستقبل؟ وكي لا نكون متفائلين. أو متشائمين، وكي لا نبتعد كثيراً عن عنوان بحثنا: احتلال العقل، لا بد أن نقدم الوجه الآخر (للواقع).. أي بعض معطيات وملامح ما يجري (خارجنا) استعداداً للقرن الحادي والعشرين.. كي نتبين خطواتنا وفي أية هاوية سحيقة يحاولون رمينا ودفننا..

إن الكثير من المحاولات لدراسة (الأوضاع المستقبلية) بصورة (معمقة) خلصت إلى نتائج متناقضة. إما "مفرطة في تفاؤلها، أو في تشاؤمها" أو إنها "ناشدت الناس بالتجديد الروحي كما فعل توينبي"..

هكذا يعلق بول كنيدي، أحد أبرز علماء التاريخ، الباحثين في أفق الاستعداد للقرن الحادي والعشرين بعد كتابه الشهير "صعود وسقوط القوى العظمى"[48]

فبسبب (عدم معرفتنا) بالمستقبل، يغدو "مستحيلاً" القول يقيناً، ما إذا كانت "الاتجاهات الكونية العامة" ستؤدي إلى كوارث مروعة، أو أنه سيتم تجاوزها من خلال "التقدم" المذهل في قدرة الإنسان على "التكيف"!

وما هو "واضح" أنه فيما تذوي مرحلة "الحرب الباردة" فإننا لسنا اليوم أمام "نظام عالمي جديد" حسب، بل أمام "كوكب مضطرب ومتفسخ!" تستحق "مشكلاته" نظراً جديداً، واهتماماً جاداً. من قبل "السياسيين" و"الشعوب" في آن!

إن (قوى التغيير) تنطوي على (تسارع وتعقد هائلين ومروعين).. ولكن: هل لا تزال هناك إمكانية لدى (عقلانيين) بأن (يقودوا) مجتمعاتهم لهذه المهمة المعقدة المتمثلة في "الاستعداد للمستقبل" دون كوارث، كما يتساءل كينيدي؟! إن (التحديات التكنولوجية) ومسائل (الهجرة) و(الجنسية)، ومستقبل (الزراعة) و(الدمار البيئي)، ومضامين (التدويل)، وتأثير ذلك في السياسات وأولويات الانفاق، وفي القيم والثقافة، هي اليوم محط اهتمام مكثف من العالم من فرنسا إلى اليابان، ومن كانساس إلى القاهرة، ومن الصين إلى "تل أبيب" ربما، أو "القدس"!

(الرجل والمرأة العاديان يعرفان أن العالم الذي يعيشان فيه يمر بمخاض، ويشعران بالقلق إزاء ذلك. وفوق ذلك كله، فإن القلق حيال التغيرات القائمة حالياً، أو التغيرات الوشيكة هو الذي يسبب تحرر الناس على نطاق واسع من الأوهام المتصلة بالقيادات السياسية، سواء التي كانت في الدول الصناعية المتقدمة، (أمريكا، فرنسا، اليابان) أو في الأنظمة "الماركسية" القائمة، أو في تلك التي انهارت، أو في مناطق واسعة من أمريكا اللاتينية وأفريقيا أو في العملاقين الآسيويين: الصين والهند.. أو في العالم الإسلامي، بهذا الخصوص، حيث يلجأ الشباب الساخطون إلى الوصفات

---

[48] ـ بول، كنيدي/ الاستعداد للقرن الحادي والعشرين preparing for the twenty first century ترجمة: محمد عبد القادر وغازي مسعود/ الناشر: دار الشرق للنشر والتوزيع – عمان ـ الأردن ـ توزيع: المركز العربي للمطبوعات – بيروت/ لبنان/ ط1 /1993 يقع في 482 صفحة قطعاً كبيراً/ ص426.

الأصولية!.. ففي الدول الاستبدادية يجري قمع الكثير من مظاهر السخط هذه - إلاّ أن الالحاح السائد في (الديمقراطيات) القديمة والحديثة على حد سواء - على ضرورة (الإستجابة السياسية) للتحديات الجديدة، هو، الحاح هائل..)[49]

ويمكن أن تكون هذه (الاستجابات) رجعية، في أغلب الأحيان: "فالسياسة الحمائية. والسياسات المضادة للهجرة، وخطر التكنولوجيات الحديثة، والبحث عن (أعداء) جدد عوضاً عن خصوم مرحلة الحرب الباردة" هي "ردود فعل" شائعة في "الصدمات والانسحاقات" التي تصيب الحياة الاجتماعية للإنسانية.

إن أي مجتمع (يرغب) في أن يرتقي بدرجة استعداده لمواجهة القرن الحادي والعشرين، سوف (يدفع الثمن) لقاء ذلك (الإنتقال)!.. إذ انه سيحتاج إلى (إعادة شحذ) مهاراته القومية وبناه التحتية، و(تحدي) القوى التقليدية، و(تغيير) الكثير من العادات القديمة، وإجراء العديد من (التعديلات) في هياكله الحكومية!..

بيد أن ذلك يستلزم - بالضرورة-: "رؤية" بعيدة المدى، في زمن نادراً ما يستطيع فيه "معظم السياسيين "في الدول الغنية والفقيرة في آن، أن "يعالجوا" حتى المشكلات ذات المدى "القصير!".. كالتناقض الذي تقع فيه أوربا - مثلاً - بين مفهوم وواقع "عالم بلا حدود" مع هدف المجموعة الأوربية بتعميق (وحدتها) الاقتصادية والسياسية! كان يوجد توتر دائماً بين أولئك الذين يفضلون أوربا قوية، وأولئك الذين يريدون جهازاً أقل مركزية!

وتعني نظرية "عالم بلا حدود" - ببساطة - بأنه "يجب" على مستهلك أوربي "يتمتع بالسيادة!" أن يكون "حراً" بشراء اللحم الأمريكي وليس اللحم الفرنسي أو بشراء سيارة مصنوعة في اليابان وليس سيارة إيطالية - إذا كان السعر مناسباً!.. على العكس من ذلك، يتمثل هدف (الكاب) في أن يشتري المستهلك الأوربي لحماً أوربياً (إن لم يكن فرنسياً حسب) بينما ينوي العديد من السياسيين ورجال الأعمال، بكل وضوح أن تردع تعرفات أوربا الصناعية "وكوتاتها" المستهلك عن شراء سيارة يابانية وليس سيارة (وطنية) أوربية (إن لم تكن إيطالية، حسب) والنتيجة الأكبر، هنا، هي أنه

---

[49] ـ نفسه، ص 420.

بعيداً عن إزالة (الحدود القومية) فإن هذه الحدود قد تم طيها في كيان أكبر ـ المجموعة الأوربية منطقة التجارة الحرة الأمريكية، منطقة يسيطر عليها الين – مع سيطرة ثلاثة تكتلات تجارية عالمية على الاقتصاد العالمي، وسوف يترك هذا الأمر البلدان خارج أوربا (تتوسل) الوصول إلى (الأسواق) التي ليس من المحتمل الوصول إليها إذا كانت مجموعات الضغط الأوربية التي تؤمن بالحماية نافذة القوة! ومن المفترض أيضاً، أنها ستقلص آفاق العمالة في تلك البلدان، وأن تزيد لذلك، الضغوطات للهجرة إلى أوربا بحثاً عن العمل!!، ألايوجد، إذاً، تناقض ضمني بين ما تريد (المجموعة الأوربية) أن تصبحه، وبين الاتجاه الذي يسير إليه الاقتصاد العالمي في (العولمة)؟

إن هذا الديالكتيك بين (الأهداف القومية) والتغيرات (عبر القومية) موجود في كل البلدان .. والتناقض يكون أكبر لأن (الأمم الأوربية) تتحرك نحو الاندماج في "دولة ما فوق قومية)[50]

هذا الحال، هو الذي تعاني منه أوربا (المجموعة). بله أوربا (الدول) فرادى!..

فكيف الحال، في واقعنا العربي، الذي يعجز أن يرى أبعد من أنفه؟!

وهل يستطيع "ساسته" أن يتفقوا على "تكامل اقتصادي عربي" بله "دولة ما فوق وحدوية!" أو "اتحادية" في مواجهة "العولمة" بل حتى في مواجهة "الغطرسة" الصهيونية، ما فوق الدينية!!... وهل الركض وراء التطبيع من زاوية التداعي العام والضعف، هو الذي يحقق "سلام" المنطقة؟! في الحاضر، فكيف في "الغد"؟

■ من النادر الاعتراف بالأخطاء التاريخية، إلاّ بعد فوات الأوان.. كما من النادر التعلم من التجربة إلاّ بحنكة عالية..

لقد أشرنا فيما سبق إلى موقع الصين في صراع الحضارات. أو ما أعدته لنفسها في غد العالم، حيث اختزن الصينيون ما يؤهلهم لمواجهة العولمة، بعد أن كسبوا المفاوضات مع الانكليز في استعادتهم لهونغ كونغ عام 1997 وبالطريقة التي ستجعل (أهالي) تايوان يرتضونها! بمن فيهم (قممهم الشاهقة ثراءً) تماماً كما كان الحال مع عائلات هونغ كونغ الشهيرة، شاهقة الثروة كالمليارديرين (لي شوكي

---

[50] ـ نفسه ص: 353 – 354.

صاحب أكبر مؤسسة عقارية في العالم، والذي تقدر ثروته بـ 14.7 مليار دولار، ومؤسسات الأخوان كوك 12.3 مليار دولار، والسيدة (نينا وانغ) ثاني أغنى امرأة في العالم بعد الفرنسية ليليان بيتانكور، وهي زوجة المليادير (شينا شيم) الذي خطف واختفى في العام 1990 مع سبعة مليارات دولار!!..)

إن ثروة (شوكي) تحتل المرتبة الخامسة من حيث التسلسل لحجم الثروات في العالم بعد العوائل الأمريكية الأربع الأكثر غنىً: بيل جيتس (36.4 مليار دولار) و(التون: 27.6 مليار دولار)، (وارن ينجبث 23.2 مليون دولار) و(باول جارندر 15.3 مليار دولار).

إن الحكومة الصينية تعاملت مع هذه القمم الشاهقة خارج هاجس المصادرة، وبيقين "دولة واحدة بنظامين" اطروحة: (دنغ هيساو بنغ) الاصلاحية في الطريق إلى الوحدة، وبذات النفس الذي فاوضت فيه لاسترجاع هونغ كونغ 1997، و (ماكاو) في العام 1999، لا ينام لها جفن قبل استرجاع (تايوان) ناهيك عن مطالبتها بأراضٍ في أقصى الجنوب مثل جزر "باراسيل" وجزيرة "سبارتلي". ومثلما لا يلجأ هذا (التنين الأصفر) لاستخدام القوة لاسترجاع جزره المقطوعة عن مركزها الأم وهو الذي يملك أضعاف ما تحتاجه معركة كهذه، يلجأ إلى (لغة الحوار) و(المفاوضات) بعد أن يكون قد فهم روح العصر، والتوازنات الدولية، ليلعب دور المفاوض المحنك الصعب الذي يعرف كيف يتغلب على أكثر عتاة الدبلوماسية دهاءً ومكراً[51]

فكم نحتاج من (دبلوماسية) الحنكة، وقوة رأس المال، لنسترجع "ما" اقتطع منا، بدءاً من "لواء الاسكندرون"، فالجولان، فجنوب لبنان، فالجزر العربية في الخليج، فالمدن المغربية: سبته ومليلة، حتى أرض فلسطين، بل وما "احتل" فعلياً من "منابع النفط" حتى الأرض التي صارت قواعد أمريكية، و"الماء" الذي تحول فيه حاملات الطائرات والبوارج الإمبريالية..، و"القرار" الذي قيده الاستبداد العالمي، و القوة أحادية الجانب...

---

[51] انظر: البعاج، د.هشام: بعد عودة هونغ كونغ إلى الوطن الأم: لنتعلم نحن العرب.. كيف تحقق الصين وحدتها / جريدة "العرب اليوم" - عمان ـ الأربعاء 1997/8/13 - ص: 8.

وكم نحتاج، بعيداً عن أخطاء الماضي وكوارثه،لنستدير بإمكاناتنا وثرواتنا ومواردنا، نحو (تضامن عربي) حقيقي، بعيداً، عن ظواهر الارتجال والسطحية وردود الفعل والانفعال في معالجة المشاريع الاتحادية في الساحة العربية على امتداد هذا القرن" - كما اعترف بها الأستاذ شبلي العيسمي أخيرا[52] لأن "أي اتحاد إذا رافقه قسر وقهر ونقر، يتخلى الشعب عنه، ويتعرض للانهيار، وإذا رافقه التحرر والتطور والازدهار تمسك به الشعب وكتب له الاستمرار.." (يؤكد العيسمي أيضاً).

إن اصلاح (وضعنا العربي) يرتبط باصلاح إمكاناتنا الذاتية، ونمط تفكيرنا والاستثمار الأمثل لمواردنا المادية والبشرية، بحرية، وحنكة، ونفس طويل، وبآلية دينامية.. وهذا يتطلب وعياً لمعطيات العالم ومايجري فيه.

■ كلما زادت (الضغوط) في إطار المجتمعات الإنسانية، كالنمو السكاني المتسارع.وتناقص الموارد، والبطالة، والهجرة إلى مدن تعج بالأكواخ، ونقص التعليم، والحصار، كلما كان هناك احتمال لنشوب "انفجارات اجتماعية وسياسية" وبخاصة إذا ما حصل "تفاعل" فيما بين الأسباب الحادة للصراعات والنزاعات التقليدية حول الحدود، والمياه، وما إلى ذلك... كالنزاعات الاقليمية و الإثنية، التي هي في تصاعد مستمر، ففي مناطق أفريقية عديدة هناك "انهيار لنظام الدولة المؤسس على النمط الأوربي، وهناك اختراقات للحدود..." وهناك تعميق للحروب الأهلية كما في أفغانستان وأذربيجان والشيشان ورومانيا وقبرص وباكستان وكمبوديا، و لم تنج كوريا، ولا سواها من ذلك.. (كما تدفع قضية المركز مقابل المقاطعات، أو الوحدة مقابل التنوع) الدول المراقبة لاتخاذ مواقف سياسية متباينة، فألمانيا - على سبيل المثال - التي تتمتع بانسجام ثقافي، تميل للتعاطف مع المطالب الاستقلالية لسكان سلوفينيا وكرواتيا في يوغسلافيا، أما الحكومات التي تعاني من مشكلات المقاطعات والمشكلات الإثنية كإسبانيا، فإنها تشعر بالغضب إزاء تشجيع (الحركات الانفصالية) في أي مكان، وهذا أمر مفهوم، وتطرح القضية الأكبر الممثلة في (قانونية) و (وحدة) الدولة (القومية) نفسها

---

[52] ـ جريدة العرب اليوم/ حول التضامن العربي والطموح العربي: بعض الملاحظات والمبادئ لبناء الوحدة/ 16 - 7 - 1997.

في جميع المناقشات الحادة حول (التدخل الدولي) ومثال ذلك مسألة تقديم العون (للأكراد).

إن "اختلاف اللغة والدين" - يمكن لهما أن تفضيا إلى توليد " كراهية متبادلة وذرائع للحرب"! وربما على عكس ما تأمله "كانط" بأن "تقدم الحضارة " - مع مرور الزمن - قد يؤدي إلى "اتفاق سلمي بين الجميع في نهاية المطاف". فإن الأدلة القائمة حالياً تشير إلى طريق مغلق.. وإذا كنا نريد بلوغ تلك الغاية فأمامنا طريق طويلة، وجهد خارق، فإن تقدم "الحضارة" لا يسير بنفس الوتائر التي تسير فيها تلك "الاتجاهات العامة" التي تحو ل كوكبنا وتتحدى ترتيباتنا السياسية (التقليدية!)

وعلى العكس، من ذلك، ها هي - مثلاً - (القوى الأصولية) تستجمع قواها للرد رفضاً لعملية (التدويل) في جانب من الجوانب، كما شرعت (الحركات القومية السياسية) المعادية للأجانب بترسيخ وجودها في داخل (الدول الديمقراطية) وهو ما من شأنه أن يعرقل الفرص الطويلة الأجل لهذه "الديمقراطية" (للاستعداد للمستقبل) - حسب: كنيدي-..

إن هذه "التحديات" تجعل الأمور أشد تعقيداً - مما مضى - بالنسبة للحكومات في السيطرة على "مسار الأحداث" ورغم ذلك، لا زالت "الدول القومية" تلعب دور "المؤسسة الرئيسية، التي ستحاول الشعوب أن تستجيب للتغير من خلالها! وفي كل الأحوال، تبقى "الطريقة" التي من خلالها تهيء "القيادة السياسية" شعبها، لكي يستعد لتحديات المستقبل، ويدخل نادي القرن الحادي والعشرين، حراً، هي المسألة الأخطر، والتي تنطوي على أهمية حيوية قصوى .. كما حدث للصين بقيادة (دنغ) واصلاحاته، كما سنرى..

....

■ لقد وضعت اليابان خطتها لما بعد العام (2000)، ومع وصف المعلقين بأنها "أفضل" البلدان استعداداً لمواجهة تغيرات الغد التكنولوجية العالمية، لكنها "الدولة الأولى" التي تلاقي أكثر من غيرها، وأشد، إنتقادات على "نقاط" ضعفها أكثر من قدرتها وتطورها التقني.

وفي أية مناقشة حول "الكيفية" التي يمكن لليابان أو الولايات المتحدة أو البلدان الأوربية أن تستعد بها، كأفضل ما يكون الاستعداد، للغد، يعتبر "الحجم السكاني" - مع أنه مهم جداً - مجرد واحد من عدة عوامل يجب أخذها بالحسبان، ومع ذلك، في حالة (الهند) أو (الصين) يطغى العامل الديمغرافي على أي عامل آخر بما يحمله من نتائج حساسة ليس لهذين البلدين، حسب، ولكل الأسرة الدولية: فالصين والهند، هما أكثر بلدين سكاناً في العالم إذ يشكل سكانهما (1.135 بليون/ و853 مليون/ بالتتالي، أو ما نسبته: 37٪ من مجمل عدد سكان العالم ، وبالطبع، ستؤثر نشاطات هذين (الشعبين) هائلي العدد، على الطلب العالمي للغذاء. وعلى استهلاك الطاقة، وعلى البيئة، مثلاً!..

الصين/ والهند.. بلدان مهمان أيضاً، في الشؤون الخارجية والعسكرية، وما يمكن أن يفعلاه في المستقبل يمكن أن يؤثر على (الأمن الأقليمي) في شرق آسيا وجنوبها وعلى مدى انتشار الأسلحة النووية ونزع التسلح في العالم. وصحيح أن معدل الدخل الفردي في الصين بلغ حتى العام 1987 (294 دولاراً سنوياً) أي سدس أو سبع الدخل الياباني، لكن إذا ما استطاعت الصين (بعد سياسة دولة واحدة بنظامين وعودة هونغ كونغ لها، وعودة ماكاو في 1999 وتايوان لاحقاً) من تحقيق المستوى الحالي للدخل الفردي في (كوريا الجنوبية) الذي يصل إلى (5000) دولار سنوياً، أو يزيد..، فإن الصين ستكون قد امتلكت أكبر اقتصاد في العالم، وباتت هي - دون سواها - "الخطر الأصغر" الذي يزحف نحو العالم...

لأن هذه الزيادة الهائلة في مستويات المعيشة - المحتملة، نظرياً، وتطبيقياً، خارج الخيال والتخيل، ستحمل معها (قوة شرائية) - على مستوى المظهر - ولكن أيضاً ستحمل معها (مصادر للبحث وللتطوير) أكثر: للعلم والتكنولوجيا، للبنية التحتية، وللتعليم، وبالمثل: للقوة العسكرية!

وهكذا يمكن (تخيل) ما سيكون عليه الحال في (صراع الحضارات)، حين تواجه (الصين): نظام العولمة الحالي، المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية!! ومن ثم تبدأ زحفها باتجاه "إزاحة" أمريكا عن ساحات هيمنتها "الأحادية" شيئاً، شيئاً، فتدفع بها إلى انكفاء داخلي لحل أزماتها التي ستتفاقم على صعد عديدة، داخل بنية (المجتمع) الرأسمالي، الذي ربما تغزوه "الرساميل" الصينية، وسواها، في الاستثمارات

المتنوعة!! فمـن يعلـم، ربمـا يـتراجع الأربعـة الكبـار، وتتقـدم تلـك السـيدة (وانـغ) لتكون، والأربعة التي خلفها، أوائل المليارديرات، بل أعالي القمم الشـاهقة في حقـل المال والاستثمار، تعززهم ثقافة شعب عريق، وحضارة، ومـوارد بشـرية وثـروات، وتطور تقني في الجانب الصناعي، والعسكري، ونبوغ فطن وحكيم في الدبلوماسـية والتوغل إلى الغرب عبر بوابة هونغ كونغ.

ولذا يشتد الصراع الخفي والمعلن، الآن، وفي العقـود القادمـة، ويـزداد صـراع الثقافات، واحتلال العقل، لصالح القوة التي ستضع ثقلها كاملاً في تحديات الغد...

إن نظام الاصلاح الذي اشاعه (دينغ هسياو بنـغ)، حفـز الاقتصـاد ومضاعفـة الدخل الفردي بأكثر مـن ضعفـين خـلال عقـد واحـد مـن الزمـن فقـط. وتهـدف السياسة الحكومية للصين إلى زيادة منتوج القمح السنوي مـن 400 مليـون طـن إلى 500 مليون طن مع نهاية القرن وذلك لتجنب الاعتماد على المواد الغذائية الأجنبية!

ومع أن أكبر التحولات حصلت في الزراعة فقد حصل تقدم أيضاً في الصناعـة والتجارة وإنتاج البضائع الاستهلاكية، والتجـارة الخارجيـة الخ، وشـجعت مصـانع الدولة على الاسـتجابة للحقـائق التجاريـة المتعلقـة بالنوعيـة والأسـعار والطلـب في السوق، وسمح للمؤسسات صغيرة الحجم المملوكة من قبل القطاع الخاص بـالعمل، كما سمح للمؤسسات المختلطة مع مؤسسات أجنبيـة، وأقيمـت منـاطق حـرة علـى طول الساحل الصيني، وأعلنت سياسـة جديـدة لتحفـيز الصـادرات وبعـد تجاهلهـا لازدهار شرق آسيا لعدة عقود مـن الزمـن تحـررت الصـين مـن نظرتهـا الماركسـية الدوغماتية، وبدا أنها تركب عربة السوق الحرة، ولقد قال (دنغ) لشـعبه مـرة: "أن تصبح غنياً فذلك هو المجد!"

وبذلك قفزت الصادرات الصناعية التي كانت تقدر بمجرد 9 بليـون دولار في العام 1980 إلى 37 بليون دولار في العام 1989 وهذا الرقم يشكل أكثر من ضعـف صادرات الهند!

ومنذ العام 1978 ارتفعت التجارة الخارجية الصينية بمعدل 13.7٪ وأصبحـت تساوي ثلث الدخل القومي، وتعد الصين حتى التسعينات الدولة الرابعة عشرة بـين

الأمم التجارية. لكنها تعزز تقدمها، بخاصة بعد عودة هونـغ كونـغ، لتحتـل مكانـة متقدمة بين دول العالم الكبرى.

لقـد تجـاوزت الصين حالـة الصـراع بـين المحـافظين والليـبراليين الصينيـين في السنوات التي انتفض فيها (دنغ) بالاصلاحات فنجح تيـاره الـذي دفـع إلى تشـجيع "اللبرلة" الاقتصادية دون تقديم (ليبرالية سياسية)!

إذ لا يوجد في الصين، الآن، من يؤمن (بالنظـام العـالمي الجديـد). وبـدلاً مـن ذلك فإن الصين – والهند – تتوقعان أن يكون "عالم المسـتقبل.. مثـل عـالم المـاضي إلى حد كبير، حيث يكون لأولئك الذين يملكون القوة الحقيقية اليد الطولى"

وعلى مدى الماضي (تشاجرت) الصين، بل وحاربت جاراتها (نزاع حـدودي مـع فيتنـام والهنـد والاتحــاد السـوفيتي السـابق) ـــ بغـض النظـر عـن "الفكـر" و"الايديولوجيا" التي كانت تؤمن بها البلدان الثلاثة ـ عـدا الهنـد الديمقراطيـة ذات التعددية ـ ..، إن ما قادها إلى تلـك (الحـروب) هـو مصلحتهـا الوطنيـة فـوق كـل اعتبار، كمـا أن الصـين لا تحـب "هيمنـة" الولايـات المتحـدة. ولا تأثيرهـا الثقـافي، وظلت تحصن نفسها ـ بالاصلاحات ـ ضد أي اختراق أمريكي.

إن الصين تمتلك، أيضـاً، قـوة عسـكرية بريـة هائلـة (2.3 مليـون جنـدي نظـامي) بالإضافة إلى عدد كبير من الطائرات، وقواعد إطلاق صواريخ بلاستيه عابرة للقـارات، وتستمر بإجراء تجـارب نوويـة وتجـارب علـى إطـلاق الأسـلحة النوويـة، وبـالطبع مـن الصعب معرفة النسبة التي خصصتها الصين من مصادرها، للانتاج العسكري، لكنها مـا كان بإمكانها أن تصبح ثالث قوة نووية في العالم خلال عقـد ونصـف مـن الزمـن دون تركيز مكثف لمواهبها العلمية والتكنولوجية إذ تم تفجير أول قنبلة نووية صينيـة في العـام 1964، وتفوقت على كل من فرنسا وبريطانيا كقوتين نوويتين)[53]

وهكذا تسعى الصين إلى تعزيز رفاهها بواسطة النظام الاقتصادي، والدفـاع عـن مصالحها في ظـل نظـام فوضـوي دولي!.. إلى جـانب غنـى الصـين بمواردهـا البشـرية وبثقافتها وعمقها الحضاري وتماسكها الداخلي، لذا دفعت بالتخلف إلى وراء، بعد أن

---

[53] ـ كنيدي: المصدر السابق ص:231.

حققت استقالة الخوف، وخرجت بالأفكار والتصورات إلى إصلاحات جذرية على أرض الواقع، فتجاوزت (دوغما) النظرية، و(دوغما) النظام الاقتصادي الأوحد!

ومع أن الاقتصادات الشرق آسيوية، ملفتة للنظر، وقد نمت - بالمتوسط بمعدل سنوي مثير للاعجاب وصل إلى حدود 7.4٪، فإن هذه الدول التجارية في منطقة المحيط الهادىء وشرق آسيا، فيما عدا البلدان التي لا تزال خاضعة للنظام الشيوعي، كان نصيبها من الناتج القومي الاجمالي العالمي، في العام 1962 حوالي 9٪ مقابل أمريكا الشمالية 30٪ وأوربا الغربية 31٪، قفزت بعد عشرين سنة إلى أكثر من 15٪، بينما انخفض نصيب أمريكا الشمالية إلى 28٪ وأوربا إلى 27٪، ومن المحتمل أن يصل نصيب منطقة (الهادىء الغربي) من ذلك الناتج عام 2000 إلى حوالي ربع الناتج القومي الإجمالي العالمي، مع إمكانية أن يقفز نصيب كل منطقة الهادىء من 43٪ إلى نصف الناتج القومي الإجمالي العالمي، وكي نكون في صورة هذه المنطقة، ولنتخذ منها عبرة ومقاربة نظر إلى (منطقتنا العربية) نتعرف على التقسيمات التالية:

أ - اليابان: تعتبر، الآن، أكبر مركز مالي في العالم. وأصبحت باستمرار أبدع أمة في اكتشاف التكنولوجيا المتطورة غير العسكرية.

ب - "نمور" أو "تنينات" شرق آسيا الأربعة، أو ما يسمى بالاقتصاديات المصنعة حديثاً: سنغافورة، هونغ كونغ، تايوان، وكوريا الجنوبية..، والبلدان الأخيران يمتلكان سكاناً أكثر ومساحة أكبر من الدولتين الأخريين، لكنها جميعاً تمتعت بنمو حافزه الاقتصادي في العقود الأخيرة.

ج - الدول الأكبر في جنوب شرق آسيا مثل: تايلاند وماليزيا وأندونيسيا، التي أصبحت بفعل الحوافز التي تقدمها الاستثمارات الأجنبية، وبخاصة منها اليابانية، منخرطة في عمليات التصنيع والتجميع والتصدير.

د - (المجتمعات الشيوعية) الفقيرة والمعوقة: فيتنام، كمبوديا، كوريا الشمالية، بورما..

إذاً.. بسبب هذا المستوى من التطور المذهل يطلق الاقتصاديون في شرق آسيا تعبيراً عليه فيقولون إنه تطور "الإوزات الطائرة" الذي يقوده الطائر الياباني، وتتبعه البلدان المصنعة حديثاً في شرق آسيا، فدول جنوب شرق آسيا الكبيرة، وهكذا..

وكانت الدول المصنعة حديثاً في شرق آسيا هي التي أعطت المثال الأوضح عن التحول الناضج والناجح. وعلى الرغم من الاختلافات البنيوية، تتميز كل واحدة من هذه المجتمعات بصفات أساسية محدودة، إذا ماتم النظر إليها معاً، وأول هذه الصفات وأكثرها أهمية، هي: "الإهتمام بالتعليم" هذا الإهتمام ينبع من التقاليد الكونفوشية بالامتحانات التنافسية واحترام التعليم، معززاً بدور الأم اليومي الذي يكمل ما يتم تعليمه في المدرسة!

إن نمط التعليم هذا يخلق انسجاماً اجتماعياً وقوة عمل مدربة جيداً، ولايستثني تماثل النظام روحاً تنافسية قوية جداً، ففي تايوان (حيث حصل ثلاثة عشر عضواً من أصل أربعة عشر عضواً من أعضاء مجلس الوزراء في العام 1989 على شهادة الدكتوراه من الخارج) يتم اختيار الثلث المتفوق، فقط، من بين ال 110.000 طالب الذين يمرون في امتحان دخول الجامعات الوطنية، وذلك للتأكيد على أهمية التعليم الجامعي. وربما كان أفضل ما يوضح هذا التأكيد على التعلم الحقيقة القائلة بأن لدى كوريا (عدد سكانها 43 مليون نسمة) 1.4 مليون طالب يدرسون في مؤسسات التعليم العالي، وذلك مقارنة بـ 145.000 في إيران (سكانها: 54 مليون نسمة) و 15.000 في أثيوبيا (سكانها: 46 مليوناً) و159.000 في فيتنام (سكانها: 64 مليون نسمة) أو من الحقيقة الأخرى التي تقول بأنه مع العام 1980 كان يتخرج من الطلبة المهندسين من الجامعات الكورية العدد الذي يساوي عدد خريجي الجامعات في المملكة المتحدة وألمانيا الغربية والسويد معاً.

وبينما ارتفع معدل الازدهار، تم استثمار معظم ثمار النجاح الاقتصادي، أما الاصلاحات الديمقراطية فهي (المكافأة) على صبر الشعب، إذ ان السياسات المحلية لم تكن على غرار الغرب، لكنها لم تؤذ التوسع التجاري.

ولا تظهر فوائد النجاح الاقتصادي، فقط، في ارتفاع مستوى المعيشة المستمر في شرق آسيا، ولكن أيضاً في صحة الأطفال، إذ أصبحوا من أكثر أطفال العالم صحة، فالطفل التايواني الذي ولد عام 1988 يمكن أن يعيش 74 عاماً، وهذا رقم أقل بعام واحد منه في الولايات المتحدة أو ألمانيا، وأكثر بخمسة عشر عاماً منه من طفلَ تايواني ولد في العام 1952، وطفل كوري ولد في العام 1988 يتوقع أن يظل

75 عاماً فوق الأرض بدلاً عن 58 عاماً في العام 1965. وفي العام 1988 ضم غـذاء التايواني 50٪ أكثر من الكلورات في كل يوم، مما كانت عليه الحال قبل 35 سنة.

ويمتلك التـايوانيون مـن التلفزيونـات والهواتـف والسـيارات 200 ضعـف مـا كـانوا يمتلكونـه عـام 1965 ، والحـال في كوريـا، في هـذه المجـالات، أكـبر بكثـير! بالإضافة إلى ذلك تتمتع الاقتصاديات المصنعة حديثاً في شرق آسيا بمعدلات تعليـم عالية تؤكد مرة أخرى، إنها معـاً أقـرب إلى أهـم العـالم "الأول" منهـا إلى البلـدان النامية الفقيرة...)[54]

والسؤال: هل سيظل هذا التقدم قائماً في القرن الحادي والعشرين؟ والجواب، تقدمه المعطيات والجداول والبيانـات الاحصائيـة الـتي توفـرت عليهـا فـرق العمـل البحثية المساندة لبـول كنيـدي: نعـم..: فبعيـداً عـن (حـرب) في شـرق آسـيا، أو "كساد" عالمي، تفيد تلك المؤشرات بأن "النمور" الأربعة قائمة على بنى أفضل ما تكون لتنمو بشكل أفضل في الصحة والثروة.

وهي "نمور" مساندة - بطبيعة الجذور والجوار والمصـالح، والقرابـات، - للتنين الصيني، دائماً!

وهي، تسعى، مع الصين، واليابان.. لحماية كياناتها ازاء خطـر "العولمـة" الأمريكي..

....

■ الأعمـال الفنيـة العظيمـة عمـدت إلى تجســيد "الضــرورة" أو "العزيمـة" القومية، في أوربا.. وهـو مـا حـدا بأوليفيـه - كمـا يشـير كنيـدي - لأن يقـدم "تفسيراً وطنياً" لـ "هنري الخامس" أو "السيمفونية الثامنة" لشوستاكوفيتش.

ومنذ الأربعينات، بل منـذ مطلـع القـرن العشـرين، انتعـش الحـس القومـي في الوطن العربي، ونما في الثلاثينات، حتى بدأت فكرة الوحدة القومية تتجلـى في الأربعينات، تراود الأحزاب والسياسيين معاً...

---

[54] السابق ص: 256 - 257

في أوربا، وفي أعقاب عام 1945، هذه الاتجاهات العامة قد انحسرت إلى حد في الميادين الاقتصادية، لكنها حافظت على زخمها في الحياة السياسية، فقد سعت الهيئات المالية والتجارية كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والاتفاقية العامة للتعرفات الكمركية والتجارية، إلى الحيلولة دون تكرار الاضرار التي تم تطبيقها فيما بين الحربين، وقد ترتب على ذلك انتعاش التدفقات التجارية والاستثمارية، إلاّ أن التوترات المتصاعدة التي رافقت الحرب الباردة قد أثرت سلباً إلى حد بعيد في مناخ العلاقات الدولية، وأشارت إلى الأهمية المستمرة للأمن القومي.

أما (الأمم المتحدة) التي جيء بها لتكون بديلاً "محسناً" عن (عصبة الأمم المتحدة) فقد عانت جراء ذلك الكثير، حيث احتدم الصراع بين القوى العظمى في مجال مشاريع القرارات، واستخدام حق النقض (الفيتو) في وجهها، وأصبحت (مجالس الأمن القومي) وما شابهها من أسماء، هي (الهيئات) المعنية بدراسة أية تهديدات خارجية.

وأينما ذهب (الرؤساء الأمريكيون) حتى ولو كان ذلك في اجازة خاصة، كان مستشاروهم لشؤون الأمن القومي إلى جانبهم باستمرار، فاستخدام (الأمن القومي) لتبرير كل شيء تقريباً، من بناء شبكات الطرق إلى تقديم المنح الجامعية في العلوم والتكنولوجيا، كما استخدم بصورة سلبية بالمقابل، من احتجاز (معلومات) معينة إلى حظر هجرة الجنسيات (المحددة)، ومنع التجارة والسفر إلى دول معينة!.. وتجميد نقل التكنولوجيا إلى دول أخرى ثم.. إلى الحرب والحصار تالياً..

وحين كانت توترات الحرب الباردة على أشدها، وفيما كان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية يخصصان مئات البلايين من الدولارات – سنوياً – للانفاق العسكري، كان من بين المراقبين من يتساءل عما إذا أصبحت كل منهما "دولة أمن قومي"؟!.. فيما عبر آخرون عن قلقهم إزاء تحويل هذه الكميات الهائلة من رأس المال، وهذا العدد الضخم من مراكز الأبحاث والتطوير، والعلماء والمهندسين والفنيين إلى عالم (سباق التسلح) وأبدوا مخاوفهم من تأثيرات ذلك كله على القدرة التنافسية القومية في المدى البعيد.

ولا تزال (طرائق التفكير) هذه تحظى بدور قوي في يومنا هـذا، فخلال توترات الحرب الباردة كـان مـن السهل بـالطبع أن يجادل المرء في أن التهديدات الـتي توجه لشعب من الشعوب، هي في طبيعتها، تهديدات عسكرية أساساً، مما حافظ على استمرار "الدولة القومية" كقوة مركزية في الشؤون المالية!.. وحتى بعد زوال صراع الحرب الباردة، لا يزال خبراء (الأمن القومي) ومسؤولو (البنتاغون) قادرين على إيجاد الكثير من التهديدات (المحتملة) (للاستقرار الدولي!)، وتوفير (الأسباب الداعية) إلى الاحتفاظ بقوى دفاعية هائلة. ويورد هؤلاء المراقبون أمثلةً على ذلك بوجود عشرات الآلاف من الرؤوس النووية في الدول المنبثقة عن الاتحاد السوفيتي، وعدم استقرار ملكية هذه الرؤوس، بعد، وإمكانية انهيار جديد في (العلاقات العربية – الاسرائيلية)، والصراعات الاثنية في دول البلقان وغيرها، وما يدعوه المراقبون بالأنظمة (المتقلبة) في (ليبيا والعراق وكوريا الشمالية) وظهور (قوى عظمى اقليمية) كالصين والهند، وتزايد وصول (الأسلحة المعقدة) إلى (مناطق التوتر) في العالم!

ويقول الخبراء: إن ذلك ينطوي على ضرورة (توفر) القوة العسكرية الـتي تخضع لسيطرة (الدولة القومية) وأدواتها: (البنتاغون/ مجلس الأمن القومي/ رئاسة هيئة الأركان المشتركة) بحيث تعمل جنباً إلى جنب مع (الهياكل الأمنية الدولية): (الناتو، معاهدة الدفاع الأمريكية – اليابانية.. وغير ذلك)[55]

على أن (الافتراضات) التقليدية تخضع اليوم لضغط متزايد، ومرد ذلك ببساطة إلى الطريقة التي يتغير العالم من خلالها، إذ يرى العديد من الكتاب والمراقبين الآن، ان "المنافسات العسكرية وسباقات التسلح قد استبدلت مع انتهاء الحرب الباردة بالمنافسات الاقتصادية وسباقات التكنولوجيا والأشكال المختلفة للحرب التجارية، وبالتالي فإن اللغة المستخدمة في وصف التجارة والاستثمار الدوليين في هذه الأيام بدأت تنحو منحىً عسكرياً في طبيعتها، إذ توصف الصناعات حالياً بأنها واقعة "تحت الحصار" وإن الأسواق قد خضعت "للسيطرة" أو أنها "استسلمت" كما تناقش المعدلات النسبية لنفقات البحوث والتطوير، وشراء (أواغراء) العقول، وشراء أسهم سلع التكنولوجيا المتقدمة بنفس القلق الذي كانت تناقش فيه الأحجام النسبية للأساطيل الحربية قبيل عام 1914... بل ان

---

[55] السابق، نفسه: 171 – 172

خبراء "الأمن القومي" يقرون اليوم بأهمية الأبعاد الاقتصادية للقوة، ويعترفون بأنه يصعب استخدام الوسائل التقليدية كالجيوش والقوات البحرية في مواجهة التحديات الاقتصادية.

وعلى الرغم من أن تحولاً كهذا يبدو "مسألة جديدة" إلاّ أن التفكير القديم في حقيقة الأمر لا يزال موجوداً، وهو أن "الدولة القومية" تشكل مركز الأشياء ولا تكف عن السعي الدؤوب للتفوق على الدول القومية الأخرى. ويبقى هناك نظام عالمي تجاري جديد، حتى لو لم يعد اللجوء إلى الحرب - كما حدث في حرب الخليج 90 – 1990 خياراً..[56]

ثمة كتابات (متطرفة) تعتقد غير ذلك[57]

إلاّ أن هناك خبراء آخرين في (الاتجاهات العامة) يشيرون إلى (أسباب) أخرى للقلق، وإلى (تهديدات جديدة) للأمن: كالإنفجار السكاني في الدول الأكثر فقراً في العالم، قد يؤدي إلى (حروب الموارد) ومفاقمة (التوترات الاثنية) و(تغذية الاضطرابات الاجتماعية) و (التوسع الخارجي) ولن تتوقف آثار طوفان (الهجرة) من الدول الفقيرة والمضطربة في العالم للدول الأكثر غنىً وسلاحاً عند التكاليف الاجتماعية بل ستتعداها إلى تصاعد في (العداوات العرقية).

ومن المحتمل أن يؤدي التقسيم الدولي الجديد للانتاج والعمل إلى تهديد الدولة القومية وأمنها، لأن منطق (السوق العالمي) لا يلقي بالاً إلى موطن صناعة السلعة، ولكن المسؤولين عن تخطيط (السياسات الدفاعية) أكثر اهتماماً بذلك، انسجاماً مع التفكير التقليدي فيما يختص بالأمن القومي.

....

■ إن وجود (عالم بلا حدود) يحمل في ثناياه شيئاً من "تنازل" الدولة عن سيطرتها على كلٍ من عملتها الخاصة وسياستها المالية،.. لأن مجرد الوعي برفض السوق لبعض الاجراءات (كدفع الضرائب مثلاً) قادر على ردع ما يسمى بـ (الحكومات المستقلة) عن وضع تلك الاجراءات موضع التطبيق.

---

[56] نفسه، ص: 173.

[57] انظر : جي فريدمان وم. ليبارد: "الحرب القادمة مع اليابان" ـ نيويورك 1991.

(وعلى الرغم من تباينها من حيث الشكل فإن هذه "الاتجاهات العامة" ابتداءً من ظاهرة زيادة الدفء الكوني، إلى التداول النقدي على مدار الساعة، هي اتجاهات متخطية للقوميات في طبيعتها، عابرة للحدود في أرجاء الأرض جمعياً، مؤثرة في المجتمعات النائية. وهي ما فتئت تذكرنا بأن كوكبنا "وحدة واحدة" بالرغم من كل الانقسامات الموجودة فيه، انها اتجاهات خارجة إلى حد كبير عن سيطرة سلطات الدولة القومية التقليدية فهي بالمعنى المباشر - لا تستطيع الحيلولة دون وقوع تحولات في الغلاف الجوي مثلاً - وبالمعنى - غير المباشر - فإنها لو أقدمت على حظر فعاليات معينة مثل الزراعة التكنولوجية الحيوية، والإنسان الآلي، وتداول النقد الأجنبي في إطار حدودها القومية، فإن فعاليات كهذه لن تتوقف في أقطار أخرى.

وأخيراً فإنه يتعذر مواجهة تحديات كهذه بالقوة العسكرية التي شكلت (الوسيلة المعتادة) للدول في (معالجة المخاطر) التي تعتري (أمنها).

إن تطورات كهذه (مترافقة) مع (تحديات) ثانوية: كـ (الارهاب الدولي) و (المخدرات)، أو بمعنى، أن تلك التطورات تكمل أيضاً تحديات ما ينتج عن (الارهاب الدولي) وتجارة (المخدرات) وتعاطيها من مخاطر تهدد (الأمن القومي).

وبناءً على ذلك، ينبغي على الحكومات أن تتخلص من هواجس الأفكار العسكرية والاحتلالات المباشرة، وإن كانت هذه الهواجس لا تزال قوية، وإن أخطار الاحتلالات المباشرة لا تزال محتملة، فمن المهم أن تركز (الحكومات) اهتماماً على "الاجراءات" الكفيلة بمواجهة تحديات (مغايرة) إلى حد كبير تتعلق بالرخاء القومي والبنى الإنسانية.

ولكن.. أية (حكومات) تسعى إلى ذلك؟

إن الأنظمة العربية، التي تواجه تحديات خطيرة في الراهن والغد، لا تدرك مقدار الخطر الأكبر الذي سيبتلعها. كيانات ونظاماً اقليمياً..

وتماماً، ليس من المحتمل أن تتلاشى (الصراعات الاقليمية) فهي - اللغم - الذي لا تدري في أي لحظة يتفجر، أو هو "القنبلة الموقوتة" التي تمسك "صمامها" "اسرائيل" وحدها بعنجهيتها وتعصبها وتطرفها الارهابي بعون وإسناد من أمريكا..

إن (الصراعات الاقليمية) ذات الديناميكيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأثنية قد تتسع (من زاوية شعبية) أيضاً، في مناطق عديدة من العالم من حيث العدد والمدى مع اشتداد الصراع على الموارد.

فقد "اتضحت" أهمية "الدول القومية" و"القوة العسكرية" بصورة جلية إبان حرب الخليج 1990 – 1991[58]

واتضحت، ولا زالت منذ بدء (الصراع) العربي – الصهيوني.. ولا زالت... حتى بعد مسارات التسوية التي تمت بين مصر والكيان الصهيوني، الاردن والكيان الصهيوني،... والتي تتعثر على المسار الفلسطيني – الصهيوني، واللبناني والسوري...

إذاً، كيف نحدد خطاب المثقفين في هذا المساق؟

■ المثقفون العرب طرحوا أسئلة الراهن العربي حيال القضايا المصيرية على الساحة العربية العامة، والعربية – العربية، والعربية – الدولية،.. لكن أين تلك الأسئلة من خطاب الجماهير، وما مدى التجسير بين إدراك خطاب المفكرين – المثقفين، وخطاب الجماهير.. هل ثمة فجوة لما تزل، بين قيادات النخب الثقافية والسياسية وبين الناس المبعدين عن الفعل، والحائرين في الانفعال؟

والمثقفون بين هلالي التطبيع والحصار، قد يتوقعون أو يتخيلون، أو ينظّرون في المتغير لأنهم يقفون أمام سؤال المحنة: كيف تمارس النخب العربية المفكرة التغيير في مواقفها داخل التغيير القسري الذي يجتاح المنطقة بدءاً من التفاعلات والمهام والأدوار، وانتهاءً بالبنية؟

ما مدى سيطرة النظرة (التشاؤمية) أو النظرة (التفاؤلية) في تحديد مستقبل الأمة العربية على المستوى الزمني القريب، وعلى مستوى الغد.. وهي ترى إلى الكيان الصهيوني ينفذ خططه دون مبالاة لأي وجود عربي، أو مساعٍ دولية، حتى لإعادة "ما يسمى بعملية السلام" إلى حالة التفعيل في كل مساراتها.. كما أن هذه النخب الثقافية ترى إلى ما يفعله الحصار في شعبنا ووطننا في العراق..

---

[58] كنيدي، بول: المصدر نفسه ص 176

من ثم.. ما مدى التزام النخب الثقافية والمفكرين العرب (بالأدوات المعرفية) التي تمليها (تاريخية الحاضر) الراهن، في (وصف) الحزم الأزمية وتحليلها، وتقديم البدائل الموضوعية، من موقع قوة حصانة ذاتية، وليس من واقع هش، واقع انهزام أو احباط، أو اختراق؟

لنرى.. إلى ما تم بالفعل، عبر نموذج - مثال، هو "مركز دراسات الوحدة العربية"..

ففي أواخر الثمانينات نشر هذا المركز تقريره النهائي لمشروعه البحثي حول "استشراف" مستقبل الوطن العربي خلال العقود الثلاثة التي تلي زمن الدراسة، أي حتى أوائل القرن الحادي والعشرين، على وفق ثلاثة مشاهد احتمالية للمستقبل هي:

- مشهد التجزئة (أي استمرار الأوضاع الحالية!)
- مشهد التعاون والتنسيق
- مشهد الوحدة العربية الاتحادية ذات المحتوى الديمقراطي.

واعتبر (المشهد الثالث) هو العلاج "لمشكلات الأمة العربية وتحقيق طموحاتها"[59]

وحدد (الباحثون) العرب ثلاث مسارات لانجاز المشهد المذكور، يعتمد المسار الأول على "قيام قوة اقليمية جذرية (ثورية) تتكون من قطر عربي أو أكثر، تملك الاستقلال في التنمية والعلاقات الدولية، مما يجعلها ذات ثقل و مصداقية، وذات توجهات وممارسات وحدوية واستقلالية"! أي أنها تمتلك "مشروعاً حضارياً" جاداً ومتبلوراً للوحدة!.. وهو: مشهد حلم، مثالي، لا تؤيده الوقائع وحالة الأمة/..

أما المسار الثاني، فيعتمد على تطور امكانيات المشهد الثاني (التعاون والتنسيق) واستغلال إمكانياته كالأشكال الوسيطة للتكامل من خلال التنسيق

---

[59] راجع: حسيب، خير الدين (مدير مركز دراسات الوحدة العربي)/ كلمة الافتتاح لندوة الحوار القومي الديني/ (الحوار القومي الديني - مركز الدراسات - بيروت ط1/ 1980)
انظر: الادراك السياسي لمصادر تهديد الأمن القومي العربي/ مركز الاردن الجديد للدراسات بالتعاون مع وزارة الثقافة/ اعداد باسم الطويسي/ عمان سندباد للنشر ط1/ 1997 ص:18

الوظيفي، تبادل المنافع، المصالح.. بعيداً عن الحساسيات والنعرات القطرية../ وهو مسار "مثالي" أيضاً، وغير واقعي، بسبب ما وصلت إليه قيادات البلدان العربية من احتراب، وما يسود الساحة العربية، بالفعل، من نعرات قطرية!

أما المسار الثالث، فينطلق من (التحول) عبر (المشهد الثالث)/ المستحيل الواقعي/ نحو "حالة ديمقراطية" كاملة في معظم الكيانات العربية/ وهو مستحيل أصعب!

لأن هذا "المسار" – حسب الباحثين المتفائلين – يراهن على قدرة" (الرأي العام) المشكل من (مجمل السكان والقوى العاملة والشرائح الوسطى) و(المجتمع المدني) إلى الأخذ بالمبادرة و "السعي نحو مطالب جديدة"!![60]

ومعروف أن التأسيس على وهم يقود إلى وهم.. في النتيجة!

عدا عن غياب حقيقي لرأي عام فاعل، وبمجتمع مدني مؤثر، و"مطالب جديدة" لم تتبلور بعد حتى في برامج الأحزاب والفعاليات، وأن وجدت لا تمتلك قوة تأثيرها المادي للتحقق والتغيير.

هل نقول أن المسارات الثلاثة، هي خيبة تضاف إلى خيبة (المشاهد) الثلاثة!.. ولن يتعدى الأمر محض (التنظير). و(البحث) مع غياب الفعل والتفعيل، وقسوة الآخر المحلي/ العربي/ الدولي في رده على أية آمال، أو تمنيات، أو مشاريع!؟

والإجابة العملية نسوقها من "فم" (المؤتمر القومي العربي) ومن ذات النخب، التي اجتمعت في عمان (27 – 29 أيار 1991) لتناقش (حالة الأمة) و(مستقبل حقوق الإنسان) في الوطن العربي، أمام (ما يعانيه الإنسان العربي) – حسب بيان المؤتمر – (بفعل أزمة وحرب الخليج الثانية من تمزق نفسي – وخلط أوراق – خلطاً غير صحيح في المفاهيم في ظل غياب النقاش الديمقراطي المطلوب على قاعدة المسلمات والقناعات التي مستها الأزمة في اتجاهين: المصادرة الفردية للقرار السياسي وكسر بداهات الاستقلال القومي)[61]

فماذا تبقى، إذاً؟.. كي نراهن عليه؟

فإذا كانت (الديمقراطية) التي تمثل (موقعاً أساسياً ضمن أولويات المشروع الحضاري العربي) هي: في الغيب، ومن (السهولة) – التضحية بها من أجل قيمة أخرى –.. فإن

---

[60] نفسه: ص25

[61] انظر: (بيان إلى الأمة)/ بيان المؤتمر القومي العربي الثاني/ عمان 27 – 29 – أيار – 1991

(تشخيص) الدورة الرابعة لهذا المؤتمر العربي الذي يضم شخصيات لا تتقاطع مع سلطات بلدانها، وليست معادية لها، أيضاً، قد أكد بأن "النظام العربي في أسوأ حالاته" وهو في "حالة قريبة من الشلل" وإن محاولات خارجية تجري "لإنهائه" واستبداله بنظام "شرق أوسطي" يكون "الكيان الصهيوني" مهيمناً فيه، ومرتبا لمصالحه ومصالح النظام العالمي الجديد "الأمريكي الهيمنة، والهوية، والمصالح!

إن "الأنظمة العربية" لم يعد لها أو لديها، (خطوط حمر) قومية أو وطنية، و"ما كانت تتداوله سراً أصبحت تجهر به علناً دون مؤاربة أو خجل"[62]

ان الشعب العربي تحت وطأة التغييب!

ومنذ تلك "الدورات" ولغاية الآن، وغد العرب أيضاً سيظل مغيباً، لأن مشروعات الشرق أوسطية تزحف على هوية المنطقة وتقرضها شيئاً شيئاً، وتفتت أكثر مقاومة التطبيع السياسي والثقافي والاقتصادي مع العدو الصهيوني، بل وتخترقها في رموزها لتحولها من موقع الضد إلى تحالف المع..

وحتى (الحقوق المشروعة) للشعب الفلسطيني التي أكدتها (المؤتمرات الدولية) وبخاصة (حق العودة) و (عروبة القدس).. ميعتها (الاتفاقيات) – من أوسلو ـ أ/ إلى أوسلو ـ ب/ .. الخ.. وذبحتها السياسة الإرهابية الرعناء للكيان الصهيوني، بخاصة جناح الليكود – نتنيناهو –

وخضعت، للأسف الشديد، (المجتمعات العربية) – وهو مصطلح يخفف الأذى!الاتفاقيات الاملاء والاذعان، لأنها لم تعد قادرة على اتخاذ القرارات المصيرية، وعدم الاذعان والالتزام بتلك المسارات.

الباحثون العرب، وصلوا إلى تأكيد (غياب التضامن العربي) و (التقييد المتزايد للحريات) و (تغييب الشعوب العربية عن المشاركة السياسية) و (الانتهاك المستمر لحقوق الإنسان) وأن الأوضاع العربية قد وصلت إلى (مستوى غير مسبوق من الانقسام) و (غياب الإرادة الجماعية القادرة على

---

(62) انظر: بيان الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي حول الأوضاع العربية الراهنة/ بيروت 8 – 9 أيلول 1992.

التصدي للتحديات الهائلة التي تواجه الوطن العربي في ظروف بالغة القسوة والمشقة عربياً واقليمياً ودولياً)!

فماذا اقترحوا (نحو غد عربي أفضل)؟

- تطوير (الفكر العربي) ومسؤوليته بالقيام بدوره العام!

- تأهيل الإعلام العربي لمهام جديدة ومصيرية![63]

لكنهم، لم يحددوا "الكيفية"... في جوار شكل الخلافات العربية - العربية، وغياب آلية عمل عربية جادة لمعالجته، في ظل (تجميد) مؤسسات العمل العربي المشترك ومواثيقه وعجز (الدبلوماسية العربية) عن اتخاذ حد أدنى من الموقف من (التنسيق والوحدة) و (المصالحة) بين الأنظمة، بل تراجع الانفتاح السياسي، وتزايدت ظاهرة الاعتماد على العمالة الأجنبية في الخليج العربي، وتعمقت ظاهرة الوجود العسكري الأجنبي في الخليج وما يصاحب ذلك من توتر عسكري في المنطقة وابتزاز اقتصادي متصاعد...

وهكذا نلاحظ أن "الخطاب العربي" على المستويين: (في خطاب السلطة) وفي (الخطاب الثقافي) يسودهما (الارتباك والتناقض) إزاء الصراع العربي - الصهيوني، الذي هو ليس صراعاً على الأرض، حسب، بل على الهوية داخل الجغرافية وعلى الاستراتيجية قبل المياه، أيضاً... إلى جانب (اختلاط الأنماط والتفاعلات الاقتصادية والحضارية)..

يطرح لطفي الخولي، مثلاً، الأمر بإرباك أكثر وإثارة أعمق للتناقض على صيغة السؤال والجواب معاً:

(عرب؟ نعم، وشرق أوسطيون أيضاً) يقول:

(إذا كانت إسرائيل - تاريخياً - ظلت العدو المشترك المباشر خلال مرحلة الصدام العسكري، فماذا تكون بالضبط في المنظور الفكري والحركي للعروبة

[63] انظر: تقرير (حال الأمة) الذي أعده فريق من الباحثين المختصين من أعضاء المؤتمر القومي. في دورته التاسعة (بيروت 20 - 5 - 1995) وأعمال (ندوة: نحو غد عربي أفضل) التي انعقدت في (قطر) بمبادرة من (مركز دراسات الوحدة العربية).

والقومية مع بداية هذه المرحلة من التسويات السياسية التي لا تملك بحق الخروج منها موضوعياً؟

(بتعبير آخر: هل تبقى إسرائيل - عروبياً وقومياً - هي ذات العدو المشترك والمباشر؟

أم تأخذ صفة أخرى، ووصفاً آخر؟

ما هي الصفة؟ صديق جوار؟ شريك في تعاون ما؟

ولكن على أي أسس، وفي أي مجالات، وفي أية توليفة إقليمية؟

ومن مع من؟[64]

وضد من؟)

سنلاحظ أيضاً، على خلفية مشاريع التسوية الراهنة تراجع (النبرة التفاؤلية) في خطاب المثقفين نحو الغد...فالخبرة التاريخية السابقة بنيت تاريخياً على أسس ثلاثة محاور تبدأ (بالفشل) إلى (طرح البديل) وصولاً إلى (الخيبة) بداية والشعور بالفشل ثانية، مع وجود تيار آخر داخل خطاب (المثقفين) فيما بعد التسعينات يشارك (خطاب السلطة) الزحام في اللحظة الأشد تأزماً في تاريخ الحزم الأزمية في ادعاء (امتلاك) المستقبل و (الاحتماء) به!

إنه تيار أيضاً... يتقاطع مع (خطاب السلطة) برفضه للواقع، وينأى بنفسه عن (النقد) نحو (الاحتماء) بالمستقبل!

فإذا كانت (آلية) الإتكاء على المستقبل تياراً يتضخم يوماً بعد يوم، فهي (مؤشر) على ازدياد حدة (الإفلاس) من القدرة على (نقد الواقع) أو (تغييره).

ويعتقد آخرون أن ما يحدث يشكل (إنقلاباً) في (الفكر العربي)!!... أي انه (الفكر) تحول رأساً على عقب، من خلال (الاستناد) إلى (مرجعية المستقبل - الماضي) لتبرير الادعاء بامتلاك (القدرة) على (إنقاذ) المنطقة ومصيرها والحسم التاريخي، حيث يستبدل بـ (ثنائية القطبية) السابقة، (ثنائية) أخرى هي (الشمال

---

[64] الخولي، لطفي: عرب؟ نعم - وشرق أوسطية أيضاً؟ / مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة 1994 ص 11

والجنوب)، في الوقت الذي تسعى فيه (الأنظمة) للحاق اللاهث والاتباع الأعمى (بالشمال) الذي تمثله (الولايات المتحدة الأمريكية والغرب)،..

ويبقى هناك (طرف شعبي) هو (جزء) من (جنوب العالم) يبحث عن (سبيل للنهوض والبناء) في غياب (الأيديولوجيات)[65]

فإذا كانت السمة (التفاؤلية) تطوع باستمرار في (خطاب السلطة) فإن السمة (التشاؤمية) هي الرد المباشر الذي تعلنه (القوى الرافضة) والمتحفزة لتصعيد الرفض على مستوى (القواعد) و(البنى الاجتماعية) العامة، محاولة اخراجها من حالة (الانفعال) بالأحداث، إلى مستوى (فاعل) بالأحداث، في الوقت الذي ما زالت تعيش فيه (القواعد) تلك حالة من (السكون) و(الركود) و(الاعالة) و(الاحباط)!

إن خطاب المثقفين العرب يحمل مضامين متفاوتة يقف في مقدمتها مصدر التهديد الخلافي حول موقع (صياغة تاريخية - جغرافية) جديدة للمنطقة، ضمن المقولات المطروحة (للسوق) أو (النظام الشرق أوسطي) أو (المتوسطي) ثم استمرارية (الخطر الصهيوني) القائم عسكرياً وحضارياً حيث تتوزع الاتجاهات بين بقاء (الايديولوجية الصهيونية) التوسعية دون أدنى مطالبة بالتخلي عنها أو إنكارها، وبقاء الترسانة العسكرية (الاسرائيلية) بكل ضراوة تسسليحها كما جسدتها أزمة التوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية كي يبقى الكيان الصهيوني مصدر القوة في المنطقة في منحدر التسعينات وفي ظل (الحصارات) الغربية ضد (العراق - ليبيا - السودان) والاحتلال العسكري الغربي لمنابع الثروات في الخليج العربية والوجود العسكري الكثيف هناك براً وبحراً وقواعد جوية! كذلك الأمر بالقرب من الشواطئ الجنوبية للمتوسط، وفي ظل (بقاء) الغرب مصدراً للتهديد والقلق والابتزاز مع احتمال اجتياح عسكري غربي شامل، كاحتمال منظور ومتوقع بخاصة بعد التحالف العسكري الصهيوني - - التركي، التركي - الأمريكي.. أيضاً!.. مما يجعل الكيان الصهيوني صاحب التفوق الكيفي حتى في ظل تحالفات عربية - عربية في المستقبل.

---

[65] سيد أحمد، محمد: سلام أم حرب/ دار الشروق - القاهرة - 1995

إضافة إلى مصادر استراتيجية أخرى للتهديد مثل: الاستيلاء على موارد المياه والطاقة وحصار الاقتصاد والسلاح والماء، والظلم الاجتماعي (صراع طبقي) والتصعيد غير المتوقع لأزمة الجماعات الاسلامية ومدى احترام سلطة الأقليات، وزيادة التبعية والمديونية الخارجية والتضييق من قبل التكتلات الاقتصادية والسياسية القادمة في الغد[66]

في ضوء تحولات الصراع في المنطقة غداً، وازاء المشكلات المتصلة بالتكوين الاقتصادي – السياسي العام للعالم الرأسمالي المتقدم، والانعكاسات المرافقة لهذا التكوين المتمثلة بمشكلات البيئة والأمراض الجديدة، والمشكلات المتصلة بمدى امكانية السيطرة على عملية (تحلل) نظم الدولة في العالم الثالث، وبخاصة في افريقيا وأمريكا وما ينتج عن ذلك من اهتزاء اجتماعي وعنف عسكري وسياسي وتحول (أجندة) الاهتمامات الدولية في أبعادها الحضارية نحو التأكيد على (البعد الثقافي) وتراجع (الأثر الأيديولوجي)[67]

هل يتطلب الأمر، بجدية، عقد مؤتمر مفتوح للمثقفين العرب، شرط توفر الحصانة الوطنية والفكرية والاستقلالية لديهم.. ليتوصلوا عبر بحث متأن قد يمتد لسنتين أوأكثر، إلى حلول مستقبلية، كما توصل مؤتمر لندن (1902)إلى أول خيط لوعد بلفور. تالياً.؟

هل يتوصل المثقفون العرب غير المخترقين وغير المطبعين وغير المحاصرين، إلى خلق كيان مضاد للكيان الصهيوني، يستخلصون عناصره من الموارد البشرية والمادية والجغرافية العربية، ليس في مواجهة الكيان الصهيوني وحده، لكن بوجه التحديات في القرن الحادي والعشرين كلها؟

---

[66] الادراك السياسي/ مصدر سابق/ ص 23 – 24

[67] بدران د. ودورة/ النظام العالمي الجديد والأمن القومي العربي: مصادر التهديد/ معهد البحوث والدراسات العربية/ القاهرة 1993 ص 43

هانتنغون، صموئيل: إن لم تكن الحضارات فماذا تكون؟ (شؤون الأوسط/ العدد 30/ 1994 ص 30

إن النظر عميقاً للمعطيات الحالية للوطن العربي والواقع الغارق في التهميش الاقتصادي على خلفية المتغيرات الدولية الجديدة، وفي ظل استمرار قضايا الفقر ونقص الغذاء والمديونية وازدياد فجوة التكنولوجيا، يدفعنا إلى (الثورة) لا إلى (ندب) الحال، والبكاء على أطلالنا المعاصرة وخرابنا (الجميل)!

(إذ بلغ الناتج القومي العربي عام 1991 (419.777) مليار دولار، احتلت الزراعة 12٪ والصناعة 41٪ والصناعة التحويلية 10.2٪ بينما وصل قطاع الخدمات إلى 36.1٪.

أما معدل النمو السنوي فقد تراجع هو الآخر - عام 1991 - إلى 4.4 كذلك تراجعت التجارة البينية - العربية التي كانت شهدت نمواً بسيطاً في أواخر الثمانينات فانتكست بعد (حرب الخليج الثانية) و لم تتجاوز الـ 7٪ من مجموع التجارة الدولية العربية..

كما أن العمليات التحويلية، كمؤسسات التنمية العربية وصناديقها لم تزد تدفقاتها السنوية عن مليار ونصف مليار دولار.. وهي أرقام متواضعة مقارنةً مع حجم التحديات الانمائية)[68]

أما الديون العربية التي كانت عام 1980 حوالي 60.443 مليار دولار فقد أصبحت في العام 1990 حوالي 141.175 مليار دولار، وارتفعت في مطلع العام 1996 إلى 232 مليار دولار[69]

لقد أكد تقرير برنامج الأمم المتحدة حول التنمية البشرية لعام 1995 على ظاهرة (التفاوت في المستويات) في مستوى التنمية، ومستويات الدخل والثروة، معاً.. فبينما سجلت الامارات العربية (0.861) نقطة. وقطر (0.838) نقطة، والكويت (0.821)نقطة، سجلت مصر (0.617) نقطة، والمغرب (0.554) نقطة واليمن (0.432) نقطة، والسودان (0.389) وموريتانيا (0.359) والصومال (0.246) علماً بأن كندا جاءت على قمة الجدول (0.950)

---

[68] عبد الفضيل، د. محمود: المحور الاقتصادي/ المؤتمر القومي العربي الثالث/ بيروت 1992

[69] "بيان إلى الأمة"/ المؤتمر القومي العربي الثاني 1991/

المستقبل العربي/ العدد 122 ص 162)

وانظر: الرأي الأردنية 1995/12/27

نقطة، تلتها الولايات المتحدة واليابان (0.937) أما (النيجر) فقد احتلت المرتبة الأخيرة: (0.207) [70]

وتدل البيانات المتاحة على مدى حالة (الانكشاف الاقتصادي) على مستوى (الأمن الغذائي) المتعلق بالزراعة، وتراجع معدلات الزيادة في الرقعة الزراعية، وزيادة الفجوة بين نمو الطلب ونمو الانتاج المحلي، وبالتحديد. في المحاصيل الاستراتيجية (القمح، الأرز، السكر، اللحوم، الزيوت).

وتشير البيانات أنه بينما بلغ معدل زيادة العرض 2.3٪ في الفترة من 1980 حتى 1990، فإن معدل نمو الطلب خلال نفس الفترة بلغ 4٪ أي حدوث فجوة غذائية تقدر بحوالي (10) مليار دولار إلى (50) مليار دولار، وهو تأكيد صارخ للخلل القائم بين الصادرات والواردات الزراعية[71]

ومعروف أن (حرب الخليج الثانية) أسفرت عن إضعاف القدرة الخليجية – العربية على المساومة بالنفط لتحقيق التقدم والأمن في الوطن العربي، واستحالة توظيف (النفط العربي) باعتباره عامل قوة... وسلاحاً عن طريق وقفه أو التهديد بوقف امداداته أو تقليصها ولو جزئياً.. كما حدث في حرب اكتوبر – تشرين1 – 1973 حين أمم العراق شركات النفط، وأعلن (النفط سلاحاً في المعركة)..

وفي الاطار نفسه الذي يعاني فيه الوطن العربي من (الانكشاف الاقتصادي) في ظل تراجع النظام العربي الاقليمي، تبرز مشكلة (ندرة المياه) كأهم التحديات حاضراً، وغداً، والتي تهدد بحدوث كوارث ونزاعات داخلية واقليمية، حين لا تسعف الموارد المائية الشحيحة الحاجيات الزراعية وانتاج الغذاء والحاجيات الانسانية الأخرى للمياه

إذاً..

ازاء رجحان كفة التفوق لصالح الكيان الصهيوني، بدعم أمريكي – غربي.. واختلال التوازن العسكري في المنطقة، عقب تدمير القوة العسكرية العراقية، وفرض قيود غير متوازنة على نمو القوى العسكرية العربية وتهديد

---

[70] التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام 1990 ص 61 - 65

[71] عبد المنعم، طه: الوطن العربي وتطورات السوق العالمي للنفط، من (الوطن العربي والمتغيرات العالمية – مرجع سابق) ص: 392 - 393

الدول العربية الساعية لتنمية قوتها، (يضفي) الموقف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية (نوعاً) غير مألوف مما يسميه بـ(الشرعية الدولية) على عملية تدمير مخزون الأسلحة العراقية، وتجريد العراق من قدراته التسليحية النووية والبيولوجية والصاروخية، حيث شمل قرار مجلس الأمن الدولي رقم 687 الصادر في 13 نيسان 1991 في الفقرة الثامنة على أن:

".. يقرر أنه ينبغي على العراق أن يقبل بلا شروط تدمير وإزالة أو نزع ضرر ما يلي تحت اشراف دولي:

1 - كافة الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية وكل المخزون من العناصر الوسيطة وكل الأنظمة الفرعية ذات الصلة والمكونات وكل منشآت البحوث والتطوير والدعم والتصنيع.

2 - كافة الصواريخ التي يزيد مداها على (150) كيلومتراً والأجزاء الرئيسة ذات الصلة ومنشآت الصيانة والانتاج.."

وعلى مدار أربع سنوات تم تدمير المخزون الستراتيجي للسلاح العراقي على مرأى من العالم، وتم تشكيل العديد من فرق التفتيش التي أضرت بالعراق أضعاف المرات، التي أضرت به غارات الثلاثين دولة الصاروخية - قبل غارات الطيران - والتي بلغت في اليوم الأول 16 - 1/17 /1991: (1300) طلعة جوية، قذفت ما مجموعه (18) ألف طن من القذائف والقنابل!!.

(اسرائيل) هي أكثر الأطراف إفادة من جملة التحولات الدولية والاقليمية بعد (حرب الخليج الثانية) عام 1991، لذا تحركت أكثر على الاحتفاظ بالأراضي المحتلة لتحقيق مشروع (اسرائيل الكبرى) واشتغلت على (استراتيجية الردع) التي نسجتها طوال سنواتها الماضية، لتزرع (القلق وعدم الاستقرار) لدى (الأطراف العربية) لاشاعة روح اليأس بداية لاجبارها على الاستسلام لمخططاتها السياسية والأمنية. وتثبيت وتعزيز "الاحساس بالاستقرار" لدى (الصهاينة) لدفع أعداد متزايدة نحو الهجرة إلى الكيان الصهيوني...

ثم (الردع بالشك) ـ الذي يجعل الأطراف العربية المعنية لا تعرف (الخطوط الحمر) التي يؤدي تجاوزها إلى استخدام الطرف (الاسرائيلي) للأسلحة النووية!

ثم التهديد الصريح بسياسة (الردع النووي)، حيث عليها أن تردع دول العمق (المعادية) للكيان الصهيوني، وقد سبق وأعطى أمثلة على ذلك حين أغار على تونس عام 1985، وعلى بغداد عام 1981 بطائرات متطورة تستطيع أن تحمل أسلحة غير تقليدية.

لقد أوصلت هذه (الاستراتيجية) الكيان الصهيوني إلى طاولة (المفاوضات)، كون إسرائيل تمثل الكفة الاستراتيجية الراجحة بعد أن (ضمنت) تسليم العرب بعدم القدرة على دحرها باعتبارها (امتداداً) للوجود الغربي عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، مما حدا بالأوساط العربية إلى (الركض) نحو التسوية ومسار الاتفاقات والتطبيع الثقافي والسياسي والاقتصادي مع تل أبيب!

وهكذا.. فعلى الصعيد الفلسطيني ـ وهو الأهم في طرفي معادلة الصراع ـ وبعد (فك الارتباط) مع (المظلة الأردنية) التي دخلها الفلسطينيون عن طريق (مؤتمر مدريد) أعلن عن توصل منظمة التحرير الفلسطينية والكيان الصهيوني عبر مفاوضات سرية في (أوسلو) إلى (اتفاق ثنائي) يعرف باسم (غزة ـ أريحا أولا) ثم أعلن اتفاق (أوسلو /ب) الذي تضمن ترتيبات (الانسحاب الاسرائيلي) من الأرض المحتلة وترتيبات (إدارة الحكم الذاتي) فيها.

وتتلخص نقاط اتفاق (13 سبتمبر 1993) الذي احتفل بالتوقيع عليه في (البيت الأبيض) بما يلي:

1ـ تشكيل سلطة انتقالية ذاتية في الضفة الغربية وقطاع غزة لمرحلة زمنية لا تتعدى خمس سنوات تؤدي في النهاية إلى تسوية مبنية على أساس قراري مجلس الأمن 242 و 238

ب ـ تجري انتخابات حرة ومباشرة تحت الرقابة الدولية لتشكيل المجلس الانتقالي وتغطي صلاحياتها مجالات التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة، ويشكل المجلس قوة شرطة فلسطينية، بينما تتحمل (اسرائيل) مسؤولية الأمن الخارجي والأمن الداخلي للاسرائيليين.

د ــ تحل الإدارة المدنية وينتهي عمل الحكومة (الإسرائيلية) بعد تشكيل المجلس. كما تنسحب القوات (الاسرائيلية) من منطقة أريحا وتعيد نشر قواتها في الضفة الغربية والقطاع.

هـ ـ تطوير التعاون الاقتصادي الفلسطيني ـ (الإسرائيلي) من خلال لجنة دائمة يدعى للمشاركة فيها كل من مصر والأردن.

و ـ تبدأ مفاوضات الوضع النهائي في مطلع العام الثالث من الفترة الانتقالية، وتتناول قضايا القدس واللاجئين والترتيبات الأمنية والحدود والعلاقات مع الدول المجاورة.

وهكذا حقق الكيان الصهيوني بعض تصوراته وخططه (كمشروع يغال الون) الذي كان أول المشروعات الصهيونية التي طرحت كأساس للتسوية وقام على أساس إتاحة الإمكانية (لاسرائيل) للتخلص من مناطق ذات محدودية، وتتميز بالكثافة السكانية العربية.

كذلك تضمنت وثيقة حزب العمل الانتخابية لعام 1973 المعروفة باسم (وثيقة غاليلي) التأكيد بأن (اسرائيل) مستعدة لاتفاق سلام يضمن حدوداً يمكن الدفاع عنها وترتكز على حل إقليمي معتدل[72] .

وبهذه الكيفية يمكن القول بأن الاتفاق قد حقق لأول مرة (اعترافاً /إسرائيلياً) بوجود الشعب الفلسطيني بعد أن سارت (اسرائيل) طويلاً خلف مقولتها: (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) صحيح ان الاتفاق سار في مراحل تطبيقية متتابعة وإن شابه تعثر مستمر في المواعيد وفي التعنت في بعض الاستحقاقات ولكن تم بالفعل الانسحاب (الاسرائيلي)، ولكن بشكل محدود، من بعض المدن الفلسطينية، وتمت عملية إعادة الانتشار للجيش (الاسرائيلي) في الضفة والقطاع، وتمت عملية الانتخابات التشريعية للسلطة الوطنية الفلسطينية وبإشراف دولي، وكان من المنتظر أن تبدأ المفاوضات النهائية مطلع شهر أيار 1996 إلا أن نتائج الانتخابات (الاسرائيلية) والتي جاءت برئيس وزراء ليكودي (بنيامين نتنياهو)قد أدت إلى تعثر هذه المفاوضات ، والدخول في حل مشاكل جديدة نتيجة سعي الليكود إلى تبني أساليب وأهداف تختلف عما كان عليه حزب العمل، وان تطابقا بالاستراتيجيات.

....

■ فماذا تم بالفعل.. وما هو حاصل غداً؟

---

[72] المصري، جورج: السلام المسلح (قراءة أمنية في الاتفاق الفلسطيني ـ الاسرائيلي)/ شؤون الاوسط، 1994، كانون الثاني، العدد 26، ص:24.

أي مراقب لمسار الاتفاقيات، سيجد أولاً أن اللغة التي ســادتها غامضـة يظهـر فيها الالتباس والاشارات المبهمة، وهـو أمـر يشـكل مصـدر خطـورة تبعـاً للخـبرة التاريخية التي أفرزتها مجريات التعامل العربي مع الكيان الصهيوني من خـلال تفسـير القرارات الغامضة.

والتشكيك، ثانياً.. في إمكانية قيام (الدولة الفلسطينية المستقلة) ويربـط ذلـك في أحد اتجاهات التحليل بالخوف من نـزوح فلسـطيني في أريحـا عـبر جسـر الملـك حسين المقابل إلى داخل الأراضي الأردنية لسبب أو آخر، أو جعل الأردن هو نفسه (الدولة الفلسطينية) بضم الكيان الفلسطيني للأردن بصيغة فدرالية أو كونفدراليـة. وثالثـاً: إبقـاء (المسـتوطنات) الصهيونيـة في الأراضـي المحتلـة إلى ترتيبـات (الوضـع النهائي). في حين استمر الكيان الصهيوني منذ وقع الاتفاق، في توسـيع مسـتوطناته القديمة وزيادة عددها وقرض أراض جديدة وبناء مستوطنات عليها ويقــدر حجـم الاراضي الفلسطينية التي صادرها الكيان الصهيوني منذ توقيع الاتفاق أربعـين ألـف دونم حتى العام 1995 ، وتم ذلك بمبررات عديدة، فضـلاً عـن التوسـع الاسـتيطاني المستمر في مدينة القدس، والسماح للصهاينـة بالبنـاء علـى أرض عربيـة، ومصـادرة البيوت وهدمهـا، وإنشـاء أحيـاء سـكنية جديـدة، ومسـألة "جبـل أبـو غنيـم" الـتي تصاعدت في 1997، مثالاً صارخاً.

هذه الحقائق تشير إلى (وضوح) المفهـوم الصهيونـي (للسـلام)، وليـس غرابتـه وشذوذه، فهم لا يفهمــون "السـلام" إلا مـن زاويـة مصـالحهم وتحقيـق أهدافهـم ، "التلمودية" و"التوراتية" ، بل "خرافاتهم" التاريخية، المعصرنة والمحدثة!![73]

ويتضح ، رابعاً، أن قضية القدس تظل مؤجلة البحـث إلى (ترتيبـات : الوضـع النهـائي) علـى الرغـم ممـا تمثلـه هـذه المدينـة مـن أهميـة بالغـة للعـرب والمسـلمين الفلسطينيين. لكن التصـاعد المستمر في الخطـاب السياسـي الصهيونـي يؤكـد بـأن (القدس عاصمة أبدية لدولة إسرائيل).. وهو شعار لا يتنازل عنه الكيان الصهيونـي ويعمل ـ تطبيقياً ـ على تنفيذه، بصلافة ودون تردد.

---

[73] السيد ياسين، قراءة ثقافية لخريطة الصراع في زمن السـلام، دراسـات دوليـة، العـدد 57، 1995، ص 14 ـ15.

وخامساً: إن الاتفاقيات التي أبرمت والترتيبات التي تمت ما تزال غامضة حول ماهية الفصل بين الأراضي العربية التي يمكن أن يحصل عليها الفلسطينيون بالفعل، وبين أراضٍ تستخدم لأغراض عسكرية من جهة، وبين الكيان الصهيوني، كما حدث ما بين شهري شباط وآذار 1996 حينما أبدت السلطات الصهيونية النية للفصل بين الجهتين.

ان الاتفاق لم يتحدث عن انسحاب عسكري شامل وإنما ميّز بين الانسحاب وبين إعادة التموضع في الضفة، فالاتفاق أبقى (أمن) المستوطنات والمدنيين الصهاينة تحت السيطرة الصهيونية، أما طبيعة (الانتشار) في المناطق الاستراتيجية وحول المستوطنات فيعمل على إيجاد نحو أربعة أو خمسة كانتونات واقعياً[74].

وسادساً: لا يوجد نص يشير لوجود (جيش فلسطيني) في مناطق الحكم الذاتي ، وإنما مجرد "قوة شرطة" لحفظ (أمن الفلسطينيين) ، الأمر الذي يعني أن الكيان الصهيوني يستفيد من (المناطق المنزوعة السلاح) في تمكينه من التوفيق بين التأكيد المسلح على استخدام أنظمة الأسلحة الهجومية وبين الاستراتيجية الدفاعية.

سابعاً: لا يتطرق الاتفاق إلى لاجئي 1948 ، حيث لا يمهد لغير عودة الفلسطينيين النازحين من الضفة والقطاع عام 1967.

وحول هذه المسألة لم يتقدم مسار المفاوضات، بل اتسمت المباحثات التي بدأت عام 1995 بين القاهرة وعمان بالتعثر والاختلاف في وجهات النظر، بدءاً من عدم الاتفاق على تعريف (اللاجئ)[75] .

يؤكد الوضع الراهن في مناطق الحكم الذاتي ما لمس من فحوى الاتفاق بربط اقتصاد منطقة الحكم الذاتي بالاقتصاد الصهيوني عبر شبكة من العلاقات التي يصعب انفصالها. وأخيراً، أثبتت أحداث العمليات الفدائية (الانتحارية) التي نفذتها حركة حماس الفلسطينية ما بين شهري شباط وآذار 1996، ولاحقاً في 1997 التي قامت بها جهات أخرى .. هشاشة الاتفاق من خلال التدخل الصهيوني السافر في شؤون السلطة الفلسطينية وفرض الحصار على الفلسطينيين، كذلك أثبتت (غاية) الكيان الصهيوني وطموحه من وراء الاتفاق، بتحميل سلطة الحكم الذاتي تكاليف

---

[74] المصري، جورج، مصدر سابق، ص 27.

[75] المصري، جورج، مصدر سابق، ص 29.

مقاومة الانتفاضة الفلسطينية والحركات المناهضة للوجود الصهيوني ولعملية التسوية.

أما بالنسبة للمسار الأردني ـ الصهيوني، فقد وصل بعد اتفاقية وادي عربة 1994 إلى (مستوى التعاون).. وظل المسار السوري ـ الصهيوني متعثراً في الخلاف حول طبيعة الانسحاب من الجولان، والضمانات، ومسألة محطات الإنذار التي رفضتها سوريا.

والمسار اللبناني ـ الصهيوني مرتبط مصيرياً مع تطورات المسار السوري ـ الصهيوني، إذ يتمسك اللبنانيون بالالتزام بحدود هدنة 1949 مع (اسرائيل)، وتطبيق قرارات الأمم المتحدة القاضية بالانسحاب (الاسرائيلي) الكامل وغير المشروط من الأراضي اللبنانية، وفي مقدمتها القرار الرقم 425، علاوة على ضمان وقف الهجمات الصهيونية المتكررة على الجنوب.

والحصيلة..

إن المسارات اتجهت إلى:

1ـ تكريس اقتصاد فلسطيني عمقاً مكملاً لاقتصاد (اسرائيلي).

2ـ بناء تجمع اقتصادي أردني ـ فلسطيني ـ (اسرائيلي) لصالح الكيان الصهيوني!

3ـ بناء علاقات اقتصادية ومالية للكيان الصهيوني مع الخليج والمغرب العربي.

4ـ تظل أمريكا الطرف المهيمن في النظام الدولي، مهندس التسوية لصالح الكيان الصهيوني، وهذا الكيان يقوم بترتيب الأدوار الإقليمية!

5ـ كثفت أمريكا وجودها العسكري في المنطقة على شكل وجود دائم في الخليج والبحر المتوسط.

6ـ تعاون باتجاهين : منظومة إقليمية نسيجية بين دول الشرق الأوسط بإدارة الكيان الصهيوني ونفوذه، وتعاون أمني واقتصادي وثقافي بين ذات الدول والكيان الصهيوني.

7ـ فصل المشرق العربي عن المغرب العربي بهدف رفض أي تكامل عربي أو أي دور عربي متكامل، باتجاه التنسيق والتعاون، أو باتجاه الوحدة أو الاتحاد.

8ـ شراكة سياسية أمنية على جانبي المتوسط بتحويل المنطقة إلى بيئة "سلام واستقرار" و"مكافحة الارهاب" وإنشاء "جهاز" يسعى إلى التعرف على (مصادر) الصراعات بين دول المنطقة، ويحاول الوقوف عندها، والوقاية منها وحلها.

9ـ تخصيص 4،6 مليون وحدة نقدية أوروبية (ستة مليارات دولار) لخمس سنوات ـ كتخصيصات ـ لتمويل مشاريع تنموية في الجانب الآخر من المتوسط لصالح الكيان الصهيوني، وإقامة منطقة حرة تجارية في العام 2010م.

10ـ الشرق أوسطية والمتوسطية مشروع نشط يتم بدينامية أمريكية ودور مركزي أمريكي ـ صهيوني..: أسواق بديلة شرق أوسطية، بدلاً من سوق عربية مشتركة! أنظمة إقليمية بديلة لتحييد النظام الإقليمي العربي!

■ إذا .. جملة من الضرورات المصيرية تلح على العقل الثقافي العربي كي لا يحتل، وكي يظل حراً ومحصناً أولها، أن يأخذ موقعه على خارطة الأحداث للانتقال بالشعب من دور المنفعل بالأحداث إلى دور الفاعل بها، وذلك بتشكيل جبهة عريضة ونوعية من مثقفي التصدي والجهادية لمواجهة:

ـ الدعم الأمريكي للكيان الصهيوني اقتصادياً وتكنولوجيا كي يظل هذا العدو، القوة الأولى في المنطقة.

ـ ولمواجهة: التهديد (الاسرائيلي) المتصل بالمشروع الصهيوني التوسعي: (اسرائيل الكبرى).

ـ ولمواجهة: الخطر النووي (الاسرائيلي).

ـ ولمواجهة: انتماء (اسرائيل) للاستراتيجيات الاستعمارية الجديدة في المنطقة.

ـ ولمواجهة: دول الغرب في منع وجود قوة نووية عربية.

ـ ولمواجهة: المساعي الخطيرة لدعم الجمود العربي، وعدم التكامل العربي.

ـ ولمواجهة: مطامع الكيان الصهيوني في الثروات ومصادر المياه العربية.

ـ ولمواجهة: الضغوط الاقتصادية الأجنبية والتبعية.

ـ ولمواجهة: تراجع المد القومي العربي، أسبابه ومسببيه.

ـ ولمواجهة: مسعى الكيان الصهيوني للسيطرة على الاقتصاد العربي.

ـ ولمواجهة: الحصار الاقتصادي ـ العسكري الذي تفرضه الدول الكبرى على بعض الدول العربية كالعراق وليبيا والسودان..

ـ وللمواجهة: الوجود العسكري الأجنبي في الخليج والبحر المتوسط.

ـ وللمواجهة: وقوع معظم مصادر المياه الواردة إلى الوطن العربي تحت سيطرة غير عربية كاستغلال تركيا وتهديدها للثروات المائية الإقليمية.

ـ وللمواجهة : التدخل (الاسرائيلي) في الشؤون الداخلية العربية!.

ـ وللمواجهة: الاختراق الحضاري والثقافي (الاسرائيلي) للعرب.

ـ وللمواجهة: التدخل الأجنبي في الشؤون العربية من المحيط إلى الخليج!

ـ وللمواجهة : التطبيع الثقافي والسياسي والاقتصادي مع العدو الصهيوني.

.... إلخ، إلخ.

■وختاماً

(إيمانوئيل كانط)، أطلق ملاحظة أمل ـ قبل قرنين ـ حين اعتبر أن (الطبيعة قد استخدمت وسيلتين لتفصل الشعوب عن بعضها البعض: اختلاف اللغة، والدين)

وان تقدم (الحضارة) يدفع الشعوب إلى (لغة حوار وتفاهم!)

ترى: هل تتقدم (حضارة) العولمة، والانترنت ، وثورة الاتصالات والمعلومات، والعصا الامريكية والارهاب الصهيوني، على مشروع الحلم القومي العربي.. بعد أن هددت " الحلم القومي الأوربي" وجعلت (فرنسا) مفلسفة "الوحدة الأوروبية" تطلق صرخة الاحتجاج محذرة من خطر (الهجوم الثقافي) الامريكي ـ في السينما وفي الانترنيت ـ على الثقافة الوطنية. و"ثقافات" أوربا، بله: آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وربما : الأسكيمو والمريخ أيضاً!؟...

وهل تظل (الصين) تنظر بعيون مركبة، مع (اليابان) و(الهند) و(التنينات) الصغيرة، إلى تلك (العولمة) بحذر شديد دون أن تفعل شيئاً، أو إنها لتفعل الكثير سراً و علانية؟! بخاصة، ان أمام ناظريها، (تجربة) ما حل بالعرب، والأفارقة، والامريكان اللاتينيين، وقبرص والبلقان وأفغانستان.. فرادى وجماعات؟!

ومن ينسى، وكيف، حالات الاشتغال الامريكي الدؤوب على الإثنيات والتفكيك والتفتيت والأصول والثقافات ، منذ وضعوا اللبنة الأولى لأول معهد بحوث، والخلية الأولى في جهاز المخابرات والرقم الأول في أرصدة شراء المعلومات، والعقول، والحكومات.. سعياً وراء احتلال العقل، بعد احتلال الأرض.. أو

"الاستبداد" بها "استعبادها" بكل الوسائل، ومنها "قرارات" الأمم المتحدة، أو بقرارات فردية، كحصار أمريكا على كوبا.. والعراق تالياً؟

"ان التاريخ له مكانة" .. ذلك صحيح!

ولكن على عكس نوايا "بتلر"،.. حين نبني ، نحن ، ذلك التاريخ، على وفق إيماننا بذاتيتنا وحين نتشبث بمشروعنا الحضاري، بمواردنا البشرية، أولاً، والمادية والاعتبارية، في آن.. نحترمها، ونغذيها، ونحافظ عليها، ونكبرها، ننميها.. ونستثمرها، نحن في مواجهة الآخر، المعادي، إقليمياً كان (كالدولة العبرية!) أو دولياً، كالهيمنة الامبريالية الامريكية..

الصين ـ مثلاًـ تفعل ذلك منذ الآن ـ وقبل الآن ـ لتخترق القرن الحادي والعشرين بقوة "تنينها الأصفر"، ذهبها ولسانها الناري معاً!!.

ونحن نمتلك ذهبنا الأسود، وثرواتنا، الماء والطاقة والمال والبشر.. ، نملك "ثورنا السماوي"! فمتى نوحد ذلك في الهم وفي الإيمان والعمل؟! من المحيط إلى الخليج، بوطن محصن وقوي؟

لا .. كي نحفظ ماء وجوهنا، بل كي لا نخسر، بعد كلكامش، عشبة خلودنا ووجودنا.

إذاً .. هل ننتظر "قيامة" أخرى، لنا ، تبدأ بحجارة أطفال فلسطين، بدون شرطة السلطة!

ولا تنتهي باستقالة الخوف والتخلف.. استعداداً للغد ، و ما بعده؟!

ليكون فصل الختام، ضد التطبيع القسري مع العدو الإقليمي، العدو الدولي، في آن.

وضد حصارنا (العربي ـ العربي) و(الدولي) أيضاً: معارف، وخبرات، وحرية استثمار وجودنا الإنساني وثرواتنا وحركة آمالنا نحو الغد؟!

إنه سؤال الأسئلة.. أو أسئلة الوجود، وميتافيزيقيا الأذى، ودراما المعاناة..

....

أم أن "البدوي" الذي اختاروا له الاسم كي يجوب القمر والمريخ، مركبة اكتشاف، يمكن أن ينطلق خارج عقاله، ليجوب ذاته، ويحرر عقله وأرضه ويديه، ليكون نموذج غدنا، عصرنا القادم؟!

■" أسمع أصواتاً

ليس أقل من أكابر القديسين

وشعلة تتلاشى على شكل وهجات

عرفوا قيمة اللحظة

آه، لو لحظة واحدة..

قبل أن .. .."

بغداد - عمان/ آب - أيلول 1997

المراجع والمصادر:

1ـ أبو مطر، د. أحمد: الثقافة المصرية في زمن التطبيع 1994

2ـ تودوروف، تزفتان: الإنسان المغترب ترجمة: حسن الشامي 1997

3ـ غراهام، فوللر: العراق عام 2005 ـ مؤسسة راند 1993

4ـ عقراوي، ثلماستيان: المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين 1978

5ـ كنيدي، بول: الاستعداد للقرن الحادي والعشرين 1993

6ـ هيكل، محمد حسنين: حوار عن الحوار ـ الكرمل ـ.................................. 1997

7ـشوحت، إيللا: كولمبس، فلسطين، واليهود العرب ـ الكرمل 1997

8ـ جي فريدمان، وم. ليبارد: الحرب القادمة مع اليابان 1991

9ـ ن.س.بيريوكوف: جريدة القادسية.. 1990

10ـ سميسم.د.حميدة: آفاق عربية 1995

11ـ قنديلجي. د. عامر ابراهيم: آفاق عربية 1994

12ـ الجزائري، محمد،/الكبيسي، طراد، /البصري، عبد الجبار/ عبد جاسم ، عباس (بحوث مهرجان المربد الشعري الحادي عشر) 1996

13ـ توحيد، مجدي: روز اليوسف

14ـ حسيب. د. خير الدين: مركز دراسات الوحدة العربية 1980

15ـ الطويسي،باسم: الإدراك السياسي لمصادر تهديد الأمن القومي 1997

16ـ سيد أحمد، محمد: سلام أم حرب 1995

17ـ بدران. د. ودودة: النظام العالمي الجديد والأمن القومي 1993

18ـ هانتننغون، صموئيل: ان لم تكن الحضارات فماذا تكون؟ 1994

19ـ عبد الفضيل. د. محمود: المحور الاقتصادي 1992
20ـ عبد المنعم، طه: الوطن العربي وتطورات السوق العالمية للنفط 1995
21ـ المصري، جورج: السلام المسلح 1994
22ـ السيد ياسين: قراءة ثقافية لخريطة الصراع في زمن السلام 1995
23ـ الخولي، لطفي: عرب؟ نعم وشرق أوسطية أيضاً؟ 1994
24ـ إعلان كوبنهاغن: ملف الأمانة العامة لاتحاد الكتاب العرب ـ فخري قعوارـ قناة " الجزيرة " الفضائية 1996
25ـ بيانات المؤتمر القومي العربي: دوراته كافة 1996
26ـ لجنة الدفاع عن الثقافة العربية. 1996
27ـ مركز الأردن الجديد للدراسات: النشاطات .... 1993 ـ 1997

صحف ومجلات:

1ـ الأهرام 27 مارس 1979
2ـ الثورة 1990ـ1994
3ـ القادسية 1993ـ 1994
4ـ مجلة المجلة 1980
5ـ جريدة الوطن 1980
6ـ مجلة المجتمع المدني 1997
7ـ مجلة الأقلام 1995
8ـ مجلة آفاق عربية 1994ـ 1995
9ـ جريدة الحياة 1997
10ـ جريدة السبيل 1997
11ـ العرب اليوم 1997
12ـ مجلة الكرمل 1997

ذاكرة ثانية:

تسلسل تاريخي (1945-1995)

1945\3\22: توقيع ميثاق جامعة الدول العربية

1945\8\31: ترومان يطلب من بريطانيا السماح بدخول(100) ألف يهودي إلى فلسطين

1946\4\17: تم إجلاء آخر جندي فرنسي عن سوريا

1946\4\20:تقرير اللجنة الانجلو ـ امريكية حول الهجرة اليهودية

1946\6\12-8:موتمر بلودان

1946\10\2:مشروع موريسون لتقسيم فلسطين إلى أربع مناطق

1946\12\2:قرار الجامعة العربية بمقاطعة البضائع الاسرائيلية

1946\12\12:قرار الجامعة العربية برفض تقسيم فلسطين

1946\12\31:تم إجلاء آخر جندي فرنسي عن لبنان

1947\2\26:بريطانيا تحول القضية الفلسطينية إلى هيئة الأمم

1947\4\14: توقيع معاهدة أخوة وتحالف بين الأردن والعراق في بغداد

1947\10\15-7:مجلس الجامعة يدرس الاستعدادات العسكرية العربية

1947\11\29 :إعلان الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين

1947\12\17: العرب يعلنون رفض قرار التقسيم

1948\3\1: منظمة أرغون الارهابية تنسف نادي البريطانيين في القدس

1948\4\9 : مذبحة دير ياسين (مقتل 254 عربياً)

1948\5\14 :بن غوريون يعلن (قيام دولة اسرائيل)

1948\5\15: دخول الجيوش العربية إلى فلسطين (الحرب العربية الإسرائيلية الأولى)

1948\5\22 :مجلس الأمن يصدر قراراً بوقف إطلاق النار

11\6\1948: الهدنة الأولى

9\7\1948: استئناف القتال

19\7\1948: الهدنة الثانية

17\9\1948 :عصابة شتيرن الصهيونية تغتال الكونت برنادوت ومساعده

19\12\1948 :وقف القتال

1-7\1949: مفاوضات رودس وتوقيع أربع اتفاقيات عربية اسرائيلية

11\5\1949 :اسرائيل عضو في الأمم المتحدة

25\3\1950 : الدول الغربية تصدر (البيان الثلاثي) حول الحدود الآمنة وتوريد السلاح

1\4\1950 :قرار الجامعة العربية بمنع اعضائه من المفاوضات المنفصلة

3\4\1950: معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين الدول العربية

24\4\1950:وحدة الضفتين وأزمة العلاقات العربية ـ الأردنية.

1\5\1950: اضطرابات في السودان

7\2\1951:القوات الاسرائيلية تهاجم قرية شرفات في ضواحي القدس وتدمر جميع بيوت القرية على أهلها

1951:انسحاب القوات البريطانية من السودان

1951:امتداد مبدأ ترومان ليشمل اليونان وتركيا وشرق المتوسط

1951: تأسيس (قيادة الدفاع عن الشرق الأوسط)

23\7\1952: الضباط الأحرار يستولون على السلطة في مصر

12\10\1953: غارة اسرائيلية على قرية قبية (مقتل 53 عربياً)

28\3\1954: معركة نحالين

1\11\1954: أعلنت طلائع الشعب العربي الجزائري ممثلة بجبهة التحرير الوطني قيام الثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي

1954: بدايات المشروع النووي الاسرائيلي بالتعاون مع فرنسا

1954: اعتداء اسرائيلي على قرية السموع في الضفة الغربية

1955: غارة اسرائيلية على الحدود السورية

1955: غارة اسرائيلية على المقر المصري في غزة

23\5\1955:وقعت العراق وتركيا الاتفاقية المعروفة بـ (حلف بغداد)

27\9\1955:عقدت مصر صفقة الأسلحة الشهيرة مع جيكوسلوفاكيا

20\10\1955: اتفاقية دفاع مشترك مصرية ـ سورية

1955\10\27: اتفاقية دفاع مشترك مصرية ـ سعودية

1956\6\1: إعلان استقلال السودان

1956\4\5: اعتراف اسبانيا باستقلال الريف المراكشي

1956\7\26: إعلان تأميم قناة السويس

1956\4\1:اتفاقية دفاع مشترك أردنية ـ مصرية

6-24 إلى 11-10\1956: اسرائيل تهاجم المخافر الحدودية الأردنية

1956\10\10: اسرائيل تهاجم قلقيلية في الضفة الغربية

1956\10\30:الانزال الاسرائيلي والتدخل في سيناء (الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثانية)

1956\10\31:بدء العدوان الانكلو- فرنسي على مصر

1956\6\1:السوريون ينفذون الطلب المصري بتدمير خطوط نفط (ipc)

1956\6\4:القصف الجوي لبور سعيد

1956\11\5: الانزال الانكلو- فرنسي في بور سعيد

1956\11\6:قدم الاتحاد السوفييتي انذاره الشهير بضرب عاصمتي فرنسا وبريطانيا إذا لم ينهيا اعتداءاتهما على مصر فوراً

1956\3\1: تعريب قيادة الجيش العربي الأردني

1956\3\20: استقلال تونس

1956\8\12: قرار الجامعة العربية بتأييد تأميم القناة

ت1\1956: قرار الجامعة العربية برفض الضغوط الفرنسية على مصر

1956\12\22: انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من مصر

1957\1\19: توقيع اتفاقية التضامن العربي بين كل من مصر والأردن والسعودية وسوريا

1957\3\6: انسحاب آخر جندي اسرائيلي من غزة وعودتها للسيادة المصرية

1957\3\31: إلغاء المعاهدة الأردنية ـ البريطانية

1957: تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير الأحواز

ت1\1957: المعاهدة الاقتصادية السورية ـ السوفيتية

ت2\1957: جلاء القوات الاسرائيلية عن سيناء

ك2\1957: إعلان مبدأ ايزنهاور

ت2\1957: الحكومة الإيرانية تدخل البحرين ضمن ولاياتها الإدارية

1957\12\23: صدر بيان بريطاني أردني تضمن الاتفاق على إنهاء معاهدة 1948 وجلاء القوات البريطانية عن الأردن.

29\1\1958: وافق مجلسا الأمة في كل من مصر وسوريا على إعلان الوحدة الاندماجية

14\2\1958: أعلن في عمان عن قيام اتحاد عربي بين الأردن والعراق

22\2\1958: أعلنت مصر وسوريا الوحدة الكاملة باسم الجمهورية العربية المتحدة

14\7\1958: قيام الثورة العراقية ضد الملكية

19\12\1958: مصر تعلن البدء بتنفيذ مشروع السد العالي

28\9\1961: السلطة الجديدة في سوريا تعلن الانفصال عن الوحدة

19\6\1961: اتفاقية استقلال الكويت

1961: العراق يرفض الاعتراف بالكويت

3\7\1962: انتصار الثورة الجزائرية وإعلان الاستقلال

1963: النزاع الجزائري - المغربي

1963: بداية أعمال العنف المسلح في جنوب السودان

26\9\1962: الثورة اليمنية إلغاء حكم الإمامية

1963: تدخل مصري - سعودي عسكري في الصراع اليمني

1963: ولادة المعارضة العمانية في ظفار

12-16\1\1964: القمة العربية الأولى رداً على محاولات تحويل مياه نهر الأردن

17\1\1964: إنشاء قيادة عسكرية عربية موحدة

28\5\1964: المؤتمر الفلسطيني الأول

2\8\1964: إنشاء السوق العربية المشتركة بقرار من مجلس الوحدة الاقتصادية العربية

5\9\1964: مؤتمر قمة الاسكندرية

6\9\1964: إعلان قيام منظمة التحرير الفلسطينية

12-7\9\1965: قمة الدار البيضاء

1\1\1965: انطلاقة الثورة الفلسطينية

1\1\1965: قوات العاصفة تعلن عن أول عملية لها داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة

22\7\1965: عقد اجتماع مصري - سعودي لإنهاء القتال في اليمن

1967: أزمة تحديد مناطق التنقيبات النفطية بين الكويت والعراق

22\5\1967: عبد الناصر يعلن إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية

30\5\1967: اتفاقية دفاع مشترك بين مصر والأردن

4\6\1967: انضمام العراق للاتفاقية

5\6\1967: تصاعد التهديدات الاسرائيلية لسوريا

1967\6\5: ضربة ميدانية اسرائيلية للمطارات المصرية والسورية لكل طائراتهما على الأرض
ـ المدفعية الأردنية ترد على الهجوم الاسرائيلي على مصر بقصف المطارات الاسرائيلية
ـ الطائرات الأردنية والعراقية تهاجم قاعدة نتانيا ثلاث مرات
ـ اسرائيل تهاجم قاعدتي المفرق وعمان
ـ اشتباك ضخم على طول الجبهة الأردنية
ـ الطائرات السورية تهاجم مصافي البترول في حيفا
1967\6\6: ـ اسرائيل تهاجم العريش وتسيطر على خطوط رفح ـ العريش
ـ اسرائيل تستولي على خان يونس ورفح وأبو عجيلة
ـ هجوم اسرائيلي على القدس القديمة ومقاومة عربية باسلة
ـ سقوط القدس والبدء باختراق الضفة الغربية
ـ عبد الناصر يبرق للقيادة الأردنية بالموافقة على إخلاء الضفة
1967\6\7: ـ سقوط نابلس وطولكرم والخليل ومعركة في جنين
ـ اسرائيل تستولي على شرم الشيخ
1967\6\8: هجوم مصري مضاد
1967\6\9: اسرائيل تسيطر على القنيطرة
1967\6\10: اسرائيل تكمل سيطرتها على مرتفعات الجولان
1967\8\29: انعقاد مؤتمر قمة الخرطوم
1967: تأسيس الجبهة العربية لتحرير عربستان
1966: تأسيس (طلائع حرب التحرير الشعبية)
1967: تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
1967\11\22: قرار مجلس الأمن رقم(242)
1968\1\4: عقد اتفاق بين إيران والكويت لتحديد الجرف القاري بينهما
1968\2\28: اسرائيل تدمر الاسطول الجوي اللبناني
1968\3\31: الجيش الأردني والمنظمات الفدائية يصدان هجوماً اسرائيلياً (معركة الكرامة)
1968: تأسيس (الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة)
1968: تأسيس (حركة الثورة العربية لتحرير عربستان)
1969\8\21: ارتكب الصهاينة جريمة إحراق المسجد الأقصى
1969: تأسيس (جبهة التحرير العربية)
1969: تأسيس (الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين)

1969\1\6: حرب أهلية في اليمن
1969\9\1: زوال الملكية في ليبيا(ثورة الفاتح)
1969\12\27: ميثاق طرابلس الوحدوي (مصر +السودان + ليبيا)
1969\3\8ـ1970\8\7: حرب الاستنزاف
1970\3\27: إجلاء القوات البريطانية عن ليبيا
1970\4\8: هجوم طائرات اسرائيلية على مدرسة البقر وقتل (30) طفلاً
1970\6\4: قرار بإنشاء قيادة عسكرية واحدة للثورة الفلسطينية
أيار\1970: قرار مجلس الأمن بوقف الاعتداءات الإيرانية على البحرين
1970\6\25: مبادرة روجرز
1970\9\6: الجبهة الشعبية تحول ثلاث طائرات إلى مطار المفرق شمال الأردن
1970\9\10: الجبهة الشعبية تقوم بتفجير الطائرات الثلاث
1970\9\16: بدء المواجهات الأردنية ـ الفلسطينية
1970\9\27: اجتماع القاهرة ووقف إطلاق النار
1970\8\14: إعلان استقلال البحرين
1971\7\13: المجلس الوطني الفلسطيني يؤكد وحدة الجماهير الفلسطينية ـ الأردنية
1971\11\20: إيران تحتل الجزر العربية الثلاث في الخليج : (طنب الصغرى وطنب الكبرى وجزيرة أبو موسى)
1972\2\27: توقيع اتفاق مع متمردي جنوب السودان
1972\3\25: الملك حسين يعلن (مشروع المملكة العربية المتحدة)
1972\5\10: المجلس الوطني الفلسطيني يرفض مشروع المملكة المتحدة
1972ـ1973: معارك بين المقاومة الفلسطينية والجيش اللبناني
1973\4\17: اتفاق ملكاوت بين المنظمة الفلسطينية والحكومة اللبنانية
1973\3: عودة المناوشات الحدودية بين الكويت والعراق
1972\8\2: قرار مصري ـ ليبي بالوحدة الاندماجية
1973\10\6: هجوم مصري ـ سوري بمحورين على (اسرائيل)
1973\10\22: قرار مجلس الأمن رقم 338
1974\1\17: اتفاقية فصل القوات على الجبهة المصرية
1974\5\29: اتفاقية فصل القوات على الجبهة السورية
1974\11\12: قرار الجمعية العامة رقم 3236 حق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره

1974: قمة الرباط تقر بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً وحيداً وشرعياً للشعب الفلسطيني

13\4\1975: حادث قتل في حي مسيحي في بيروت يؤدي إلى اندلاع الحرب الأهلية

1974: إعلان الحكم الذاتي في كردستان العراق

10\11\1975: صدر قرار الأمم المتحدة والجمعية العامة رقم (3379) الذي ساوى بين الصهيونية والعنصرية

1976: هدنة عسكرية في لبنان

28\2\1976: انتهاء الاحتلال الاسباني للصحراء المغربية

ك2\1976:صدامات في عدن

أيار\1976: الرئيس فرنجية يوافق على دخول الجيش السوري إلى لبنان

1976: عشرون ألف جندي سوري في لبنان

1976: مواجهات بين الجيش السوري وفلسطينيي مخيمات لبنان

تشرين1\1976: تشكيل قوات الردع العربية في لبنان

تشرين2\1976: قوات الردع تدخل بيروت

6\9\1977: السادات في القدس

17\9\1978: اتفاقية كامب ديفيد

1978: إعلان ميثاق العمل الوحدوي بين سوريا والعراق

ك2\1977:مظاهرات واضطرابات تعم تونس

ت2\1978: تجميد عضوية مصر في الجامعة العربية

26\3\1979: الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية

شباط\1979: تجدد الحرب بين شطري اليمن

26\9\1979: هجوم سوري شامل على بيروت الشرقية

ت2\1979: هجوم على الحرم المكي في السعودية

31\7\1980: أصدر الكنيست الاسرائيلي قانوناً يجعل القدس عاصمة لاسرائيل

4\9\1980: فتحت إيران النار على المخافر والأراضي والمدن العراقية

22\9\1980: بدأت الحرب العراقية ـ الإيرانية بعد أن فتحت إيران النار على طول شط العرب لعرقلة الملاحة

6\6\1981: هجوم اسرائيلي على مفاعل تموز العراقي

1980: قرر السوريون إخراج قواتهم من بيروت

1981: انتفاضة في مناطق الحسا بالسعودية

1\9\1980: معاهدة وحدة بين ليبيا وسوريا

22\9\1980: هجوم عراقي على عبادان

4\2\1981: وقعت في الرياض وثيقة إعلان مجلس التعاون لدول الخليج العربي

أيار\1982: القوات الإيرانية تستعيد السيطرة على المحمرة

حزيران\1982: صدام حسين يقترح وقف إطلاق النار

31\7\1982: سقوط بيروت بيد الجيش الاسرائيلي (اجتياح بيروت)

21\8\1982: بدأت منظمة التحرير الفلسطينية إخلاء بيروت

31\8\1982: مغادرة المقاتلين الفلسطينيين بيروت بعد صمودهم 80 يوماً في مواجهة العدو الصهيوني

16\9\1982: مجزرة صبرا وشاتيلا

24\9\1982: إعادة توحيد بيروت بالقوة

1982: هدنة عسكرية في لبنان

9\9\1982: قمة فاس

18\10\1983: عملية تفجير مقر المارينز الأمريكي في مطار بيروت قتل فيها (241) جندياً مما أدى إلى سحب القوات الامريكية من بيروت

تموز\1984: حركة أمل تهاجم بالدبابات مخيمات صبرا وشاتيلا برج البراجنة

1984: تفوق إيراني واضح في الحرب مع العراق بعد قطع محور البصرة ـ بغداد

10\8\1984: قرار لمجلس الأمن بوقف قصف الأهداف المدنية في العراق وإيران

12\8\1984: إعلان وحده الوحدوي

1\10\1985: هجوم الطائرات الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس

1985:عودة التفوق العسكري العراقي

1985: الهجوم على الباخرة اكيلي لاورو Achile Lauro

1986: بداية التدخل الإيراني في المسألة اللبنانية بدعم (حزب الله)

1986: حرب أهلية جنوب اليمن

16\4\1986: طائرات امريكية تقصف المدن الليبية

نيسان\1986: احتدام النزاع القطري ـ البحريني حول جزيرة (حوار) والمياه الإقليمية

1987: قمة عمان تجيز لأعضاء الجامعة إعادة العلاقات مع مصر

8\12\1987: انطلاق الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة

30\6\1988: وصل عدد شهداء الانتفاضة 220 شهيداً

1988\8\31: قرار بفك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية
ت1988\2: المجلس التنفيذي ثم المجلس الوطني الفلسطيني يعترفان بالقرار رقم242
1988\6\13: قمة الجزائر
1989\12\16: مجلس التعاون العربي (العراق+ الأردن + مصر+ اليمن)
1989\2\17: اتحاد المغرب العربي
1989: اضطرابات شعبية في المغرب
1989\4\19: اضطرابات وأحداث في جنوب الأردن
1989\10\24: اتفاق الطائف حول لبنان
1989-1990\10\13: معارك واقتتال داخلي بين الفصائل المسيحية نفسها والفصائل الشعبية نفسها رداً على اتفاق الطائف
1991\6\22: (معاهدة الأخوة) بين سوريا ولبنان
1990\8\2: التدخل العراقي في الكويت
1990\8\3: الولايات المتحدة ترسل قوات البحرية إلى الخليج
1990\8\6: مجلس الأمن يصدر القرار رقم661
1990\8\8: قمة القاهرة وانقسام عربي حول أزمة الكويت
1990\8\9: مجلس الأمن يصوت ضد ضم العراق للكويت
1990\10\8: مجزرة الحرم الشريف، قتل فيها (20)فلسطينياً وأكثر من 15 جريحاً
1991\1\15: اغتيال القائد الفلسطيني صلاح خلف ورفيقيه.
1991\1\16: هجوم صاروخي امريكي شامل على بغداد مدعوم من 30 دولة
1991\1\17: أكبر هجوم جوي في التاريخ تشنه الولايات المتحدة وحلفاؤها على العراق بدأ بغارات صاروخية قبل غارات الطيران، التي بلغت في اليوم الأول 1300طلعة جوية قذفت ما مجموعة 18 ألف طن من القذائف والقنابل.
1991\1\18: العراق يوجه ضربة صاروخية لاسرائيل، حيث سقطت ثمانية صواريخ ثلاثة في تل أبيب واثنان في حيفا وثلاثة أخرى متفرقة، وهي أول مرة في تاريخ اسرائيل تضرب مدنها في العمق.
1991\1\22: اسرائيل تطالب الولايات المتحدة مبلغ 13 مليار دولار مساعدة إضافية بسبب حرب الخليج ولتوطين المهاجرين الجدد
1991\1\25: الكويت تدفع للولايات المتحدة 13 مليار دولار
1991\2\13: قرار مجلس الأمن حول تدمير وإزالة الأسلحة الاستراتيجية العراقية

1991\2\24: الهجوم البري لقوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة على القوات العراقية

1991\2\26: صدام حسين يعلن انسحاب قواته من الكويت

1991\3\6: إعلان دمشق (6+2) لتنسيق السياسات الأمنية والاقتصادية

1991\5\19: مبادرة جورج حبش للحد من التسلح في الشرق الأوسط

1991\6\3: المبادرة الفرنسية للحد من التسلح ونزع السلاح في الشرق الأوسط

1991\7\9: بيان الأعضاء الخمسة الدائمين حول نقل وعدم انتشار الأسلحة

1991\4\11: عودة الجامعة العربية إلى القاهرة

1991\7\16: إعلان الأقطار الصناعية السبعة حول الحد من التسلح

1992: قرار مجلس الأمن بفرض العقوبات والحظر الجوي وتوريد السلاح إلى ليبيا

1992:حظر نشاط الجبهة الاسلامية للإنقاذ في الجزائر

تشرين\1992: مؤتمر مدريد

1994\3\18: مجزرة الحرم الابراهيمي الشريف

1993\9\13: اتفاق إعلان المبادئ بين م. ت. ف. و(اسرائيل)

1993\9\14: اتفاق إعلان المبادئ بين الأردن واسرائيل

1993\9\26: هجوم الولايات المتحدة الامريكية على مقر المخابرات العراقية

1994\10\26: توقيع اتفاقية وادي عربة (السلام الأردنية ـ الاسرائيلية)..

....

....

....

....

سيرة المؤلف

محمد الجزائري

- ولد في 30حزيران 1939 (البصرة ـ محلة الخندق)

- عمل في الصحافة الوطنية منذ مطلع الخمسينيات ، وتولى مسؤوليات التحرير لـ:

- مجلة " الرواق": (المتخصصة في الفن التشكيلي)

- الجمهورية الاسبوعي: (مطبوع ثقافي أسبوعي مستقل) يصدر عن دار الجماهير للصحافة ـ بغداد

- الأديب المعاصر: (المجلة الأدبية لاتحاد الأدباء في العراق)

- رئيس تحرير مجلة "فنون" (الأسبوعية ـ الفنية ـ الثقافية) حتى غلقها في 1\6\1987

- أصدر العديد من الملاحق المستقلة عن مبدعين كبار : المتنبي / الجواهري/ فائق حسن/ عطا صبري/ فيروز/...

- تولى مسؤولية صحف ودوريات خاصة بتظاهرات ثقافية وفنية:

أ ـ المربد: لمهرجان الشعر العربي (لثلاث دورات)

ب ـ التشكيلي العربي: لمؤتمر اتحاد التشكيليين العرب الأول.

ج ـ الضوء : لمؤتمر اتحاد المسرحيين العرب الأول

د ـ الطليعة: لمؤتمر اتحاد الصحفيين الثالث.

- نشر بحوثه ودراساته النقدية في الصحف والمجلات العراقية والعربية المتخصصة: كالمعارف البيروتية/ والآداب/ والطريق/ وعلوم/ والشرارة/ والبيان/ والجديد/ والأوديسية/ والثقافة المعاصرة/ وأفكار/ والأقلام/والثقافة الجديدة/ وآفاق عربية/ وأور / والغد..

- عضو مؤسس لاتحاد الأدباء والكتاب في العراق، ورابطة النقاد، ونادي السينما، وتولى مهام قيادية لسنوات

- عضو المكتب الدائم وسكرتير الأمانـة العامة للاتحـاد العـام للأدبـاء والكتـاب العـرب لأكثر من عشر سنوات.

- عضو عامل في نقابة الصحفيين العراقيين منذ تأسيسها عام 1959 ولحد الآن.

- عضو في أكثر من منظمة عربية ودولية: كاتحاد الصحفيين العرب، ومنظمة الصحفيـين العالمية ، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد كتاب أفروآسيا، ورابطة النقاد الدولية.

- شارك باحثاً وناقداً أو عضواً في لجان التحكيم لعديد المهرجانات الأدبية والفنية، وزار أكثر من عشرين بلداً في آسيا وافريقيا وأوربا والوطن العربي.

أصدر (16) كتاباً مطبوعاً من بينها:

1- حين تقاوم الكلمة

2- ويكون التجاوز

3- الفن والقضية

4- أسئلة الرواية

5- البيت

6- مقامات الحريري

7- الكتابة على أديم الفرات

8- خطاب الإبداع

9- خطاب العاشق

10- القاتل والضحية

11- من الواقعية إلى الفنطازيا

12- في التكوين (مشترك) مع النقاد العـرب: طـه حسـين/ محمـد منـدور/ عبـد العظيـم أنيس/ محمود أمين العالم/ غالي شكري/ غسان كنفاني/ نبيل سليمان/ (صدر عن دار التقدم - موسكو- باللغة الروسية1994)

- أنجز للسينما والتلفزيون والمسرح أكثر من ثلاثين عملاً ونال جوائز عدة:

- الجائزة الأولى لأفضل سيناريو وثائقي قصير (1986)

- الجائزة الأولى لأفضل سيناريو روائي طويل (1993)

ـجائزة الدولة على فيلمه (صورة زمن) الذي شارك بالمنافسة على جوائز مهرجان كارلو فيفاري للأفلام الوثائقية عام 1993

ـ من أفلامه: اشارة المعجزة، وعد الماء، أول الضحايا لماذا؟، من أجل هؤلاء، اغتيال الحياة، العمق الأخضر، وسواها.. وأغلبها عن معاناة الشعب العراقي في ظل الحصار، وبخاصة الأطفال والنساء والشيوخ.

له تحت الطبع:

ـ النقدية (آلة الكلام).

ـ حالات عشتار.

ـ وعي الضّد: كتابة مغايرة ضد الرماد البارد (الشعر العراقي الآن).

الكاتب وأعماله

- **محمد الجزائري**: ولد في البصرة /الخندق/ 30 - 6 - 1939
- ناقد عمل في الصحافة منذ مطلع الخمسينات حتى غلق مجلة "فنون" التي ترأس تحريرها في 1987/6/1 ومنذ ذلك الوقت، هو متفرغ للكلمة.
- من مؤسسي اتحاد الأدباء في العراق، ورابطة نقاد الأدب، ورابطة نقاد الفن التشكيلي، ونادي السينما..

من مؤلفاته:

1 - حين تقاوم الكلمة: (دراسات أدبية/ نقد) 1971
2 - ويكون التجاوز: (دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث) 1974 .
3 - الكتابة على أديم الفرات: (نص ابداعي ومشاهدات ليست سياحية عن النهر والناس والحياة) 1975
4 - الفن والقضية: (دراسة نقدية تشكيلية) 1977
5 - عطا صبري: (الكتاب الأول في سلسلة (فنانون عراقيون) - دراسة تشكيلية 1978
6 - البيت: (نصوص مشهدية ابداعية عن البصرة والحرب) 1988
7 - أسئلة الرواية: (جدل الرؤية والتسجيل في الرواية العربية المعاصرة) دراسة نقدية ومقاربات 1989
8 - مقامات الحريري: (دراسة وكتابة ثانية للمقامات) 1990
9 - خطاب الابداع: (الجوهر - المتحرك - الجمالي) /دراسة حضارية نقدية/ 1993
10 - الجوّاب يتذكر: (الكتاب الثاني في سلسلة (فنانون عراقيون) عن الرائد المسرحي توماس حبيب)/ 1995

11 – خطاب العاشق: (ميثولوجيا ورؤى – من سيدة الحب الأولى عشتار إلى المتنبي عاشقاً)/ 1996

12 – من الواقعية إلى الفنتازيا: (الكتاب الثالث في سلسلة (فنانون عراقيون) عن الفنانة التشكيلية وداد الأورفلي، وحركة الفن التشكيلي في العراق خلال نصف قرن) 1997

13– في التكوين: (مشترك) مع النقاد: طه حسين/ محمد مندور/ عبد العظيم أنيس/ محمود أمين العالم/غالي شكري/ غسان كنفاني/ نبيل سليمان) (صدر باللغة الروسية/ عن دار التقدم/موسكو/ 1984

14 – القاتل والضحية (ميثولوجيا وشعر) دار الوراق، 1998.

15 – آلة الكلام (النقدية):دراسة نقدية في بنائية النص الشعري /(تحت الطبع)

16 – حالات عشتار: (الكتاب الرابع في سلسلة (فنانون عراقيون)/ دراسة تشكيلية عن الفنانة العراقية في المهجر: بتول الفكيكي/ (تحت الطبع)

أنجز للسينما والتلفزة والمسرح (سيناريوهات ونصوصاً) منها:

(والشجرة حياة)/ (فلسطين نعم) /(إشارة المعجزة)/ (وعد الماء)/ (الصوت الثالث)/ (مدينة الخزف)/ (ملحمة الحرية) / (الكنز الأخضر) / (الثمرة) / (خنساء العصور) / (الأنامل الخضر) / (صورة زمن) / (اغتيال الحياة) / (أول الضحايا لماذا؟)/ (البيت)/ (شعلة البناة) / (من أجل هؤلاء) / (فن النور)/ (ذات المناديل الأربعة)/ (روح الخالق)/ (أيام الطمأنينة)/ (العمق الأخضر) / (وجوه..) / (المندائيون)/

ترجمت إلى الانكليزية ونال بعضها شهادات وجوائز – وكلها وثائقية –

1980\9\1: معاهدة وحدة بين ليبيا وسوريا

1980\9\22: هجوم عراقي على عبادان

1981\2\4: وقعت في الرياض وثيقة إعلان مجلس التعاون لدول الخليج العربي

أيار\1982: القوات الإيرانية تستعيد السيطرة على المحمرة

حزيران\1982: صدام حسين يقترح وقف إطلاق النار

1982\7\31: سقوط بيروت بيد الجيش الاسرائيلي (احتياح بيروت)

1982\8\21: بدأت منظمة التحرير الفلسطينية إخلاء بيروت

1982\8\31: مغادرة المقاتلين الفلسطينيين بيروت بعد صمودهم 80 يوماً في مواجهة العدو الصهيوني

1982\9\16: مجزرة صبرا وشاتيلا

1982\9\24: إعادة توحيد بيروت بالقوة

1982: هدنة عسكرية في لبنان

1982\9\9: قمة فاس

1983\10\18: عملية تفجير مقر المارينز الأمريكي في مطار بيروت قتل فيها (241) جندياً مما أدى إلى سحب القوات الامريكية من بيروت

تموز\1984: حركة أمل تهاجم بالدبابات مخيمات صبرا وشاتيلا برج البراجنة

1984: تفوق إيراني واضح في الحرب مع العراق بعد قطع محور البصرة ـ بغداد

1984\8\10: قرار لمجلس الأمن بوقف قصف الأهداف المدنية في العراق وإيران

1984\8\12: إعلان وحده الوحدوي

1985\10\1: هجوم الطائرات الاسرائيلية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس

1985:عودة التفوق العسكري العراقي

1985: الهجوم على الباخرة اكيلي لاوروAchile Lauro

1986: بداية التدخل الإيراني في المسألة اللبنانية بدعم (حزب الله)

1986: حرب أهلية جنوب اليمن

1986\4\16: طائرات امريكية تقصف المدن الليبية

نيسان\1986: احتدام النزاع القطري ـ البحريني حول جزيرة (حوار) والمياه الإقليمية

1987: قمة عمان تجيز لأعضاء الجامعة إعادة العلاقات مع مصر

1987\12\8: انطلاق الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة

1988\6\30: وصل عدد شهداء الانتفاضة 220 شهيداً

1988\8\31: قرار بفك الارتباط بين الأردن والضفة الغربية

ت1988\2: المجلس التنفيذي ثم المجلس الوطني الفلسطيني يعترفان بالقرار رقم242

1988\6\13: قمة الجزائر

1989\12\16: مجلس التعاون العربي (العراق+ الأردن + مصر+ اليمن)

1989\2\17: اتحاد المغرب العربي

1989: اضطرابات شعبية في المغرب

1989\4\19: اضطرابات وأحداث في جنوب الأردن

1989\10\24: اتفاق الطائف حول لبنان

1989ـ1990\10\13: معارك واقتتال داخلي بين الفصائل المسيحية نفسها والفصائل الشعبية نفسها رداً على اتفاق الطائف

1991\6\22: (معاهدة الأخوة) بين سوريا ولبنان

1990\8\2: التدخل العراقي في الكويت

1990\8\3: الولايات المتحدة ترسل قوات البحرية إلى الخليج

1990\8\6: مجلس الأمن يصدر القرار رقم661

1990\8\8: قمة القاهرة وانقسام عربي حول أزمة الكويت

1990\8\9: مجلس الأمن يصوت ضد ضم العراق للكويت

1990\10\8: مجزرة الحرم الشريف، قتل فيها (20)فلسطينياً وأكثر من 15 جريحاً

1991\1\15: اغتيال القائد الفلسطيني صلاح خلف ورفيقيه.

1991\1\16: هجوم صاروخي امريكي شامل على بغداد مدعوم من 30 دولة

1991\1\17: أكبر هجوم جوي في التاريخ تشنه الولايات المتحدة وحلفاؤها على العراق بدأ بغارات صاروخية قبل غارات الطيران، التي بلغت في اليوم الأول 1300طلعة جوية قذفت ما مجموعة 18 ألف طن من القذائف والقنابل.

1991\1\18: العراق يوجه ضربة صاروخية لاسرائيل، حيث سقطت ثمانية صواريخ ثلاثة في تل أبيب واثنان في حيفا وثلاثة أخرى متفرقة، وهي أول مرة في تاريخ اسرائيل تضرب مدنها في العمق.

1991\1\22: اسرائيل تطالب الولايات المتحدة مبلغ 13 مليار دولار مساعدة إضافية بسبب حرب الخليج ولتوطين المهاجرين الجدد

1991\1\25: الكويت تدفع للولايات المتحدة 13 مليار دولار

1991\2\13: قرار مجلس الأمن حول تدمير وإزالة الأسلحة الاستراتيجية العراقية

1991\2\24: الهجوم البري لقوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة على القوات العراقية

1991\2\26: صدام حسين يعلن انسحاب قواته من الكويت

1991\3\6: إعلان دمشق (6+2) لتنسيق السياسات الأمنية والاقتصادية

1991\5\19: مبادرة جورج حبش للحد من التسلح في الشرق الأوسط

1991\6\3: المبادرة الفرنسية للحد من التسلح ونزع السلاح في الشرق الأوسط

1991\7\9: بيان الأعضاء الخمسة الدائمين حول نقل وعدم انتشار الأسلحة

1991\4\11: عودة الجامعة العربية إلى القاهرة

1991\7\16: إعلان الأقطار الصناعية السبعة حول الحد من التسلح

1992: قرار مجلس الأمن بفرض العقوبات والحظر الجوي وتوريد السلاح إلى ليبيا

1992:حظر نشاط الجبهة الاسلامية للإنقاذ في الجزائر

تشرين\1992: مؤتمر مدريد

1994\3\18: مجزرة الحرم الابراهيمي الشريف

1993\9\13: اتفاق إعلان المبادئ بين م. ت. ف. و(اسرائيل)

1993\9\14: اتفاق إعلان المبادئ بين الأردن واسرائيل

1993\9\26: هجوم الولايات المتحدة الامريكية على مقر المخابرات العراقية

1994\10\26: توقيع اتفاقية وادي عربة (السلام الأردنية ـ الاسرائيلية)..

....

....

....

....

سيرة المؤلف

محمد الجزائري

- ولد في 30حزيران 1939 (البصرة ـ محلة الخندق)
- عمل في الصحافة الوطنية منذ مطلع الخمسينيات ، وتولى مسؤوليات التحرير لـ:
- مجلة " الرواق": (المتخصصة في الفن التشكيلي)
- الجمهورية الاسبوعي: (مطبوع ثقافي أسبوعي مستقل) يصدر عن دار الجماهير للصحافة ـ بغداد
- الأديب المعاصر: (المجلة الأدبية لاتحاد الأدباء في العراق)
- رئيس تحرير مجلة "فنون" (الأسبوعية ـ الفنية ـ الثقافية) حتى غلقها في 1\6\1987
- أصدر العديد من الملاحق المستقلة عن مبدعين كبار : المتنبي / الجواهري/ فائق حسن/ عطا صبري/ فيروز/...
- تولى مسؤولية صحف ودوريات خاصة بتظاهرات ثقافية وفنية:

أ ـ المربد: لمهرجان الشعر العربي (لثلاث دورات)

ب ـ التشكيلي العربي: لمؤتمر اتحاد التشكيليين العرب الأول.

ج ـ الضوء : لمؤتمر اتحاد المسرحيين العرب الأول

د ـ الطليعة: لمؤتمر اتحاد الصحفيين الثالث.

- نشر بحوثه ودراساته النقدية في الصحف والمجلات العراقية والعربية المتخصصة: كالمعارف البيروتية/ والآداب/ والطريق/ وعلوم/ والشرارة/ والبيان/ والجديد/ والأوديسية/ والثقافة المعاصرة/ وأفكار/ والأقلام/والثقافة الجديدة/ وآفاق عربية/ وأور / والغد..

ـ عضو مؤسس لاتحاد الأدباء والكتاب في العراق، ورابطة النقاد، ونادي السينما، وتولى مهام قيادية لسنوات

ـ عضو المكتب الدائم وسكرتير الأمانـة العامـة للاتحـاد العـام للأدبـاء والكتـاب العـرب لأكثر من عشر سنوات.

ـ عضو عامل في نقابة الصحفيين العراقيين منذ تأسيسها عام 1959 ولحد الآن.

ـ عضو في أكثر من منظمة عربية ودولية: كاتحاد الصحفيين العرب، ومنظمة الصحفيين العالمية ، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد كتاب أفروآسيا، ورابطة النقاد الدولية.

ـ شارك باحثاً وناقداً أو عضواً في لجان التحكيم لعديد المهرجانات الأدبية والفنية، وزار أكثر من عشرين بلداً في آسيا وافريقيا وأوربا والوطن العربي.

أصدر (16) كتاباً مطبوعاً من بينها:

1ـ حين تقاوم الكلمة

2ـ ويكون التجاوز

3ـالفن والقضية

4ـ أسئلة الرواية

5ـ البيت

6ـ مقامات الحريري

7ـ الكتابة على أديم الفرات

8ـ خطاب الإبداع

9ـ خطاب العاشق

10ـ القاتل والضحية

11ـ من الواقعية إلى الفنطازيا

12ـ في التكوين (مشترك) مع النقاد العـرب: طـه حسـين/ محمـد منـدور/ عبـد العظيـم أنيس/ محمود أمين العالم/ غالي شكري/ غسان كنفاني/ نبيل سليمان/ (صدر عن دار التقدم ـ موسكوـ باللغة الروسية1994)

ـ أنجز للسينما والتلفزيون والمسرح أكثر من ثلاثين عملاً ونال جوائز عدة:

ـ الجائزة الأولى لأفضل سيناريو وثائقي قصير (1986)

ـ الجائزة الأولى لأفضل سيناريو روائي طويل (1993)

ـجائزة الدولة على فيلمه (صـورة زمـن) الـذي شـارك بالمنافسـة علـى جوائـز مهرجـان كارلو فيفاري للأفلام الوثائقية عام 1993

- من أفلامه: اشارة المعجزة، وعد الماء، أول الضحايا لمـاذا؟، مـن أجـل هـؤلاء، اغتيـال الحياة، العمق الأخضر، وسواها.. وأغلبها عن معاناة الشعب العراقي في ظل الحصار، وبخاصـة الأطفال والنساء والشيوخ.

له تحت الطبع:

- النقدية (آلة الكلام).
- حالات عشتار.
- وعي الضّد: كتابة مغايرة ضد الرماد البارد (الشعر العراقي الآن).

الكاتب وأعماله

- **محمد الجزائري**: ولد في البصرة /الخندق/ 30 - 6 - 1939
- ناقد عمل في الصحافة منذ مطلع الخمسينات حتى غلق مجلة "فنون" التي ترأس تحريرها في 1987/6/1 ومنذ ذلك الوقت، هو متفرغ للكلمة.
- من مؤسسي اتحاد الأدباء في العراق، ورابطة نقاد الأدب، ورابطة نقاد الفن التشكيلي، ونادي السينما..

من مؤلفاته:

1 - حين تقاوم الكلمة: (دراسات أدبية/ نقد) 1971

2 - ويكون التجاوز: (دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث) 1974 .

3 - الكتابة على أديم الفرات: (نص ابداعي ومشاهدات ليست سياحية عن النهر والناس والحياة) 1975

4 - الفن والقضية: (دراسة نقدية تشكيلية) 1977

5 - عطا صبري: (الكتاب الأول في سلسلة (فنانون عراقيون) - دراسة تشكيلية 1978

6 - البيت: (نصوص مشهدية ابداعية عن البصرة والحرب) 1988

7 - أسئلة الرواية: (جدل الرؤية والتسجيل في الرواية العربية المعاصرة) دراسة نقدية ومقاربات 1989

8 - مقامات الحريري: (دراسة وكتابة ثانية للمقامات) 1990

9 - خطاب الابداع: (الجوهر - المتحرك - الجمالي) /دراسة حضارية نقدية/ 1993

10 - الجوّاب يتذكر: (الكتاب الثاني في سلسلة (فنانون عراقيون) عن الرائد المسرحي توماس حبيب)/ 1995

11 – خطاب العاشق: (ميثولوجيا ورؤى – من سيدة الحب الأولى عشتار إلى المتنبي عاشقاً)/ 1996

12 – من الواقعية إلى الفنتازيـا: (الكتـاب الثـالث في سلسـلة (فنـانون عراقيـون) عـن الفنانـة التشكيلية وداد الأورفلي، وحركة الفن التشكيلي في العراق خلال نصف قرن) 1997

13– في التكوين: (مشترك) مع النقاد: طه حسين/ محمد مندور/ عبـد العظيـم أنيـس/ محمـود أمين العالم/غـالي شـكري/ غسـان كنفـاني/ نبيـل سـليمان) (صـدر باللغـة الروسـية/ عـن دار التقدم/موسكو/ 1984

14 – القاتل والضحية (ميثولوجيا وشعر) دار الوراق، 1998.

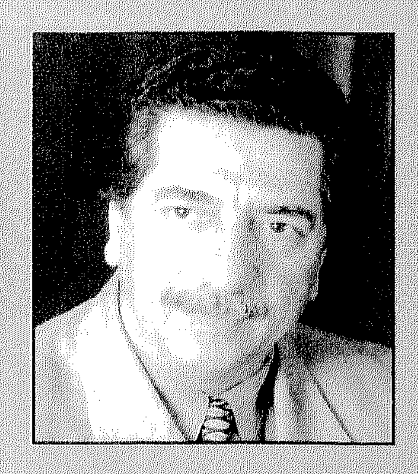
15 – آلة الكلام (النقدية):دراسة نقدية في بنائية النص الشعري /(تحت الطبع)

16 – حالات عشتار: (الكتاب الرابـع في سلسـلة (فنـانون عراقيـون)/ دراسـة تشـكيلية عـن الفنانة العراقية في المهجر: بتول الفكيكي/ (تحت الطبع)

أنجز للسينما والتلفزة والمسرح (سيناريوهات ونصوصاً) منها:

(والشجرة حياة)/ (فلسطين نعم) /(إشارة المعجزة)/ (وعد الماء)/ (الصوت الثالث)/ (مدينة الخزف)/ (ملحمة الحرية) / (الكنز الأخضر) / (الثمرة) / (خنساء العصور) / (الأنامل الخضر) / (صورة زمن) / (اغتيال الحياة) / (أول الضحايا لماذا؟)/ (البيت)/ (شعلة البناة) / (من أجل هؤلاء) / (فن النور)/ (ذات المناديل الأربعة)/ (روح الخالق)/ (أيام الطمأنينة)/ (العمق الأخضر) / (وجوه..) / (المندائيون)/

ترجمت إلى الانكليزية ونال بعضها شهادات وجوائز – وكلها وثائقية –



■ محمد الجزائري

إحتلال العقل

● يريدوننا أن «نتطبَّع» على ما لا نريده!
أو على ما نريده، ليس ممكناً..
لقد سلبونا الأرض والثروات، الثقافة والحرية..
يريدوننا أن نقدم «تفوق» الآخر، طرفاً في معادلة الوجود.
وألا نتوانى عن ملء صحوننا بالضجيج الإعلامي والشعارات، والأكاذيب، كي نغادر مائدة عصرنا، وأرضنا، ونحن جياع وتابعون!
كي تتوغل عربتنا في وحل التخلّف والخوف، أو في حقل ألغام (إسرائيل)!

● ولأننا لم نطرح على أنفسنا مبكراً سؤال القرن الحادي والعشرين: ماذا نريد؟
جعلوا حناجرنا محبوسة، وتمنوا أن يحبسوا عقولنا أيضاً.
ومع ذلك...
نحن نعرف بوعي، ما في دواخلنا، ونقدم إجابتنا الساحرة:
- أن نكون كما ينبغي ونحلم ونريد.
لأننا ننظر بعيون مركبة إلى ما يدور حولنا من صراع حضارات، وصراع ثقافات، وصراع مصالح.

● (التطبيع) مع الكيان الصهيوني، ليس شيمة عربية، ولا مهارة سياسة. انها جراحة غير نظيفة عملوا عليها في الجسم العربي منذ زمن، بدءاً من احتلال الأرض وانتهاء بمحاولة احتلال العقل.
كذلك فعلوا في «الحصار».
أرادوا تجويع عقولنا، بعد حبسها، وتهجيرها إلى المنافي.

● إذاً.. ما هو دورنا في القرن الحادي والعشرين كأمّة؟
هذا الكتاب: يأخذك فيه الكاتب محمد الجزائري بمهارته المعهودة، برحلة من بدايات (الهدنة الأولى: رودس ١٩٤٨) إلى نهايات (كوبنهاغن) التحالف، وأوسلو (السلام!) حتى سقوط بعض المثقفين، وسقوط الخيارات!
كما يأخذك من حصار الخبز في العراق الأغنى - الأفقر، إلى رحلة الطحين تحت درجة الصفر!..
كما يقودك إلى عراق ما بعد عام ٢٠٠٢، ماذا سيكون.. عند استقالة الخوف، واستقالة التخلّف..

● كتاب فيه من المعطيات والأحداث والوقائع ما يغنيك عن مكتبة!

■ الناشــر ■

لوحة الغلاف للفنان أرداش كاكافيان